في الممارسة المعجمية
للمتن اللغوي

د.عباس الصوري (*)

- بين القاموس والمعجم

يورد صاحب القاموس في مادة "قمس" أنها تعني "الغوص"، وأن "القموس" هي (بئر تغيب فيها الدلاء من كثرة مائها)، أما القاموس فهو "معظم ماء البحر"[1].

ويشرح لويس معلوف كلمة "القاموس" بمعنى "البحر" وهو أيضا (كتاب الفيروز آبادي في اللغة) ثم يضيف (ويطلقه أهل زماننا على كل كتاب في اللغة، فهو عندهم يرادف كلمة معجم)[2]، ويترجم "جوزيف نعوم حجار " في "المنجد العربي الفرنسي للطلاب "كلمة" قاموس، بالمقابل الفرنسي "Dictionnaire" دون الإشارة إلى معنى البحر[3]،

ويعيب د.إبراهيم السامرائي هذا الاستعمال، ويرى أن الصواب هو استعمال كلمة "معجم" للتمييز بين كتاب "الفيروز آبادي" المشهور، والمؤلفات المعجمية الأخرى[4]. إلا أن د.عبد العلي الودغيري يرى أن هذا الاستعمال (القاموس) قد شاع حاليا، وقد انتهى الأمر فيه، فبعد أن كانت كلمة "قاموس" تعني (وسط البحر أو معظمه، ثم أصبحت علما على كتاب الفيروزآبادي) (صارت) تعني أخيرا كل كتاب لغوي يحتوي على طائفة من الكلمات المرتبة والمشروحة)[5]. يجب إذن الفصل بين "قاموس" و"معجم" فيستعمل المصطلح الأول للدلالة على (كل كتاب أو تأليف له هدف تربوي وثقافي. ويجمع بين دفتيه قائمة من الوحدات المعجمية (المداخل) التي تحقق وجودها بالفعل في لسان من الألسنة ويخضعها لترتيب وشرح معيّنين) ويقابله في الفرنسية كلمة (Dictionnaire)، أما مصطلح معجم فيرى أنه أنسب للدلالة على (المجموع المفترض واللامحدود من الوحدات المعجمية التي تمتلكها جماعة لغوية معينة بكامل أفرادها، بفعل القدرة التوليدية الهائلة للغة)[6]، ويقابله في اللغة الفرنسية (Lexique).

ويسير كل من د.عبد القادر الفاسي الفهري وليلى المسعودي في نفس الاتجاه الذي يدعو إلى التمييز بين المصطلحين، يقول الفاسي الفهري عن اصطلاح "القاموس" إنه (الصناعة التي تتوق إلى حصر لائحة المفردات ومعانيها) أما "المعجم" (فهو المخزون المفرداتي الذي يمثل جزءا من قدرة المتكلم

(*) مكتب تنسيق التعريب

المستمع اللغوية)[7]. وتقترح ليلى المسعودي بدورها مصطلح (قاموس) كمقابل ل (Dictionary / dictionnaire) لأنه يقدم المداخل المعجمية مصحوبة بمعلومات تخص النطق والاشتقاق والمرادفات والأضداد والتعاريف إلخ...). والمعجم للدلالة على: (Lexicon/lexique) لأنه (يقتصر على إدراج مجموعة محصورة من المصطلحات تنتمي إلى حقل معرفي محدد ولا تكون مصحوبة بالمعلومات التي نجدها في القواميس)[8] في حين لا يميز أصحاب "القاموس الموسوعي لعلوم اللغة" مثلا، بين المصطلحين فهما يعنيان عندهم نفس الشيء كما يتجلى في تعريفهم التالي (القاموس أو المعجم يشير إلى المعنى أو المعاني التي تتضمن الكلمات... ولأسباب تبسيطية يمنح القاموس معلومات عن أشكال التغيرات الصرفية الخاصة بكل كلمة)[9].

وتلاحظ J. Rey-Debore في موسوعة"le langage"، حول مادة (معجم وقاموس) أن (الباحثين الأمريكيين يستعملون مصطلح "قاموس" حيث يستعمل الباحثون الفرنسيون مصطلح "معجم") وترى أن (القاموس يعد من أهم الأدوات الثقافية المحاطة بالإبهام) لأنه في نظرها يتداخل مع عدة مراجع كثيرة الرواج بين الباحثين، وتحدد مجالاته كالتالي (القاموس نص مزدوج البناء: هناك متوالية من المداخل العمودية تكون مرتبة حسب النظام الألفبائي، في مقابلها برنامج من المعلومات حول هذه المداخل يؤلف مجموعها جملة من المقابلات... هذا البناء المزدوج يجعل من القاموس كتابا مرجعيا، وليس نصا يقرأ من أول صفحة إلى آخرها[10] فهذه المجالات تقتضي (صناعة) خاصة تقوم (لأغراض عملية) كما يرى ذلك د.علي القاسمي، وأن لهذه الصناعة متخصصين لا يتقيدون بما يتقيد به علماء اللغة في دراستهم اللسانية، فهم يتبعون الخطوات الآتية (جمع المعلومات والحقائق واختيار المداخل وترتيبها طبقا لنظام معين، كتابة المواد ثم نشر النتاج النهائي)[11].

وفي هذا الإطار يطرح القاموس عدة قضايا لغوية، نذكر منها هذه الأمثلة:

2 – المعجم والشرح اللغوي:

2 – 1 – شرح المعنى :

تطرح قضية تفسير المعنى عدة صعوبات تنبثق عن الشروط التي يتم فيها استعمال المفردات، فهي تدخل في تراكيب متنوعة تجعل معناها يتخصص حسب كل تركيب. ومعنى هذا أن المفردة الواحدة تدل على أكثر من معنى (Polysemie)؛ ثم إن هناك مفردات لا تستقر على نفس المعنى، فالمعنى قد يتسع أو يتحول بفعل المجاز، وهكذا

تبرز مشكلة المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، والمعنى الأول والمعنى الثاني إلخ... مما يؤدي إلى انشطار الوحدة الدلالية للفظ تنشأ عنه (فروع تكون بدورها وحدات دلالية مستقلة)[12].

2 – 2 – علاقة المعنى بالنحو والصرف:

يرى د.علي القاسمي أن الدراسة التي تُعنى بمعاني المفردات وعلاقتها بالنحو والصرف من حيث (اشتقاق ألفاظها وأبنيتها ودلالاتها المعنوية والإعرابية والتعابير الاصطلاحية والمترادفات وتعدد المعاني)[13] تسمى بالمعجميات، وهي تختلف عن معنى "القاموسية"، التي تهتم -في نظره- بصناعة المعاجم لأغراض عملية مثل الاستعانة بها في (شرح ما غمض من ألفاظ النصوص التي نطالعها وما استعصى فهمه من تعابيرها)[14] خصوصا إذا كان الأمر يتعلق بنصوص تراثية يصطدم القارئ في تناولها بغرابة ألفاظها واختلاف مدلولاتها، بسبب تباعد زمان استعمالاتها، فتكون الحاجة هنا ماسة إلى المعاجم القديمة لضبط المعنى ودلالة الاستعمال.

فنحن عندما نتصفح القاموس لاستجلاء معنى غامض لكلمة معينة نصادف عدة عناصر تشوب مادتها وتكون هذه العناصر هي التي توجه معناها؛ فالأسماء مثلا لا ترد معزولة عن أداة التعريف، والأفعال لا يمكن فصلها عن أحرف الزيادة أو أحرف المضارعة، فاختلاف الصيغ وتغيير الأصوات يؤثر على المعنى مثل اختلاف نظم المفردات مع بعضها أو تغيير السياق، كل ذلك يؤدي إلى تغيير المعنى، لهذا نجد الباحثة (J.R.Debove) في موسوعة **(Le langage)** تعرف ''المعجم'' أنه (مجموع الوحدات التي تخضع لقواعد النحو... وأن اقتران النحو بالمعجم شرط ضروري وكاف لإنتاج جمل اللغة وفهمها...)[15] فهي ترى القاموس يحمل إشارات لجنس المفردات وكيفية مطابقتها وموقعها في الجملة... ويدخل هذا في نطاق النحو. إن هذا التقاطع بين مظهر المادة المعجمي ومظهرها النحوي والصرفي يجعل الدارس يعتقد أنه أمام موضوع واحد، يعالج من وجهتين مختلفتين، فإذا كان الأمر يتعلق بالنحو فهو يعالج من الكل إلى الجزء، وإذا كان يتعلق بالقاموس فهو يعالج من الجزء إلى الكل[16]، وقد سبق للعلامة دوسوسير أن نبه إلى أنه (ليس من المعقول أن نفصل المعجم عن النحو)[17] وسنجد مجموعة من الباحثين، عندما يريدون تعريف "المعجم"، يعمدون إلى مقارنته بالنحو باعتبارهما نظامين متقابلين (النظام المعجمي مفتوح، والنظام النحوي مغلق)[18].

ومعنى وصفهم للمعجم أنه نظام أي له قواعد تحكمه، لا يقصدون به محدودية هذه القواعد على غرار النحو، فالتقابلات في المعجم -مثلا- لها مدلول مختلف، فنحن إذا أخذنا موضوع "السكن" فإنه يحتوي على عدة مفردات تشكل حقله الدلالي (لكن كلمة منزل مثلا لا تقابل كلمة ''عمارة'')، ومعاني المفردات في المعجم تتسم نسبيا بالخصوصية أي أن لكل منها معنى خارجيا معينا، بينما معاني النحو تكون عامة ومجردة، وبما أن المعجم (يهتم بمعاني المفردات التي لا يمكن أن تجمعها قاعدة واحدة على غرار القواعد النحوية)[19] التي تتصف بالنظامية والاطراد، فقد جعله بلومفيلد مجرد ذيل للنحو

يتضمن (قائمة من الاستثناءات الأساسية)[20] التي تشتمل عليها اللغة. أما عند التوليديين فهو يشكل المكون الدلالي الذي بواسطته تؤول مفردات الجملة أي إمكانية تفسير مختلف القراءات المناسبة لكل مفردة يراد تأويلها... معنى هذا أن تركيب الجملة عندهم يتم على مستويين: تركيب نحوي مجرد ينبني عليه تركيب دلالي يعطي للجملة معناها، أو كما يقول أحد الباحثين: (إن بنية الجملة العميقة هي تركيب نحوي مجرد، وأنها ليست صورة دلالية للجملة أو بنية دلالية لها)[21]، فالمدرسة التوليدية إذن تفصل بين النحو والدلالة، وإن كان بعض المنشقين عنها لا يرون ضرورة لهذا الفصل، لذلك سموا أنفسهم بتيار ''الدلالة التوليدية''[22].

3 – المعجم والسياق الاجتماعي:

المعجم لا يطرح مشكل المعنى وعلاقته بالنحو والصرف فقط، وإنما يطرح أيضا انعكاس هذا المعنى على مستوى الحياة الاجتماعية والبراغماتية، وبالتالي العلاقة بين المعنى اللغوي والمعنى الاجتماعي، ويؤخذ على اللسانيات أنها (منهج داخلي يعتمد، في تفسير المتغيرات اللغوية، على ظواهر لغوية محضة...)[23] أي أنه يغفل السياق أو الموقف أو المقام.

فاللسانيات الاجتماعية إذن تعطي أهمية للسياق الذي يحدث فيه التواصل اللغوي، والمقصود به اعتبار الموقف أو المقام، فنحن عندما نتحدث عن الموقف لا يمكن تصوره دون العوامل الفاعلة فيه، ونعني بذلك: المرسل والمرسل إليه وكذلك العوامل الاجتماعية المحيطة والتي يأتي الخطاب اللساني لإحداث التواصل داخلها، هذه العوامل الاجتماعية هي التي تؤثر في النص الملفوظ، وبه تحدث صياغة العبارة ونوع الأسلوب المناسب: الأمر، النهي، الإقناع، التأكيد، الإغراء...[24] هذا البعد الخارجي للخطاب هو أقرب المناهج إلى التطبيق البيداغوجي باعتبار عملية التدريس عملية براغماتية تنحو نحو الاستعمال لا نحو التحليل الداخلي قصد إعادة النظريات التي تحكم اللسان. من هذه الزاوية الخارجية الاجتماعية ينظر ج.ماطوري إلى القاموس، فهو يرى أن دراسة المفردات هي دراسة المجتمع، وأن (الانطلاق من دراسة المفردات إنما يكون لمحاولة تفسير مجتمع معين)[25]. فالمعجمية تتناول اللغة كظاهرة اجتماعية، وبالتالي لا يدرس (المعجم لذاته وإنما يدرس لتفسير المجتمع)[26]. كيف ذلك؟

ينظر ج.ماطوري إلى المفردات باعتبارها أفعالا اجتماعية، وهي تصنف في مجموعات تسمى (حقولا)، وتصنف هذه الحقول (حسب التصورات والمفاهيم الخاصة بكل مجتمع والخاصة بكل حقبة زمنية)[27] ومعنى هذا أن اللغات يمكن أن تلتقي في أمور عامة لكنها تختلف في تصوراتها ومفاهيمها الخاصة، والذي يهم في اختلاف اللغات (هو في رؤية العالم)[28] وكما تختلف المجتمعات في رؤاها وتتغير هذه الرؤى حسب الزمان والمكان، كذلك تحصل الاختلافات في لغاتها، (فالتغيرات الاجتماعية هي

أساس التغيرات اللغوية والدافع لها)[29] وبالنسبة إلى القاموس، لا ينظر ج.ماطوري إلى المفردات في شكلها المجرد وإنما ينظر إلى القيمة التي تحملها كل مفردة، وهذه القيمة هي التي تعطي الكلمة مدلولها سواء كانت حسية أو ذهنية، فقيمتها قيمة اجتماعية بمعنى أن أهميتها تحدث بفعل وضعها داخل السياق الاجتماعي، أما خارجه فهي مجرد سديم، يقول: (ليست الكلمة مجرد طريقة سهلة لتعيين ما ليس من جوانب سلسلة الترابطات الصوتية والتصورية)[30].

ومعنى هذا أن الرصيد اللغوي الذي يكتسبه المتعلم ليس مجرد ركام من الأفعال والأسماء والحروف، وإنما هو عبارة عن تجارب حية وسلوكات عينية، يجب أن يكون لها مكان داخل الحياة التي يعيشها المتعلم، فالتكوين اللغوي هو أساسا فعل تربوي، والفعل التربوي كما يراه دريفيون (J.Drévillon) (ليس هو إكساب المتعلم ركاما من معارف زائلة، وإنما إكسابه مواقف ومناهج تساعده على تنمية القدرة على التجدد وامتلاك المعارف، وهذا معنى قولهم "تعليم الطفل كيف يتعلم"[31].

فالموقف البيداغوجي يقتضي إذن التعامل مع القاموس في إطار تفاعل محتواه مع الإعداد اللغوي للمتعلم، فما هي القضايا اللغوية والتعليمية التي يطرحها قاموس اللغة العربية للمتعلمين في المدرسة المغربية؟!

4 – المعجم والمادة المعجمية:

قبل الإجابة عن السؤال الوارد في الفقرة السابقة، نود معرفة موقع هذا القاموس داخل الحركة المعجمية للغة العربية كما تتجلى في التراث الهائل الذي تراكم على مدى 14 قرنا من الزمان، وهذا التراكم في حد ذاته يطرح عدة مشاكل لمن أراد الاستفادة منه في تصور حاجيات المتعلمين للغة العربية، صغارا كانوا أو كبارا، فنحن إذا نظرنا إليه من الناحية التعاقبية سنجد معظم الباحثين في المعجميات العربية يرون أن المادة اللغوية قد جمعت ودونت ورتبت خلال أربع مراحل تاريخية:

– **المرحلة الأولى**، وهي مرحلة جمع الحديث النبوي والشعر والأدب، وكانت الخطة تهدف إلى جمع الألفاظ العربية من أفواه العرب بالبادية عن طريق شد الرحال إليهم في عين المكان، مثلما فعل أبو عمرو بن العلاء والأصمعي وأبو عبيد وغيرهم...[32].

– **المرحلة الثانية**: تم فيها تدوين المواد العربية في رسائل صغيرة متفرقة، جمعها رابط لفظي معين مثل كتاب (النوادر) و(الأضداد) لقطرب وكتاب (فعلت وأفعلت) للزجاج وغيرها.

– **المرحلة الثالثة**: وهي المرحلة التي وضعت فيها المعجمات اللغوية الشاملة التي يفخر بها التراث العربي كالعين والصحاح والعباب واللسان وتاج العروس إلخ.

ولقد سجل أحمد أبو سعد في دراسة له تحت

عنوان (المعاجم العربية في موقعها الراهن وخطة لتطويرها) مجموعة من المآخذ على هذه الأعمال نجملها فيما يلي:

- صعوبة ترتيب المداخل
- الخلط بين المواد،بين المعنى الحقيقي والمجازي
- عدم استكمال المادة
- عدم التفرقة بين الصفة والاسم
- إغفال كثير من صيغ الأفعال
- الغموض في التعريفات وكثرة الحشو
- إهمال القيمة الاستعمالية
- شيوع التصحيف والتحريف والخطأ في رواية الشواهد
- وقوفها في الجمع على فترة الجاهلية والإسلام[33].

- المرحلة الرابعة: وهي التي نحن فيها وتبتدئ مع النهضة وحركة الاحياء، وفيها حاول المعجميون المحدثون وضع معجم حديث يكون شبيها بمعجمات اللغات الحية، مستفيدا من تقنياتها في ترتيبه وإخراجه وذلك بإدخال الرسوم والصور الموضحة وإضافة الأعلام والأمثال إلخ... مثلما نجد في "المنجد" للأب لويس معلوف و"المعجم الوسيط" الذي أشرف على إخراجه المجمع اللغوي المصري، وكان ضمن أعضاء لجنته: أحمد حسن الزيات وإبراهيم مصطفى ومحمد علي النجار[34].

5 - المعجم بين التجديد والمحافظة:

ويبدو أن مؤشر التجديد في هذه الحركة المعجمية الحديثة قد سار في اتجاهين:

- اتجاه التجديد مع المحافظة على المتن المعجمي القديم
- اتجاه التجديد مع إدخال تغييرات شكلية لاحتذاء المعاجم الحديثة في اللغات الحية.

5 - 1 - يمثل الاتجاه الأول المعاجم التي بنت متنها اللغوي على معجم من المعاجم القديمة، خصوصا منها معجم "القاموس المحيط" للمجد الفيروزآبادي، مع إضافة أو تكملة من بعض القواميس الأخرى مثل "تاج العروس"، للزبيدي، وهو بدوره عبارة عن تفسير للقاموس واستكمال لمواده، والقاموس نفسه انطلق فيما يبدو من مشروع كان ينوي فيه مجد الدين الجمع بين قاموسي ''المحكم'' لابن سيده (398-458هـ) و"العباب" للصاغاني (577-650هـ) لأنهما في نظر المؤلف (غرتا الكتب المصنفة في هذا الباب)[35]. وقد لقي هذا التوجه استحسانا من قبل القراء، فنال المعجم حظوة وإقبالا على تدارسه منذ حياة المؤلف نفسه بحيث يقول عنه المرتضى الزبيدي في مقدمة ''تاج العروس'' (اشتهر في المدارس اشتهار أبي دلف بين مختصره وباديه، وخف على المدرسين أمره إذا تناولوه، وقرب عليهم مأخذه فتناولوه وتناقلوه)[36]. وقد تناولت الكتاب عدة دراسات منذ ظهوره إلى الآن، ما بين شرح وتعليق واستدراك واختصار، ولعل أجلها، في باب الاستدراك والإثراء، كتاب "تاج العروس من جواهر القاموس" للمرتضى

الزبيدي (1145-1205هـ)، وكتاب "الجاسوس على القاموس" لأحمد فارس الشدياق المطبوع سنة 1299هـ.

ومن أهم المعجمات الحديثة التي أخذت عن "القاموس" أيضا معجم المعلم بطرس البستاني (1819-1883م) الذي سماه "محيط المحيط" ومن خلال عنوانه ندرك توجه صاحبه، فقد أراد لمعجمه أن يشتمل على ما في "القاموس" أساسا قبل أن يضيف إليه ما بدا له من زيادات تتصل بالعصر الحديث فيما يحتاجه القارئ من مصطلحات ومفاهيم مستحدثة في العلم، يقول في مقدمة كتابه (ولما كان المؤلف يحتوي على ما في محيط الفيروز آبادي الذي هو أشهر قاموس للعربية من مفردات اللغة، وعلى زيادات كثيرة عثرت عليها في كتب القوم، وعلى ما لا بد منه لكل مطالع من اصطلاحات العلوم والفنون، سميناه محيط المحيط...)[37].

وقد فعل الشيء نفسه سعيد الخوري الشرتوني (1849-1919م) في معجمه الضخم المسمى (أقرب الموارد في فُصَح العربية والشوارد)، وعبد الله البستاني (1854-1930م) في معجمه (البستان)... ويمكن أن نعتبر أصحاب هذا الاتجاه امتدادا للمعجميين القدماء الذين تشكل أعمالهم نوعا من استنساخ بعضهم لبعض، والذي يؤكد ذلك، أن عنصر المحافظة كان هو الذي يوجه أعمالهم، أما الاجتهادات التي كان ينفرد بها كل واحد منهم عن الآخر، فهي تتجلى في جانب مراكمة الإضافات والتحقيقات وتوسيع مادة الشواهد على الأصل، كما أن هذه المعاجم، عندما نقوم بعملية استقصاء لمادتها، نجدها تكاد تنهل من نفس المادة، يقول الشرتوني في مقدمة كتابه (أقبلت على كتب الأئمة الثقات، واللغويين الأثبات من مثل ابن منظور المصري، صاحب لسان العرب، والزمخشري، مصباح البلاغة، والزبيدي، والجوهري، مؤلف الصحاح والفيومي مؤلف المصباح، والراغب الأصفهاني صاحب المفردات... والزبيدي صاحب التاج والمجد صاحب القاموس البديع المنهاج، وابن فارس مؤلف المجمل، والرازي منتقى المختار الأفضل)[38] فالمراجع المعجمية تكاد تكون هي نفسها[39]، فهي التي تشكل الأصل وإضافة هؤلاء المعجميين لا تعدو أن تكون فروعا عليه، لذلك تباعدت مادة مؤلفاتهم عن الحياة العصرية التي تجردوا لسد حاجيات القارئ حولها. وهذا ما جعل أحدهم يصف العلاقة بين هذه المعاجم والحياة العصرية بأنها منعدمة، ويستشهد بمقال لإبراهيم اليازجي (1847-1906م) منذ أواخر القرن التاسع عشر بعنوان "اللغة والعصر" يقول فيها "لو أراد الكاتب أن يصف باللغة العربية حجرة منامه لم يكد يجد فيها ما يكفيه لهذه المؤونة اليسيرة"[40] وسنجد أحمد حسن الزيات بعد 60 سنة من هذا المقال يردد نفس الملاحظة، وبعده الأستاذ أحمد الأخضر غزال عندما يقارن بين اللغتين الفرنسية والعربية في قدرتهما على الإحاطة بالتعبير عن محيط المتعلم، وسنعود إلى ذلك في حينه.

بعد وفاة صاحبه سنة 1946، فقد حاول صاحبه في البداية أن يحذو حذو المعاجم الأجنبية وذلك بربطه بجمهور الطلاب الذين (لم يتمرسوا بالمعجمات القديمة عسيرة التناول) فألف لهم هذا المعجم المدرسي الذي وصفه بأنه (ليس بالمخل المعوز، ولا بالطويل الممل المعجز، يكون قريب المأخذ، ممتازا بما عرفت به المعجمات المدرسية في اللغات الأجنبية من إحكام الوضع ووضوح الدلالة)[44] لكن هذا التصور المدرسي الذي تحدث عنه الأب لويس معلوف قد اتسع بفعل الطبعات التجارية مختلفة الألوان والأحجام والتي تركز عليها ورثته على حساب ضبط مادته والحرص على تصحيحها مما جعل بعضهم يرى في هذا الاتساع والانتشار نوعا من الاحتضار (على يد ورثة لم يحسنوا التصرف فيما ورثوه)[45].

وعلى العكس من ذلك، حاول أصحاب "المعجم الوسيط" أن يخرجوا عملا حديثا يحافظون من خلاله على سلامة اللغة، وكان ذلك من أهم الأهداف المرسومة له من قبل المجمع اللغوي المصري الذي كان له موقف من الألفاظ، المولدة أو المعربة أو الدخيلة، بحيث لا يقر منها إلا ما كان يسير على مقاييس اللغة العربية، فمفهوم « سلامة اللغة » لدى المجمع، وإن كانت تشترط نهج مقاييس اللغة، فهي غير منقطعة، ولا تنحصر في (عصر معين ولا مكان معين)[46] وبما أن اللغة العربية قد طرأت عليها تغييرات كثيرة بفعل حاجيات العصر ومتطلباته، فقد قرر مجمع اللغة أن ينفتح على هذه التطورات، لكن ذلك الانفتاح يكون وفق مقاييس محددة حتى تتحقق هذه السلامة للغة، ومرد ذلك يعود في الغالب إلى الهاجس التربوي الذي كان يشغل بال وزارة المعارف فيما بين الحربين بمصر، حيث نجدها تسد الفراغ الذي كان يعاني منه الطلاب أمام انعدام تأليف معجم ينسجم مع مراحل التعليم الثانوية آنذاك (وتلافيا لأي انتظار قررت [وزارة المعارف] أن يكون "المصباح المنير" الأداة الصالحة لهذا المجال بعد تنقيحه وتهذيبه، ثم سارعت باقتراح " مختار الصحاح" وإعادة تبويبه"[47].

فالهاجس إذن كان هو سد الحاجات العلمية للطلاب، لكن المعاجم القديمة، إن كانت لها فائدة في المادة اللغوية المحضة فهي بحكم قدمها لا يمكن أن تسعف الطالب فيما جد من مصطلحات ومفاهيم علمية مستحدثة، لذلك عمد المجمع العلمي إلى تشكيل لجنة لتأليف معجم يحقق هذه الأهداف، فتشكلت، كما قلنا سابقا، من متخصصين، كان من بينهم (السادة إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزيات، حامد عبد القادر، محمد علي النجار)[48]، فاتخذت اللجنة خطة لتأليف ثلاثة معاجم: معجم كبير لتغطية حاجات المتأدبين وعلماء اللغة العربية، شرع فيه و لم يتم إنجازه، معجم وسيط عملت اللجنة على إخراجه إلى الوجود في جزئين سنة 1960، ويشتمل على (30 ألف مادة مشروحة، ومليون كلمة مضبوطة بالشكل، مرتبة على أوائل الأصول وفق الترتيب

الألفبائي المعروف، مشفوعة بنحو 600 صورة توضيحية)[49]، أما المعجم الثالث واسمه "المعجم الوجيز "فلم يتم إنجازه إلا بعد الوسيط بنحو 20 سنة؛ أي في سنة 1980، واعتمدت اللجنة في اختيار مواده على نفس المقاييس المطبقة في " المعجم الوسيط". وقد بلغت هذه المواد زهاء 5000 مادة مضافاً إليها 600 صورة توضيحية. ويبدو أن فكرة " الإيجاز" التي تتحكم في عملية الانتقال من "الوسيط " إلى " الوجيز " غير واضحة، كما لاحظ ذلك د.أبو العزم، فهي (تعني عند [المؤلفين] اختصار المداخل وشرح الألفاظ أو تعريفها)[50] فإذن هو " إيجاز" في الكم لا غير، لكن حل مشكل "الكم" في عملية تيسير المعجم العربي لغاية تعليمية غير كاف. نصل الآن إلى قضية تحديث المعجم العربي عن طريق إدخال المصطلحات العلمية لكن -كما لوحظ ذلك سابقا -مع الحرص على سلامة اللغة، ومن أجلها اعتمد في عملية التحديث على ما اختبره مجمع اللغة المصري وأقره، وإن أعوزه اللفظ قاس على شبيه له مما ورد في قرارات المجمع، وهكذا نجد معظم الألفاظ الحضارية التي تتعلق بالعلوم الرياضية والفيزيائية والعلوم الاجتماعية كانت من الألفاظ التي أقرها مجمع اللغة العربية، ولتمييزها عن غيرها وضع بجانبها الرمز (مج) الذي يعني أن اللفظ أقره المجمع، مثل: المجهار (في علم الطبيعة) والمرقم (في التصوير) والتركيب (في الفلسفة) وتراخوما (في علم الأحياء) إلخ.

لكن (المعجم الوسيط) لم يقف عند قرارات مجمع اللغة العربية، فقد كان له موقف من الألفاظ المولدة والمعربة والدخيلة؛ فهو لم يتحفظ في إدراج الألفاظ المعربة مثلما فعل القدماء وقد كان لهم أسلوب في التعامل مع الألفاظ المستعارة من لغات أخرى، فإذا استطاعوا إدخالها في القالب العربي على نهجهم في تعريب الألفاظ بإحداث تغييرات عليها بالزيادة أو النقص أو القلب، قُبلت وأصبحت اللفظة عربية، وإذا استعصت على التغيير، بقيت على حالها، وأُدرجت ضمن الألفاظ الدخيلة، مثل الطربوش والتلفون والطقس إلخ...

أما الألفاظ المولدة، فهي تنقسم قسمين:

أ - الألفاظ التي تولدت بفعل الحضارة الإسلامية بعد عصر التدوين والرواية مثل أسماء الأبازير والرياحين والفواكه والطيور، وبعض الألبسة وأثاث البيت ومظاهر الزينة والعمران إلخ... وهذه أصبحت في صميم العربية، ومعاجم المتأخرين حافلة بها كالقاموس والتاج واللسان.

ب - الألفاظ التي استعملها المحدثون في العصر الحديث وشاعت في لغة الحياة العامة ومنها: المجتمع، والجامعة... ورقى المستخدم (رفعه درجة)، والركن (جانب من برنامج...) ...)[51].

وعلى الرغم من الانتقادات الموجهة للمعجم الوسيط فإنه قد أدى مهمة ترويج قرارات مجمع اللغة المصري التي تنم عن اجتهادات لم تكن دائما محل قبول من طرف بقية المعجميين العرب، فاللجنة -

مثلا- لم تكن تتحرج، إذا أعوزها اللفظ المحدث، أن تنهل من اللهجة المصرية، وهي كما نعلم لهجة رائجة في البلدان العربية بفعل انتشار الأشرطة السينمائية والمسلسلات والبرامج التلفزية التي برهن المصريون فيها على باع طويل، فحظيت بالرواج والانتشار في معظم الدول العربية، ولكن هذا لا يعطيها حق احتكار الفصحى والاقتصار على لهجتها في إغنائها، فلفظ "قرة جوز" لا يعرف هذا الاصطلاح إلا في مناطق كانت محتلة من طرف الأتراك، ومنها مصر، ويقصد به (الدمى الصغيرة من الورق المقوى أو الخشب الرقيق، يحركها إنسان مختف وينطق بما تقول، فترى كأنها تتحرك وتتكلم)[52] فقد ورد هذا اللفظ مركبا من جزئين « قرة » و « جوز »، وعندما وصل اللفظ إلى المغرب العربي وقع تعديله فأصبح « كراكيز » لكن المجمع أقر اللفظ المركب على الرغم من تنافر أصواته، وتجاهل ما حصل فيه من تعديل، ويمكن أن نقيس على ذلك ألفاظا واستعمالات أخرى كثيرة... ثم إن المعجم الوسيط، فوق هذا وذاك، قد حد من فائدته المدرسية اقتصارُه على المادة اللغوية وحدها، ولم يتطور ليستوعب (مثل ما فعل أصحاب « المنجد ») ملحقا بالأعلام التي يحتاج الطلاب إلى الإلمام بها في تعاملهم مع النصوص الأدبية والفكرية، خصوصا منها النصوص الكلاسيكية التي يواجهها الطلاب بكثرة في المعاهد الثانوية، والتي كانت من بين الأهداف الأساسية التي من أجلها ألف المعجم بمباركة المجمع اللغوي في مصر.

6 – الاتجاه التعليمي في المعجم:

لا شك أن المعجميين، وهم يقبلون على وضع معاجمهم، كانوا على بينة مما يفعلون. كانت لهم أهدافهم الخاصة، وكان في ذهنهم الخطة المرسومة لإنجاز هذه الأهداف، وقد رأينا كيف أن عملية تعليم اللغة لا يمكن فصلها عن المعجم الذي يشكل متنها، فهل كان المعجميون يدخلون في اعتبارهم هذه العلاقة الوثيقة؟ لقد رأينا كيف أفصح المعجميون، المحدثون خاصة، عن غاياتهم التربوية، لكن الإفصاح عن النوايا شيء ومدى تحققها على الوجه المطلوب شيء آخر، أما القدماء فقد كانت لهم مواقف مختلفة تبعا لاهتمامات كل واحد منهم، وإن كان البعد التربوي غير بعيد عن هذه الاهتمامات، كما سنرى.

6 – 1 – في المعاجم القديمة:

هناك تقسيم درج عليه الباحثون في المعجم العربي، يصنف التراث المعجمي عند العرب إلى ما يسمى بمعاجم الألفاظ، وكان يغلب على جهود أصحابها الجانب الاستقصائي من جهة والهاجس التوثيقي، من جهة أخرى، وهناك صنف آخر يسمى بمعاجم المعاني مثل المعاجم التي اهتمت بالأضداد وأنواع الصيغ الصرفية وأنواع الأفعال إلخ... وقد كانت هذه المعاجم قد أُلّفت تلبية لحاجات الشعراء والكتاب من المعاني والعبارات المناسبة لمختلف الاستعمالات...

وسواء أكانت الغاية استقصائية كمية أم موضوعية نوعية، فإن الخلفية التي توجه أعمالهم -في معظمها- هي الإحاطة بالمعنى الغامض لاستجلائه وتفسيره، خصوصا عندما يتعلق الأمر بفهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. وقد كانت العادة، قبل ظهور المعاجم، أن يرجع الناس، متى استغلق عليهم لفظ أو اضطرب لديهم معنى من المعاني، إلى " أهل العلم" فالعرب كانوا يعتزون بلغتهم التي آثرها الله فجعلها لغة القرآن، وكان فخرهم يتعاظم بسبب ما يرونه من اتساع لغتهم وغنى معجمها إلى حد يرون لغتهم لا حدود لمعانيها وألفاظها، وذلك مدلول ما يؤثر عن الكسائي في قوله "لقد درس من كلام العرب كثير" وكذلك ما يروى عن أبي عمرو بن العلاء، وهو من القراء ومن الرواة الكبار، أن (ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير)[53].

وقد كان للرواة دور في جمع اللغة وتفسير ما غمض منها وكانت لهم مناهج في ذلك، فقد كان ابن عباس ينصح الناس إذا خفي عليهم معنى أن يردوه إلى الشعر، لأن (الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله رجعنا إلى الشعر فالتمسنا ذلك منه)[54].

ومع ظهور المعاجم تطورت أساليب معالجة الألفاظ وانتقل الأمر من مجرد محاصرة المعنى، داخل السياق اللغوي والاجتماعي أو خارجه، إلى غايات أخرى متصلة بتدقيق أدواتهم في عملية الشرح والتفسير، ومن هذه الغايات: مسألة حصر مفردات اللغة والتنبيه على ما فيها من دخيل أو جمع صحاحها دون تصحيف أو تحريف، فمعجم الجوهري المشهور بالصحاح استطاع صاحبه أن يجمع فيه قُرابة 40000 مادة مشروحة، وسيتطور هذا الكم عند صاحب القاموس ليصل إلى 60000 مادة. وقد اشتمل (لسان العرب) لابن منظور على 80000 مادة. وقد وصل صاحب "تاج العروس"، في استدراكاته على القاموس، إلى 120000 مادة، وكل مادة من هذه المواد يمكن أن يتولد عنها ما لا حصر له من الألفاظ، قد يبلغ بها بعضهم إلى زُهاء 12 مليون لفظة[55].

لقد تبارى المعجميون في عملية الجمع إلى غاية قصوى، أصبح المعجم العربي معها ضربا من الموسوعات الهائلة، تختلط فيها اللغة بالأدب وبالتاريخ والخرافات والأساطير، مما جعل اقتحام هذه المعاجم لا يخلو من متاعب (لا يستطيع من لم يتمرس بها أن يصل إلى ضالته فيها بيسر وسهولة)[56].

يرى ابن منظور أن المشكلة مركبة، لها وجهان: هناك مسألة الجمع من جهة، وهناك أيضا قضية الترتيب بعد الجمع، لذلك يصنف أصحاب المعاجم (بين رجلين، رجل أحسن الجمع و لم يحسن الوضع (الترتيب)، ورجل أجاد الوضع مع رداءة الجمع، و لم نجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة للأزهري، ولا أكمل من المحكم لابن سيده، إلا أن

الناس أهملوهما لو عورة المسلك وسوء الترتيب...)[57].

وهناك غاية أخرى، لعلها من أهم الغايات التي توخاها أصحاب المعاجم، تتصل اتصالا وثيقا بقضية الجمع والاستقصاء، ونعني بها مسألة توثيق المادة، ويبدو هاجس التوثيق جليا في تسمية أعمالهم، فكما أن أسماء مثل « القاموس » و « العباب » و« البارع » تحيل على ما أشرنا إليه من عملية الاستقصاء والتبحر في الجمع، كذلك أسماء مثل، "المحكم" و "التهذيب" و "الصحاح" توحي بمعنى الحرص على الدقة والتثبت في النقل والرواية. لقد كان المعجميون على وعي بثقل المسؤولية (فكان أحدهم يشعر أمام اللفظة بما يشعر به ناقل الحديث النبوي من حرج يجعله لا ينطق بالحرف إلا مسندا إلى قائله أو معزوا إلى راويه أو مؤيدا بالشاهد والدليل)[58] فكثرت الإحالات ومعها الوجوه والاختلافات وأثقلت المادة بأنواع من الشواهد والدلائل إلى حد التخمة وهذا كله لمزيد من إضفاء المصداقية على هذه الإحالات. يقول صاحب التهذيب في مقدمته (ولم أودع كتابي هذا من كلام العرب إلاّ ما صح لي سماعا منهم أو رواية عن ثقة، أو حكاية عن خط ذي معرفة ثابتة اقترنت إليها معرفتي، اللهم إلا حروفا وجدتها لابن دريد وابن المظفر في كتابيهما، فثبت شكي فيها وارتيابي بها)[59].

هذه التحريات التي لازمت التأليف المعجمي لا يمكن تجاهل خلفياتها التعليمية، ولكن المعجمي وهو يلتزم بها يريد أن يبقى في السكة التي نهجتها الثقافة الإسلامية في مختلف علومها، سكة الدقة والتثبت في الرواية على غرار ما كان يفعله رواة الحديث النبوي فابتكروا لذلك سبلا معقدة في كيفية بناء الأسانيد وضبط الروايات، فأصحاب المعاجم إذن وهم يقومون باستقصاءاتهم اللغوية واختباراتهم المنهجية وتكثيف الروايات والشواهد، لا يهمهم أن تطول المادة أو تقصر، ولا يعنيهم أن تلتف مسالكها وتتعقد إلى حد يجعل اقتحامها من الأمور العسيرة لأنهم لم يكونوا يأخذون بعين الاعتبار جمهور المتعلمين والطلاب، و لم يضعوا نصب أعينهم الكيفية التي يمكن أن يستفيد بها هؤلاء من أعمالهم، بل تجد منهم من يستنكر إسناد مهمة الإلمام باللغة لتكون بواسطة المعاجم مثلما فعل الصاحب بن عباد (324-385) صاحب معجم "المحيط" تجاه الهمذاني (ت 320هـ) صاحب كتاب « الألفاظ الكتابية »، قائلا: « لو أدركت عبد الرحمان بن عيسى مصنف كتاب الألفاظ لأمرت بقطع يده » فسئل عن السبب فقال: « جمع شذور العربية الجزالة في أوراق يسيرة فأضاعها في أفواه صبيان المكاتب ورفع عن المتأدبين تعب الدروس والحفظ الكثير والمطالعة الكثيرة الدائمة »، فبالنسبة إلى ابن عباد، عملية التعليم يجب أن تتركز على الرواية وتمرين القريحة على الحفظ، وقوة العارضة في الحفظ مهما بلغت، فهي لا تستطيع أن تطال ضخامة المتن المعجمي الذي يصل

إلى ملايين المفردات...

فأصحاب المعاجم القدماء لم يكن يعنيهم شؤون الناشئين من طلاب اللغة العربية (ولم يأخذوا بعين الاعتبار موضوع الحجم أو موضوع القيمة المادية للمعجم)[60] مثلما سيفعل المعجميون المحدثون، لكن، وكما قلنا سابقا، فهم وإن تجاهلوا حاجات المتعلمين، فإن أعمالهم لم تكن بمعزل عن النشاط التعليمي، ظهر هذا -كما قلنا- في مناهج التحري والتوثيق لمادتهم اللغوية، كما تجلى في تسميتهم معاجمهم بأسماء تعكس هذا الحرص على تصحيح المتن اللغوي وتنقية رواياتهم من شوائب اللحن وزلل الأخطاء، ولقد جاء من بعدهم من وظف جهودهم لغايات تعليمية محضة، وهذا ما لاحظه د.أبو العزم عندما قال: "إن تأليف المعاجم المدرسية يأتي باستمرار بعد جهد ضخم... ينصب أولا على إنهاء إنجاز المعاجم الشاملة، ويتحول ثانيا إلى التفكير في تلخيصها وإيجازها في معجم موجز يسد حاجات طلاب العلم)[61] وهكذا اختصر أبو بكر الزبيدي (317-379هـ) كتاب العين، واختصر من بعده أبو بكر الرازي (ت.660هـ) كتاب الصحاح وسماه "مختار الصحاح" واختصر الصاحب بن عباد كتاب "الجمهرة" وسماه "جوهرة الجمهرة" إلخ... وهكذا توالت المختصرات، وكانت كلها لغاية تعليمية إذ بواسطتها تسهل عملية الحفظ. والرواية التي حث عليها الصاحب بن عباد، ومنهج التلخيص في عمومه لا يبعد كثيرا عن أسلوب آخر وظف لغاية تعليمية ألا وهو نظم المتون ونقلها من النثر إلى الشعر حتى يسهل تذكرها وهي موزونة مقفاة.

هذه المعاجم القديمة إذن لم تكن تتغيى إيصال المادة اللغوية إلى أيدي المبتدئين من الناشئة المتعلمة بشكل صريح، ولكن جهودها قد وظفت بشكل غير مباشر عن طريق ما يقوم به أئمة اللغة من تدريس هذه المعاجم ومن إنجاز مختصرات لتيسير الإلمام بها. أما موقف المعجميين المحدثين من قضية استعمال المعجم لغاية تربوية، فقد كان مختلفا، وتطورت الغاية التعليمية عندهم متدرجة في مراحل، نذكرها فيما يلي:

6 - 2 - عند المعجميين المحدثين:

استمر الرعيل الأول من المعجميين المحدثين في التقليد البيداغوجي الذي تلقوا فيه تعليمهم، وهو -كما قلنا- الاعتماد على المختصرات بدل الأمهات، فقد غزت هذه المختصرات معاقل التدريس وأضحت ركنا أساسيا من أركان مناهج العلوم، إلى حد هددت، بهيمنتها في ميدان التعليم، الأمهات التي أخذت عنها هذه المختصرات. وقد نبه إلى هذه الظاهرة الإمام السيوطي قائلا: (قال أبو الحسن الشاري في فهرسته: كان شيخنا أبو ذر يقول: المختصرات التي قضت على الأمهات أربعة: مختصر العين للزبيدي، ومختصر الزاهر للزجاجي ومختصر سيرة ابن إسحاق لابن هشام ومختصر الواضحة للمفضل بن سلمة)[62].

كان الرعيل الأل من المعجميين إذن يعكس

انشغالاته البيداغوجية في السير على نهج القدماء، وهكذا عمد المعلم بطرس البستاني إلى معجمه ''محيط المحيط'' فاختزله في معجم صغير سماه "قطر المحيط''، وأشار في مقدمته إلى علاقة هذا الاختصار بتيسير تحصيل اللغة العربية وتسهيل أسبابها (ولما كان أمر تحصيلها وتسهيل أسبابها من مرغوبات من اتصف بالحماسة الوطنية والحَمِية العربية، رأينا أن نضع فيها هذا التأليف... ليكون للطلبة مصباحا يكشف لهم عما أشكل عليهم من مفردات اللغة التي عرفتها عند المحققين هي نصف العلم...)[63].

وكذلك فعل عبد الله البستاني صاحب معجم البستاني، فقد عمد إلى اختزاله بدوره في معجم صغير سماه ''فاكهة البستان'' (جرى في ترتيبه على نسق معجمه الكبير في الترتيب والشروح والرموز مع ميل إلى الاختصار بما يتناسب مع طلبة المدارس، وصدر في مجلد واحد فقط عن المطبعة الأمريكية ببيروت عام 1930)[64].

ولقد رأينا كيف كانت خطة المجمع اللغوي المصري انطلاقا من الاعتماد، في برامج التعليم، على "مختار الصحاح'' للرازي إلى ظهور فكرة المشروع الثلاثي الذي نفذ منه "المعجم الوسيط" ليقع اختصاره وتلخيصه في معجم أصغر، سنة 1980، هو ''المعجم الوجيز" الذي حاولت من خلاله لجنة المؤلفين (الوفاء بحاجة الطلاب... مراعية سبيل القصد، مهملة الغريب المهجور... مؤثرة الدقة والوضوح في شرح الألفاظ أو تعريفها، حريصة على أن يكون بلغة عصره، لا يلتزم عبارات الأقدمين التي كثيرا ما جاءت غامضة)[65].

أما "المنجد" فقد اكتسى صبغة مدرسية منذ ظهوره، فتعددت أحجامه من كبيرة إلى وسيطة وصغيرة سائرا في ذلك على نهج المعاجم الفرنسية وبخاصة "معجم لاروس"، يقول في مقدمة طبعته 18 إنه: "يسير فيه -مع المنهج الذي سارت به المعجمات اللغوية الأجنبية" وأنه "ممتاز بما عرفت به المعجمات المدرسية في اللغات الأجنبية"...

بالإضافة إلى ظاهرة المختصرات البيداغوجية التي شكل الرعيل الأول من المعجميين المحدثين نوعا من الامتداد لها، فقد اتسمت أعمالهم -كما أشرنا إلى ذلك سابقا- بظاهرتين: ظاهرة المحافظة في المتن مع التجديد في الشكل مثلما نجد في معجم الشرتوني ''أقرب الموارد'' و ''محيط المحيط'' لبطرس البستاني و "البستان" لعبد الله البستاني... وظاهرة التغيير في المتن مع التجديد في الشكل مثلما نجد في ''المعجم الوسيط" و "المنجد"، لكن هؤلاء جميعا عندما يتوجهون إلى الطلاب يكون ذلك دون رسم خطة معينة ولا التزام رأي فئة خاصة من مستويات التعليم، إن معظمهم -عندما يشير إلى مستوى الفئة المستهدفة- يذكر جمهور طلاب التعليم الثانوي بصفة إجمالية ودون تحديد، وعلينا أن ننتظر ظهور الجيل الثاني من المعجميين ممن لهم إلمام بعلم المعاجم وعلاقته بإعداد المنهج التعليمي المناسب لكل مرحلة من مراحل التعليم، وهؤلاء المعجميون سينطلقون

طبعا من اهتمامات تعليمية محضة، وستكون أعمالهم هادفة، موجهة لجمهور معين ومحدد من المتعلمين في المرحلة الابتدائية أو الثانوية، بل سنجد منهم من سيدرج في خطته مرحلة التعليم الأولي الذي تكون فيه الناشئة لا تحسن القراءة والكتابة، وسنجد من يذهب في نطاق التدقيق إلى حد يجعل لكل مرحلة عدة معاجم تواكب كل سنة يقطعها المتعلم في هذه المرحلة. بحيث يجعل للسنة الأولى معجمها الخاص، وكذلك السنة الثانية والثالثة وهلم جرا[66].

سنختار نماذج من أعمال هؤلاء المعجميين، وسنحاول إجراء قراءة لها وفق شبكة تتكون من بنود أربعة:

1 - ماهية المصادر المعتمدة في المعجم ؛

2 - نوعية المتن اللغوي الذي يشتمل عليه؛

3 - ما هي الفئة المستهدفة من المتعلمين؛

4 - المضامين التي يدور حولها المعجم.

عندما نجري قراءة أولى لهذه المعجمات سنجد أنها تسير في عدة أنحاء بحكم توجهها اللغوي المحض أو التوجه المدرسي أو بجرد التوجه التجاري؛ أي تلبية حاجات السوق التي تتطلبها هذه الكراسات الملونة الحافلة بالرسوم والصور، على غرار ما يوجد عند الغربيين في مدارج التعليم الأولية من معاجم ميسرة توجه غالبا للصبيان الذين لا يزالون في مرحلة الاكتساب اللغوي الأساسي، وسنعمد هنا، على أي حال، إلى التمييز بين نوعين من هذه المعاجم: المعاجم الموجهة لتعليم اللغة العربية لأبنائها مثل (المعجم المدرسي) الذي وضعه محمد خير أبو حرب و(معجمي الحي) لسهيل حسيب سماحة، و(القاموس الجديد للطلاب) و (القاموس المدرسي) وهما معا من تأليف لجنة من المتخصصين بتونس بالإضافة إلى بعض المعاجم المصورة مثل (معجمي العربي المصور) لوجدي رزق غالي...

والمعاجم الموجهة لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وسنكتفي هنا بمثال (المعجم العربي الأساسي) الذي أصدرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم سنة 1988م.

6 – 3 – معاجم اللغة العربية لأبنائها:

6 – 3 – 1 – المصادر

على مستوى المعاجم التي ترتبط بتعليم اللغة العربية لأبنائها، سنجدها تتخذ موقفين من المصادر التي تستقي منها مدونة ألفاظها؛ موقفا مضطربا غير واضح في عملية ضبط هذه المدونة، مثلما نجد عند محمد خير أبو حرب وسهيل حسيب سماحة فهما يتحدثان عن المصادر التي أخذا منها مادتهما حديثا عاما كأن يقول أبو حرب إنه جمع المتن من (صفوة ما تناثر من جواهر العربية في أمهات المعاجم... وما استحدث من الألفاظ والمصطلحات التي نشر معظمها في المعجمات الصادرة عن مجامع اللغة العربية)[67] وقد يشير سهيل سماحة إلى أن مقياس الاختيار عنده قد جعله يستقي ألفاظه من (ما هو أكثر تداولا وتواترا في لغة اليوم الحية ومن المعاني

الممكنة بما هو شائع ومعروف)[68]، لكنهما في جميع الحالات لم يذكرا بالاسم مصادرهما، إن كانت هناك مصادر، ولا كيف تصرفا تجاهها. أما قضية التواتر التي يشير إليها صاحب ''معجمي الحي'' فهي عملية استقصائية تنبني على منهجية دقيقة في إعداد الرصيد اللغوي المتصل بالمنهج التعليمي للغة، لكن سهيل سماحة لم يذكر لنا ماهية البحث الذي استند إليه والذي تمخض عن هذه النتائج التي بنى عليها معجمه، ولا أعتقد أنه يوجد هناك بحث، فالتواتر الذي يتحدث عنه صاحب المعجم رجع فيه إلى الحس والتجربة أكثر من إجراء بحث ميداني يتطلب جهدا ووقتاً كبيرين.

أما عند اللجنة التونسية التي سهرت على إعداد "القاموس الجديد للطلاب" و "القاموس المدرسي'' والتي تتألف من الجيلالي بن الحاج يحيى، وبلحسن البشير، وعلي بن هادية، فإن المصادر محددة، فهي في ''القاموس الجديد للطلاب'' الذي وضع سنة 1974 تحيل على "لسان العرب وتاج العروس والقاموس المحيط والمنجد والمعجم الوسيط''[69] يضاف إلى هذه المصادر قائمة من المفردات (تعد ب 1579 مفردة) اختيرت من الرصيد اللغوي الوظيفي الذي أعدته اللجنة التابعة للهيئة الاستشارية للمغرب العربي في التربية والتعليم في شكل تكملة مجموعة من الآيات من القرآن الكريم (3137 آية) ومجموعة من أبيات الشعر (1663 بيتا) وأحاديث نبوية وأمثال... سيبقى الاعتماد على نفس المصادر عندما تكلف نفس اللجنة بوضع معجم ''القاموس المدرسي'' سنة 1983 (إصدار الشركة التونسية للتوزيع)، مع نقلة طفيفة في كيفية التعامل مع هذه المصادر. فقد عمدت اللجنة إلى إدماج تكملة الرصيد اللغوي الوظيفي في متن المعجم، و لم تعد مجرد ملحق به، كما أنها حددت مقياس التعامل مع المعاجم القديمة مثل ''اللسان'' و ''تاج العروس:'' إلخ -بالإشارة إلى أنها تأخذ منها ما ينسجم مع "النصوص الأدبية والألفاظ الشائعة''...

فعلى مستوى المصادر إذن نجد أمامنا مثالين: مثال "معجمي الحي" لسهيل حسيب سماحة و"المعجم المدرسي'' لمحمد أبو حرب الذي يرتبط بالمتن المعجمي أساسا، دون بذل أي مجهود للبحث عن مصادر أخرى ترتبط بحاجات المتعلم خاصة، وهناك مثال اللجنة التونسية التي حاولت أن تجمع بينهما؛ فهي من جهة تستند إلى المصادر المعجمية الكلاسيكية، ومن جهة أخرى تحاول أن تطعم هذه المصادر بتكملة من الرصيد اللغوي الوظيفي الذي أعد لتعليم اللغة العربية لأبناء الدول المغاربية في المرحلة الابتدائية، وهي خطوة إلى الأمام، ستتجلى أكثر في المعاجم المصورة.

ففي ''معجمي العربي المصور'' الذي ألفه بلبنان وجدي رزق غالي ولورديس لبكي، ستحدد المفردات بالمحيط الذي يعيش فيه الطفل، المحيط الصغير الذي يوجد به وهو بيته وأسرته ثم مختلف الأنشطة التي تمارس فيه... وهو بهذه العملية أقرب

إلى الجو المدرسي، وما يروج فيه من مفردات لتنمية قدرة المتعلم اللغوية في التعامل مع وسطه الاجتماعي الذي يعيش فيه. وتعرض هذه المفردات على أساس ربط المعنى بالصور. وقد عمد المؤلفان إلى الاستعانة بأكثر من رسام لإخراج معجمهما في الصورة التي أراداها قريبة من جمهور الأطفال الصغار.

6 – 3 – 2 – المتن اللغوي

يتأرجح متن المعاجم التي تتناولها بالتحليل ما بين 8500 مفردة و 26253 مفردة، باستثناء "معجمي العربي المصور" الذي لا يتجاوز 388 مفردة بحكم اعتماده أساسا على الرسوم التوضيحية التي تجعل رصيده يقف بالدرجة الأولى عند المفردات التي يمكن معاينتها دون غيرها. يتفق أصحاب هذه المعاجم على إعطاء أهمية للمفردة داخل السياق وخارجه ومعنى هذا أنهم يحاولون تقريب المتعلم من استعمال المفردات مع إضافة بعض الشروح الملائمة لمستواه؛ فصاحب "المعجم المدرسي" لا يتردد في إطلاع القارئ على مختلف المشتقات المتصلة بالفعل، كما أنه زود معجمه بأهم أسماء الأعلام التاريخية والأدبية وأسماء المدن وكذلك بعض المصطلحات العلمية والفنية، في حين نجد الغلبة في معجم "معجمي العربي المصور" للأسماء، وعندما يقدم الأفعال، وهي محدودة يحاول أن يقربها بالرسم والصورة، أما المترادفات، فيوردها عند الحاجة فقط ويضعها بين قوسين، بينما نجد في المعاجم الأخرى استعمال الشرح بالمترادف والضد رائجا، كما أن أصحاب هذه المعاجم يقفون من ترتيب المواد ترتيبا مختلفا. صاحب "المعجم المدرسي" يتبنى النظام التقليدي المستعمل في المعاجم العربية، ونعني به "النظام الألفبائي حسب جذر الكلمة" والمفروض في المتعلم أن يكون على بينة من قواعد المجرد والمزيد في ألفاظ اللغة العربية وأنواع الإبدال والإعلال. على النقيض من ذلك، تبنى سهيل سماحة واللجنة التونسية النظام الألفبائي، ولكن حسب نطق الكلمة مثلما فعل جل المستشرقين في تأليف معاجمهم باللغة العربية[70]، فالمتعلم يسهل عليه الاستفادة من المعجم بمجرد النظر إلى المفردة للبحث عنها كما هي في صورتها دون حاجة لمعرفة جذرها.

6 – 3 – 3 – فئة المتعلمين

ترتبط هذه المعاجم بالمدرسة بصفة مباشرة، مثل المعجمين المؤلفين من قبل اللجنة التونسية، بحيث تحدد اللجنة مستوى التعليم الابتدائي الذي كان موضوع تأليف الرصيد اللغوي الوظيفي، وكذلك "معجمي العربي الحي" لسهيل سماحة، فقد حدد له مرحلة التعليم الابتدائي والمتوسط. أما صاحب "المعجم المدرسي" فكانت علاقته بالمدرسة غير مباشرة أي بدون تحديد صريح، يقول في المقدمة إنه وضعه (تلبية لحاجة الطالب إلى معجم لغوي يعينه على فهم معاني الكلمات التي تعرض له فيما يطلع عليه من نصوص)[71] فهو قد ألفه إذن لسد حاجة الطالب اللغوية، لكن دون تحديد، وهو في هذا أكثر ارتباطا بالرعيل الأول من المعجميين الذين لم يكن

لهم تصور حول المستوى ولا الفئة من المتعلمين الذين يخاطبونهم، بينما المعاجم والمعلمات الحديثة أصبحت تحدد ليس فقط بالمستوى التعليمي وإنما أيضا بمستوى عمر المتعلم، أي بعدد ما بلغه من سنين. فلكل فئة من العمر رصيدها اللغوي ومنهجية في العرض وأسلوب في الشرح، وهذا ما لم يتوفر إلا عند القليلين ممن حاولوا تطبيق معطيات الدراسات المعجمية في ميدان تدريس اللغة الحية[72].

6 – 3 – 4 – المضامين المعجمية

إن ارتباط المعجم المدرسي بالمدرسة وبالمنهاج الذي يدرس في مستوى معين يدعو إلى أن يعكس هذا المعجم المضامين الواردة في المنهاج والتي يتعرض المتعلم إلى حاجة البحث فيها لاستجلاء ما غمض منها أو للاستزادة وإغناء رصيده منها، وهذا ما لا يتوفر دائما في هذه المعاجم.

فنحن لا نجد تحديدا لهذه المضامين في معجمي كل من محمد أبو حرب وسهيل سماحة. وهذا راجع طبعا إلى تصور عائم للمستوى التعليمي عند الأول، وإلى اتساع رقعة الفئة المستهدفة عند الثاني (المرحلة الابتدائية والمتوسطة)، فانعدام التدقيق في مسألة تحديد الفئة من المتعلمين جعل أعمالهما تصب في جهود الرعيل الأول من المعجميين، أما اللجنة التونسية التي ألفت "القاموس الجديد" و "القاموس المدرسي" فهي تخطو خطوة عندما ارتبطت بالرصيد اللغوي الوظيفي الذي بني خلال جمعه على أساس المحاور والموضوعات، ولكن ارتباطها بالرصيد كان على مستوى تكملة المعجم في المحاولة الأولى، ثم في المحاولة الثانية (القاموس المدرسي) عندما أدمج في صلب الرصيد لم يكن يمثل إلا جزءا يسيرا من مجموع مفردات المعجم، ومع ذلك فقد تحددت بعض المضامين كما وردت في الرصيد اللغوي الوظيفي مثل:

1 – أسماء ومصادر...

2 – النباتات والأشجار والخضر والفواكه

3 – الحيوانات والحشرات...إلخ

أما لدى "معجمي العربي المصور" فكما أن فئة المستفيدين من المعجم تتحدد بالأطفال ما قبل التعليم المدرسي الذين لم يتمكنوا بعدُ من القراءة والكتابة، فإن المؤلفين حاولا أن يحددا مجال محيط هؤلاء الأطفال في المضامين الآتية:

الإنسان – الحيوان – الطير – النبات – الموسيقى – الرياضة – المخترعات – الحرف – الثياب – الأدوات...

6 – 4 – معاجم اللغة العربية لغير الناطقين بها: المعجم العربي الأساسي، نموذجاً

تجدر الإشارة في البداية إلى أننا سنتعامل مع هذا المعجم بصفته قاموسا للعربية بالدرجة الأولى، وسنرجئ الحديث عن تصور اللجنة التي أعدته للرصيد المعجمي، وكيف توصلت إلى بنائه، وما هي أسس البناء، وماذا كانت النتائج؟ فقبل ظهور (المعجم العربي الأساسي) أقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم صاحبة المشروع ندوة عقدتها

بالرباط ما بين 31 مارس و 18 ابريل 1981 لتبادل الرأي بين المتخصصين في صناعة المعجم حول إمكانية إنجاز معجم عربي يوجه لغير العرب، فتحدث عدد من الخبراء في ميدان تعليم اللغة العربية للأجانب مثل بيتر عبود، وعلي القاسمي، و داود كاون ويوسف الخليفة أبو بكر وغيرهم، فكانت حصيلة الأيام الدراسية مجموعة من التوصيات نذكر منها بعض الأمثلة:(73)

1 - فيما يخص مقدمة المعجم، اقترح المشاركون أن تشتمل هذه المقدمة على:

- نبذة عن خصائص اللغة العربية الصوتية والصرفية النحوية

- عرض موجز تقابلي لنظام الكتابة العربية وأشكال حروفها وحركاتها إلخ...

2 - نوع اللغة التي نختار منها المراحل:

يقترح المشاركون أن تكون: اللغة العربية الفصيحة المستعملة في مختلف المجالات الدينية والثقافية والإعلامية -مع إدخال الكلمات المولدة والمعربة والدخيلة.

3 - ترتيب المداخل

يقترح المشاركون أن ترتب المداخل بإحدى الطريقتين:

" - ترتب مداخل المعجم المخصص للمتعلمين ترتيبا ألفبائيا مع مراعاة ترتيب معين للحركات، وبعد كل مدخل يوضع الجذر الذي اشتق منه المدخل...

- ترتب مداخل المعجم المخصص للمتقدمين في دراسة اللغة العربية بحسب الترتيب الجذري، ثم يوضع كشاف... ترتب فيه جميع الألفاظ ألفبائيا، ويوضع بعد كل لفظ الجذر أو رقم الصفحة التي يرد فيها لتيسير عثور القارئ عليه)(74).

4 - الشرح: يقترح المشاركون أن تذكر الكلمة ودلالتها على الشكل التالي:

أ - الأمثلة التي توضح دلالة الكلمة

ب - التعابير الاصطلاحية

جـ - التعابير السياقية

د - الأقوال المأثورة

هـ - الكلمات المركبة...

كما أوصى المشاركون بإدراج (مداخل مختارة تمثل الملامح الكبرى للحضارة العربية الإسلامية التي تتمثل في: المعلومات الجغرافية وأبرز الأعلام في التاريخ والأدب والعلوم... التقاليد والمعتقدات الدينية والاجتماعية إلخ(75).

فماذا تحقق من كل ذلك في المعجم الذي خرج إلى الوجود سنة 1988، والذي نشرته مؤسسة "لاروس" الفرنسية!! ثم "المعجم العربي الميسر" وهو مستخلص من المعجم الأول الذي قام بإعداده الخليل النحوي وراجعه د.طه حسن النور وأديب اللحمي، والذي أصدرته دار "لاروس" أيضا سنة 1991؟

يرى د.أبو العزم أن المؤلفين لم يلتزموا بتوصيات

الندوة المشار إليها[76] فهم لم يتضح عندهم الخط الفاصل بين تأليف معجم للعرب وآخر لغير العرب، فالمدونة المعجمية غير واضحة مع أن المنظمة تتوفر على ''مشروع الرصيد اللغوي العربي'' الذي أعدته بتعاون مع معهد العلوم اللسانية والصوتية بالجزائر (سنة 1981 بتونس)[77] والمواد -كما يلاحظ- حافلة بالأخطاء، ويشوبها نقص في الجانب الموسوعي المتعلق بأعلام المغرب العربي والمعلومات الجغرافية والتاريخية المتصلة به_.

كنا ننتظر في ''المعجم الميسر'' الصغير أن تتحقق بعض التوصيات التي لم يستطع المؤلفون الالتزام بها في المعجم الكبير باعتباره موجها للمتقدمين في تعلم العربية، لكن أصحابه تمسكوا مثلا بالترتيب حسب جذر الكلمة وهو ما يخالف التوصيات الواردة في رقم 3 مما سبق، كما أن المادة المعجمية لم يقع فيها تحول يراعي حاجة المتعلمين المبتدئين، كل ما حصل هو إجراء عملية انتقاء حسب مقاييس غير واضحة، توضحها المقدمة كالتالي:

"أردنا لهذا المعجم أن يكون وجيزا ومفيدا في آن، فانتقينا من المعجم العربي الأساسي ما لا يسوغ هجره أو إهماله من مفردات اللغة الحية، وعنينا بلغة التكنولوجيا دون أن نوغل في ذلك..."[78].

وعن المدونة اللغوية التي اشتغل عليها المعجم، كانت الإشارة غامضة لمضامينها، مثل "عنينا... بأسماء الأشياء المادية التي يجدها أحدنا حوله في حياته اليومية وفي بيئته الحديثة على الخصوص..."[79] مع العلم أن المنظمة سبق لها أن أشرفت على إعداد سلسلة من كتب مدرسية لتعليم اللغة العربية للأجانب يحمل المجلد الأول منها عنوان "الكتاب الأساسي"[80]، فما العلاقة بين "المعجم العربي الأساسي" و"الكتاب الأساسي"؟

باستثناء وجود كلمة (الأساسي) في العنوانين، فإن العملين معا تكاد لا تربط بينهما رابطة، اللهم إلا ما كان من اضطراب متنهما معا وعدم ضبط رصيدهما اللغوي، وضمور جانب المعلومات الخاصة بالمغرب العربي عامة، ويبدو فيما يتعلق بالمعجم أن أصحابه، ولو أنهم كانوا على علم بتوصيات الندوة السابقة حول (صناعة المعجم لغير الناطقين بالعربية)، فإنهم سرعان ما تجاهلوا الجانب البيداغوجي في عملية إعداد المعجم ليسقطوا في السكة المألوفة التي سار عليها الرعيل الأول من المعجميين، أي الاهتمام بالمادة المعجمية بقطع النظر عن ما إذا كانت موجهة لأصحاب اللغة أو لغيرهم من الأجانب و لم تكف التوصيات التي سهر على تدبيجها الخبراء في ندوتهم سالفة الذكر لتبقى مجرد أفكار نظرية، لم يتأت الاهتداء بها لاجملة ولا تفصيلا...

الهوامش

1 – المجد الفيروز آبادي: القاموس المحيط "مادة قمس".

2 – لويس معلوف: المنجد في اللغة، المطبعة الكاثوليكية – بيروت.

3 – جوزيف نعوم حجار: المنجد العربي الفرنسي للطلاب، منشورات دار المشرق –بيروت.

4 – انظر د.عبد العلي الودغيري في (اللسان العربي) العدد 33–1989، هامش رقم 1 ص.130 على مقال بعنوان: "قضية الفصاحة في القاموس العربي التاريخي".

5 – المرجع نفسه.

6 – المرجع نفسه.

7 – د.عبد القادر الفاسي الفهري: تعريب اللغة وتعريب الثقافة بالمجلة العربية للدراسات اللغوية، معهد الخرطوم الدولي للغة العربية، عدد اغسطس 1985، ص73.

8 – ليلى المسعودي: ملاحظات حول معجم اللسانيات، اللسان العربي، العدد 1991/35 ص209.

9-O.Ducrot-T.Todorov: Dictionnaire encyclopédique des sciences de langage: Seuil Paris 1972, p.71.

10-J.Rey - Debove: in : Le langage, edition CEPL Paris 1973, p 82.

11 – د.علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم، جامعة الملك سعود – الرياض1411هـ. ص4.

12 - Encyclopédie de la Pleiade (le langage) Gaillemard, Paris 1968, p 296.

13 – أبو سعد: المعاجم العربية بمجلة الفكر العربي، العدد 72، ص27.

14 – المرجع نفسه، ص27.

15 – J.R.D موسوعة "Le langage"، ص82.

16 – المرجع نفسه.

17 – د.محمد أبو الفرج: المعاجم اللغوية، دار النهضة العربية 1966 ص13.

18 – موسوعة "La pleïade" ص284.

19 – د.القاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم، ص6.

20 – المرجع نفسه.

21 – د.مرتضى جواد باقر: مفهوم البنية العميقة اللسان العربي، العدد 1990/34 ص12.

22 – المرجع نفسه (يرى صاحب المقال أن أصحاب "الدلالة التوليدية" يركزون على تصوير نظام القواعد بحيث تتوالد الجملة من عناصر دلالية تجتمع في بنية دلالية تصور لنا دلالة الجملة ثم تجري على هذه البنية الدلالية تحويلات وتغييرات بحيث تعطى تلك البنية هيأتها النحوية الظاهرية أو السطحية وحينئذ لايوجد هناك مستوى محدد يطلق فيه على البنية الجملية النحوية اسم (البنية العميقة)، فتوليد الجملة يبتدئ من بنيتها الدلالية التي تخضع إلى تحويلات تصل بها إلى البنية السطحية) ص13، ويبدو أن تشومسكي قد قدم (حججا تدحض فرضية البدء ببنية دلالية للجملة تنقل بالتحويلات إلى البنية السطحية...).

23 – د.نهاد الموسى نحو اللسانيات الاجتماعية في اللغة العربية، بمجلة : المجلة العربية للدراسات اللغوية –معهد الخرطوم عدد اغسطس 1985، ص11.

24 – روى ابن جني عن بعض مشايخه قوله (أنا لا أحسن أن أكلم إنسانا في الظلمة) (الخصائص ج1)، والمثل العربي يقول "رب إشارة أبلغ من عبارة" نفس المرجع السابق.

25 – جورج ماطوري، منهج المعجمية، ترجمه د.عبد العلي الودغيري، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، مطبعة المعارف الجديدة 1993، المقدمة، ص76.

26 – المرجع نفسه.

27 – المرجع نفسه.

28 – المرجع نفسه.

29 – المرجع نفسه.

30 – المرجع نفسه.

31 – جون دريفيون (J. Drévillon): ممارسات تربوية وتنمية الفكر الإجرائي، PUF1980، ص154 و 158.

32 – د. عبد اللطيف الصوفي: اللغة ومعاجمها في المكتبة العربية، دار طلاس -دمشق 1986، ص34 وما إليها...

33 – أحمد أبو سعد: المعاجم العربية في واقعها الراهن وخطة لتطويرها: مجلة الفكر العربي، العدد 1993/72، ص27.

34 – د.عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها، ص305.

35 – المرجع نفسه، ص201.

36 – المرجع نفسه، ص209.

37 – المرجع نفسه، ص278.

38 – المرجع نفسه، ص283/282.

39 – والملاحظ أن القدماء قد حددوا مبادئ بهذه الأصول، على رأسها تحديد عصر التدوين وشروط الرواية ومقومات الفصاحة وحصر المدونة، وبالنسبة لهذا المبدأ الأخير يكاد يتفق معظم المعجميين على أصول تعد أساسا للمادة المعجمية، وقد حصرها أحمد بن فارس في كتابه "مقاييس اللغة" في خمسة أصول هي كتاب العين للخليل وإصلاح المنطق لابن السكيت والجمهرة لابن دريد وغريب الحديث، والغريب المصنف لأبي عبيد، يقول ابن فارس (فهذه الكتب الخمسة معتمدنا فيما استنبطناه من مقاييس اللغة، وما بعد هذه الكتب فمحمول عليها وراجع إليها) عن محمد أبي الفرج (المعاجم اللغوية) ص27.

40 – أحمد أبو سعد: المعاجم العربية، الفكر العربي، العدد 1993/72.

41 – د.عبد اللطيف الصوفي، اللغة ومعاجمها، ص290.

42 – د.مازن مبارك: نحو وعي لغوي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1979، ص172.

43 – المرجع نفسه، ص185.

44 – المرجع نفسه، ص185.

45 – المرجع نفسه، ص170.

46 – د. محمد أبو الفرج: المعاجم اللغوية، ص38.

47 – د.ابو العزم: المعجم المدرسي: مناهجه وأسسه وتوجيهاته، مطبعة تينمل، مراكش 1994 ص13.

48 – د.عبد اللطيف الصوفي: اللغة ومعاجمها، ص305.

49 – المرجع نفسه، ص307.

50 – د.أبو العزم، المعجم المدرسي، ص139.

51 – د.محمد أبو الفرج: المعاجم اللغوية، ص57.

52 – المرجع نفسه، ص55.

53 – د.عبد اللطيف الصوفي: اللغة ومعاجمها، ص32.

54 – المرجع نفسه، ص33.

55 – د.حسن ظاظا: كلام العرب، دار النهضة العربية، بيروت 1976، ص449.

56 – د.مازن مبارك: نحو وعي لغوي ص158.

57 – المرجع نفسه، ص156.

58 – المرجع نفسه، ص154.

59 – د.أبو العزم، المعجم المدرسي، ص26.

60 – د.مازن مبارك، نحو وعي لغوي، ص154.

61 – د.أبو العزم، المعجم المدرسي، ص73.

62 – المرجع نفسه، ص34.

63 – المرجع نفسه، ص73.

64 – د.عبد اللطيف الصوفي: اللغة ومعاجمها ص296.

65 – د.أبو العزم، المعجم المدرسي، ص134.

66 – هذه الخطة هي التي بنى عليها الأستاذ أبو العزم

أطروحته في كتابه (المعجم المدرسي) المشار إليه سابقا.

67 - المرجع السابق، ص142.

68 - المرجع نفسه، ص108.

69 - المرجع نفسه، ص105.

70 - انظر مثلا رينهارت دوزي في معجمه "تكملة المعاجم العربية" ترجمة د.محمد سليم النعيمي، دار الحرية، بغداد، 1976.

71 - عن د.أبو العزم، (من مقدمة المعجم) ص142.

72 - مثلما فعل د.أبو العزم في (معجمه الصغير) الذي ألفه للأطفال ما بين 2 و 6 أعوام ملتزما في ذلك منهجية واضحة وهادفة (ط1. 1993، دار النجاح الجديدة- الرباط).

73 - أخذنا هذه الأمثلة من أعمال الندوة التي عقدتها المنظمة (مكتب تنسيق التعريب بالرباط)، سنة 1981، تحت عنوان "صناعة المعجم العربي لغير الناطقين بالعربية" وصدرت في كتيب مستقل سنة 1983.

74 - المرجع نفسه، ص6 و 7.

75 - المرجع نفسه، ص8 و 9.

76 - د.أبو العزم المعجم المدرسي، ص152.

77 - المرجع نفسه، ص152.

78 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: المعجم العربي الميسر، لاروس 1991 ص7.

79 - المرجع نفسه، ص7.

80 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: الكتاب الأساسي في تعليم العربية لغير الناطقين بها -تونس 1983.

العائدية الخطابية:
مقاربة تداولية معرفية

ذ. لحسن توبي (*)

تقديم

لا يمكن الحديث عن "الآلة الواصفة" (Meta-theorical) للنظرية اللسانية دون ذكر مقولتين متفرعتين عنها: الأولى كفاية نظرية "ضعيفة" أي قدرة جهاز نحوي على توليد كل الجمل القائمة نحوياً، والثانية قوية، ويقصدبها قدرة النظرية اللسانية على توليد أوصاف بنيوية ملائمة للسلوك اللغوي.

يهمنا، من هذا التقسيم، الضرب الثاني من الكفايتين، حيث سنروم، في هذه الورقة، تأكيد النظرية التداولية المعرفية (نظرية الورود (Relevance theory) تُقدم وصفاً مُلائماً لظاهرة العائدية.

من هذا المنطلق، سنحاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

ما هي جوانب القوة في الوصف التداولي المعرفي للعائدية الخطابية؟ وما هي مظاهر الضعف في أوصاف بعض النماذج اللسانية؟ كيف نعالج ظاهرة اللبس اللغوي في ضوء الوسائط المعرفية؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، سنعمل على بسط الأسس النظرية والمنهاجية للنظرية المتبنّاة.

1 – نظرية الورود

تعد نظرية الورود نظرية تداولية معرفية، أرسى معالمها كل من اللساني البريطاني ديرد ولسن (D. Wilson) والفرنسي دان سبربر (D.Sperber). وهي تمتح من رافدين معرفيين أساسيين: أحدهما، مستمد من مجال علم النفس المعرفي، خاصّة النظرية القالبية (Modularity) لفودور (1983) Fodor، وثانيهما، يستفيد من مجال فلسفة اللغة خاصة نظرية جرايس (1975) Grice الحوارية. استفادت نظرية الورود من النظرية القالبية، خاصة فيما يتعلق برصد وقائع الحياة الذهنية، وتفسير طرق جريان المعالجة الإخبارية.

تنطلق النظرية القالبية من تصور خاص للمعالجة الإخبارية، يمر بالمراحل التالية:

الأولى: يطلق عليها (فودور) مرحلة اللواقط (Transducers) التي تتعدد وظيفتها في ترجمة الإدراكات (Perceptions) المباشرة، مهما كان مصدرها، ونقلها إلى الدماغ قصد المعالجة. أمّا الثانية

(*) أستاذ باحث / جامعة محمد الخامس / الرباط

فيطلق عليها مصطلح أنظمة الدّخل (input) أو الأنظمة البعيدة عن المركز (Périphériques)، وهي متخصّصة في معالجة المعطيات المستمدّة من "اللواقط" سواء كانت من المجال البصري أو اللغوي أو السمعي (الخ)، قصد إنتاج تأويل معيّن، غير أن هذا الأخير يظل غير مُكْتَمِلٍ، لأنه في هذه المرحلة يكون التّعامل مع المُعطى اللغوي محصوراً في المستوى الصواتي والتركيبي والدلالي.

لا يتجاوز هذا التأويل عادة المحتوى القضوي للجملة، فيتّخذ شكل صيغة منطقية (Logical form)، مثل الصيغة(2) المستمدة من(1):

(1) قتل زيد الخارجي في المعركة

(2)جعل(غيرحي)(زيد،الخارجي"في المعركة")).

أما المرحلة الثالثة، فتُعرف بالأنظمة المركزية (Central systems)، معها يكتمل التّأويل بموجب عملية دمج الإخبار الناتج عن اللاقط والأنسقة الدّخل بالإخبار المخزون في الذّاكرة التصورية قصد إنتاج استدلالات غير برهانية.

يبين سبربر وولسن (1986) أنّه في قلب هذه المرحلة "تتكوّن وتترسّخ الفرْضيات، وتظفر الأقوال بتأويل تام"[1]، لأن الأنظمة الدّخل لاتتعدى المظاهر الترميزية (codiques) للأقوال، بينما يتمّم النظام المركزي عملية التأويل بصرف عنايته إلى كل المظاهر غير الترميزية، أي الاستدلالات غير البرهانية، انطلاقا من السياق التأويلي.

بهذا يتبيّن أن عملية التأويل تزاوج بين الترميز والاستدلال.

كما استفاد سبربر وولسن من أطروحة جرايس (1975) الحوارية، التي تنصّ على أن التّواصل الكلامي محكوم بمبدأ عام (مبدأ التعاون) وبمسلمات حوارية.

يقضي المبدأ الأول بأن عملية التخاطب حصيلة لجهودنا التعاونية، لأن كل طرف (متكلم/مخاطب) يروم التعرف على أهداف غيره، "أو على الأقل على توجه مشترك مقبول من الجميع..."[2].

ينهض مبدأ التعاون على أربع مسلمات:

1 – مسلمة القدر (Quantité) تخص قدر الإخبار الذي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية، وتتفرع إلى مقولتين:

أ – اجعل مشاركتك تُفيد القدر المطلوب من الإخبار.

ب – لا تجعل مشاركتك تُفيد أكثر مما هو مطلوب.

2 – مسلمة الورود، وهي عبارة عن قاعدة واحدة "لتكن مشاركتك واردة".

3 – مسلمة الجهة (Modalité)، التي تنص على الوضوح في الكلام وتتفرع إلى ما يلي:

أ – ابتعد عن اللبس

ب – تَحَرَّ الإيجاز

ج – تَحَرَّ الترتيب[3]

إلاّ أن نظرية الورود أعادت النظر في أطروحة جرايس بالاقتصار على مبدإ الورود كأساس مركزي يختزل جميع المسلمات المذكورة، ويُعد تعميما

للتواصل الموصوف بـ "المناسب الاستدلالي" (ostensive-inferential) فهو مناسب، لأن المتكلم يستعمل "المثير" Stimulus الأكثر وروداً، لإبلاغ افتراضاته، وهو من جهة أخرى، استدلالي لأن المتلقي يستدل على القصد الإخباري، انطلاقا من المؤشرات المسوقة من قبل المتكلم.

على هذا الأساس يصوغ سبربر وولسن (1986) تعريفا للتواصل:

3 – التواصل الاستدلالي المناسب[4]

ينتج المتكلم مثيراً واضحاً للمخاطب، فيصبو الأول، بواسطته إلى جعل مجموعة من الافتراضات واضحة أو أكثر وضوحاً لدى المخاطب.

لعل أهم ميزة تتميز بها نظرية الورود، تصورها للسياق، إذ لم يَعُد شيئاً معطىً بشكل نهائي أو محدّداً قبل عملية الفهم، وإنما يُبنى تبعاً لتوالي الأقوال.

يتألف السياق من زمرة من "الافتراضات السياقية" (Contextual Assumptions)[5] أو القضايا، تُستمد من مصادر ثلاثة:

1 – تأويل الأقوال السابقة

إن القضايا التي نحصل عليها مباشرة بعد الالتفات إلى أول الكلام وتأويله تخزن في الذاكرة التصورية، حيث تمثل جزءاً لايتجزأ من سياق تأويل الأقوال المستهدفة في المعالجة. فلابدّ من رد آخر الكلام على أوّله[6].

2 – المحيط الفيزيائي

قد يشمل السياق أيضا، كل تمثيل قضوي، انبثق من المكان الذي جرى فيه التواصل، حيث إن الجهاز الإدراكي للمتكلم قد يتمثّل خصائص الأمكنة بشكل مباشر أو غير مباشر.

3 – ذاكرة النظام المركزي

تحتوي ذاكرة النظام المركزي على معلومات مختلفة عن العالم نستخدم بعضها في السياق التأويلي.

إن الحديث عن المصدر الأخير يدفعنا إلى طرح سؤال أساسي: كيف نصل إلى المعلومات المخزونة في النظام المركزي؟

يجيب سبربر وولسن (1986) بأن ذلك يمُرُّ من خلال سند "الصيغة المنطقية" في مرحلة الأنظمة الدّخل، حيث تضم مجموعة من المفاهيم (Concepts) لكل مفهوم عنوان تصوري في الذاكرة المركزية، يخزن ثلاثة أنماط من المعلومات:

أ – **المدخل المنطقي:** يتضمن معلومات عن بعض العلاقات المنطقية، من بينها القاعدة المعيارية "إقصاء الواو" (And. Elimination)، التي تتخذ من وصل القضيتين دخلاً لها، وتُوَلِّدُ (خرجاً)، هو إحدى القضايا الموصولة:[7]

4 – قاعدة إقصاء الواو

أ – دخل = (أ و ج)

خرج = أ

ب – دخل = (أ و ج)

خرج = ج

لاتصدق هذه القاعدة إلا على المقدمات المنطقية التي تضم (مفهوم) الواو.

ب- المدخل المعجمي: يخص جميع المعلومات المتعلقة بعنصر معجمي. إن مدلول هذا المصطلح لايختلف كثيراً عن نظيره في النحو التوليدي، حيث يضم المعلومات الصواتية والتركيبية.

ج - المدخل الموسوعي: يضم كل المعلومات التي نكوّنها حول موضوعات أو أحداث أو خصائص تقترن بمفهوم معيّن.

إذا كانت المداخل الثلاثة مصادر للافتراضات السياقية، فإن ثمة سؤالاً يطرح نفسه: كيف تنتقى الافتراضات السياقية؟

يُجيب سبربر وولسن (1986) بأن ذلك يتم بموجب "مبدأ الورود".

يتحدّد هذا الأخير انطلاقا من وسيطين: الآثار المعرفية (contextual effects) والجهد المعرفي (cognitif cost).

يراد بالمفهوم الأول كل تعالق بين معلومتين، إحداهما قديمة "والثانية جديدة"، مما ينتج عنه مجموعة من الحوسبات، كتعديل أو تحسين أو إثبات أو إقصاء افتراضات توجد في ذاكرتنا التصورية.

يُمكّن هذا التفاعل بين المعلومات من تمييز المعلومات الواردة عن نقيضها. لايعني هذا أن درجة ورود الخطاب موقوفة على الآثار السياقية التي تنشأ عن تفاعل قضيتين، فلوسيط الجهد المعرفي دورٌ في تقويم مدى ورود الأقوال: فكلما قل الجهد المعرفي ازدادت درجة ورود الخطاب وكلّما استدعى التعامل مع قول معين جهداً كبيراً، كان وروده ضعيفاً.

2 – العائدية الضميرية

تعد الضمائر من معوضات الأسماء العائدة إليها، تستخدم بحثاً عن الاختصار، ويسمّى الاسم الذي يعود عليه الضمير مفسر الضمير. وقد التفت العرب القدامى إلى ظاهرة العائدية الضميرية وصنفوا الضمائر إلى متصلة ومنفصلة ومستترة وظاهرة، كما انشغل اللسانيون المحدثون بالظاهرة المذكورة، وقاربوها من زاويتين تركيبية أو دلالية أو هما معاً. من الباحثين من صنفوا العائدية إلى قسمين وبينوا أن كل صنف يستلزم مقاربة مخصوصة، من ذلك، مثلاً، ما أورده د.الفاسي الفهري (1981) عندما أشار إلى أن العائدية الضميرية تختلف باختلاف طبيعة مفسر الضمير، فإذا كان هذا الأخير داخل مجال الخطاب "تكون المراقبة لغوية"، أما إذا كان خارجه، تغدو المراقبة تداولية[8]. إلا أنَّهُ ركّز في بحثه على "المراقبة الوظيفية"، التي تقوم على خاصية أساسية تنص على ضرورة ظهور المراقِب والمراقَب داخل الخطاب نفسه. إن هذا الاهتمام يكاد يكون مشغلاً عاماً عند أغلب اللسانيين الذين اعتنوا بالتجليات اللغوية لمفسر الضمير.

يمكن أن نمثل لذلك بليونس (1977)[9] **Lyons** الذي اعتبر مفسر الضمير إشارة نصيّة، واشترط تساوقه مع الضمير، داخل مجال الخطاب، ليستنتج وجوب تحققه لغويا.

إذا كان التقسيم السابق قد حصر، ضمنيا، اهتمام التداوليات في المراقبة المقامية (أو العائدية الحرة **Free Anaphora**] حيث يكون مفسر الضمير غير

مذكور في السياق اللغوي، فنتوسل لتحديده بإجراءات تداولية، فإننا سنتبنى تصوراً، ينسجم مع الإطار النظري المتبنى، يقضي بأن مجال التداوليات المعرفية غير محصور في مثل هذه الظواهر، فمَجال وصفها يمتد إلى ظواهر أخرى، دُرج على اعتبارها من

اختصاص المقاربات غير التداولية (كالمراقبة الوظيفية مثلاً)، مبينين أن هذه الأخيرة لا تنهض على تعالق مستقل بين ضمير ومفسره، وإنما يتغير هذا التعالق كلما أقحمت "ذات خطابية" جديدة.

1.2 العائدية الخطابية

لم تلق العائدية الخطابية اهتماما من قبل أغلب اللسانيين، حرصاً على انسجام توجهاتهم النظرية، لإن مجالها الخطاب لا الجملة.

إن الجهاز الوصفي لنحو الجملة لا يقوى على رصد بعض الظواهر كالعائدية، حيث العلاقة بين مفسر الضمير والعائد على مسافة بعيدة، ومن ثم يعسُر رصدها بشكل مُرض، كما يعجز عن الإحاطة بـ "العائدية الحرة"، التي تستدعي إعمال وسيط مقامي.

لن نقف عند منطلقاتهم المنهجية ولكن سنسعى، قبل كل شيء، إلى بيان أن دراستها تسهم أيما إسهام في إعادة النظر في مجموعة من الأوصاف اللسانية للعائدية الضميرية.

إن العائدية ظاهرة نصية، يجب أن توصف في إطار وحدة تكبر الجملة لأنها تمكّن بعض الوحدات المعجمية من الاستمرار داخل الخطاب.

غير أن طرق استمرارها تتخذ أشكالاً متباينة كتكرار وحدات معجمية كما هي أو استبدال بعضها ببعض، ينوب منابها، أوطي عنصر (مفسر الضمير) بناءً على الخلفية المعرفية المشتركة بين المتكلم والمخاطب.

1.1.2 التحاول

تشترك الضمائر مع بنيات لغوية كثيرة في العديد من الخصائص أهمها، أنها معوّضات الاسم العائدة عليه، وتختلف عن بعض الظواهر من حيث كونها تسد مسد الاسم "حرصاً على الاختصار ومنعاً للتكرار"، وتفتقد أي دلالة معجمية في ذاتها[10].

تركز أغلب الأنحاء على العلاقة المتجلية لغوياً بين الضمير ومفسره وتنشغل بالضوابط النحوية كالمطابقة بين الطرفين المذكورين جنساً وعدداً...إلخ.

فضمير (الهاء) في (ضعها)، من المثال(1) عائد على العجينة لحصول التطابق المذكور.

(1) خذ قطعة عجينة وأضف إليها قليلاً من الزيت ثم ضعها في الثلاجة.

إن التحاول (Coreference) هنا لا يقوم بناءً على العلاقة اللغوية الضيقة: ضمير غير مستقل إحاليا واسم مستقل إحاليا، وإنما ينهض التحاول على الآصرة "الكلية" التي تجمع مكونات الخطاب، مضموم بعضها إلى بعض.

إنها علاقة "دينامية" بين ضمير ومفسره، تتغير كلما أدرجت "ذات خطابية" جديدة.

ذلك إلى عدم توسيع الجهاز النحوي وتدعيمه بمبادئ تداولية معرفية.

يبدي المستوى النحوي، بمفرده، عجزاً في وصف ظاهرة اللبس اللغوي، لأنه يصرف عنايته بالشكل التركيبي للوحدات اللغوية ومعانيها قصد تحديد المحتوى القضوي للجملة المعنية بالوصف.

وبالجملة فإن الجهاز الواصف للنحو يظل ضيقاً لأنه يقصي المعارف غير اللغوية من عملية الوصف.

1.2.2 مبدأ القرب

من بين المبادئ النحوية المُستخدمة في رصد الضمائر التي تحتمل أكثر من مفسر ضميري، المبدأ(8):

(8) عود الضمير على الأقرب

يقضي المبدأ(8) بأنه عندما تَضُمّ القضية الأولى(ق1)، من نص ما، أكثر من مفسر وتحتوي القضية الموالية (ق2)، ضميراً يثير عوده لبساً، يتوسل بقاعدة "الأقرب" بغية تعيين مفسر الضمير الوارد: من بين مجموعة مذكورة فيما تقدم الخطاب(ق1). إذا أمكن للضمير أن يعود على الأقرب وعلى الأبعد "كان عوده على الأقرب راجحاً"، كما يظهر من ضمير الهاء في قوله تعالى:

(9) ﴿ فاقذفيه في اليَمِ ﴾

إذ يعود الضمير على (التابوت) لأنه هو الأقرب.

في هذا الإطار، يُخصّص ابن الحاجب هذا المبدأ، قائلاً: "إذا تقدم ما يصلُح للتفسير شيئان فصاعداً فالمُفسر هو الأقرب لاغير، نحو: جاءني زيد وبكر فضربته أي ضربتُ بكرا"(13).

غير أن هذا المبدأ، كما يلاحظ العرب القدامى، غير مطرد، في كثير من الآيات كقوله تعالى:

(10) ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذُرّيته النبوة والكتاب﴾ (27:29) فالضمير في (ذريته) "عائد على إبراهيم، وهو غير الأقرب، لأنه المحدث عنه في أول القصة".

بناءً على هذه الملاحظات يمكن أن نخلص إلى المبدأ(11):

(11) إذا تعطل عمل القاعدة النحوية (عود الضمير على الأقرب) نتوسّل بالمبدأ التداولي (عود الضمير على المحدث عنه).

وقد نشتق من المبدأ(11) المبدأ(12):

(12) عود الضمير على المحدث عنه أولى من عوده على الأقرب.

يمكن أن نسجل على ركون القدماء إلى هذين الضابطين مآخذ، أهمها: أن تشغيلهم لهذين المحدّدين لم يكن دقيقا، في غالب الأحوال، فلا وجود لمحدّدات معقولة، تُبيّن الحالات المخصوصة التي نشغل، بمقتضاها هذين المبدأين.

بمعنى آخر، لا نجد إجابة دقيقة عن السؤال التالي: متى نشغل المبدأ (8) دون المبدأ(11)؟

والحقيقة، أن كثيراً من المعطيات القرآنية التي اختلف في تحديد سوابقها، لايمكن حلها توسلاً

بالمبدأين(8) و (11): فضمير (الهاء) في قوله تعالى ﴿اقذفيه في اليم﴾ لايعودُ على (التابوت) كما ينص المبدأ(8) ولا على (موسى) بإجراء المبدأين..(11) أو(12)، وإنما عوده على ذات خطابية تستنبط من مساق الخطاب، حيث نشغل، في هذا الإطار، المبدأ(13) المعاد للتذكير:

(13) يتيح الإخبار المقدم (القضية السابقة) أو مقاطع من قول ما، تحديد الاستعمال التحاولي للضمائر.

وعليه تتحدّد الذات الخطابية التي يعود عليها ضمير الهاء في: (التابوت الذي يوجد بداخله موسى).

2.2.2 اللبس اللغوي والحوسبات المعرفية

يعجز المبدأ(13)، المسوق آنفا، عن حل اللبس اللغوي الذي تثيره، بعض الشواهد القرآنية من قبيل:

(14) ﴿النخل والزرع مختلفا أكله﴾ (6: 141)

تنشأ صعوبة تأويل ضمير الهاء في (أكله)، في إمكانية عوده على سابقين (أ) و (ب)، ولإزالة هذا اللبس، يقتضي الموقف تبني إحدى الإمكانيتين التاليتين، اللتين نمثل لهما بالترسيمتين التاليتين:

(15) أ - [جـ = (أ) و جـ ≠ (ب)] ب - [جـ = (ب) و جـ ≠ (أ)]

هناك وسيطان يمكن اعتبارهما واردين في إزالة اللبس اللغوي، وهما "الأثر المعرفي" و "الكلفة المعرفية"، حيث يمكنان تبعاً لضوابط معرفية سبق الحديث عنها، من تقويم التأويل الأكثر وروداً، أي الإجابة عن السؤال التالي:

هل نتبنى الإمكانية(15أ) أو(15ب)؟

يمكن إعادة صياغة الوسيطين على النحو التالي:

(16) أ- كلّما كَبُر الأثر المعرفي ارتفعت درجة الورود

ب- كلما قلّ الجهد المعرفي ارتفعت درجة الورود.

ينتج الوسيط(16 أ) ثلاثة أنماط من الآثار المعرفية، يمكن وضعها في سلّم الفائدة(17):

أقصى فائدة

أ- اكتساب معرفة جديدة

ب- تأكيد معرفة موجودة في الذاكرة

ج- إقصاء معرفة موجودة في الذاكرة

يمكّن الأثر المعرفي (17ب) من تأويل العلاقة العائدية المتضمنة في الآية السابقة ويقوى على إزالة اللبس اللغوي أوعلى الأقل التخفيف منه، لأن الأمر يتعلق بالاستناد إلى معارفنا الموسوعية التي تروز ورود: (ج = أ) أو (ج = ب).

كما يتدخل، في المقابل، وسيط الكلفة أو الجهد المعرفي(18)لإزالة اللبس والحسم في التأويل الأكثر وروداً.

ينص هذا الوسيط، على أنه كلما ارتفعت إمكانية الوصول إلى السياق التأويلي قلّ الجهد المعرفي المبذول.

يمكن صياغة ذلك، على النحو التالي:

(18) كلفة

- إمكانية الوصول إلى السياق

+ إمكانية الوصول إلى السياق

أدنى

نعتقد أنه بتبني هذا التصور ستتمكن من حل بعض الخلافات الواردة في مصنفات المفسرين وتحاليل النحاة، حول عود بعض الضمائر.

يختلف المفسرون في تحديد عود ضمير (الهاء) في (أكله)، والظاهر أن مصدر اختلافهم[14] راجع إلى ترجيحهم أحد المبدأين المتعرض لهما، أي (8) و(11)، مما يؤكد المؤاخذة التي سجلناها عليهما، من حيث إنهما لايخضعان لضوابط دقيقة.

بناءً على هذه الملاحظات، نشير إلى أن مبدأ الورود يقوى على حل اللبس اللغوي، إذ نعتمد، إلى جانب المعرفة اللغوية، المعرفة غير اللغوية، وذلك بتحديد المدخل الموسوعي لبعض "المفاهيم"، الواردة في الآية المعنية، كأن نخصّص مفهوم (الزرع)، بتحديد مدخله الموسوعي(19)، انطلاقا من ذاكرته التصورية:

(19) يشمل الزرع أنواعا مختلفة كالشعير والقمح...إلخ.

وتجدر الإشارة إلى أن تحديد مداخل متعددة قد يترتب عليه إعمال جهد معرفي إضافي، يحول دون نجاح العملية التواصلية ويعوق عملية الفهم، كأن نخصّص مفهومي[الأكل] و[النخل]في الآية السابقة.

فتخصيص المفهوم الأخير، مثلاً، لا ينسجم مع التأويل المقصود، من جهة عدم وجود أصناف متباينة من أكل النخل بخلاف مفهوم (الزرع) الذي يسهل تحديد مدخله دون بذل جهد معرفي مكلف.

نستنتج بناء على ما تقدم، أن عود الضمير على (الزرع) أكثر وروداً من عوده على غيره، لإنه ينسجم مع مقتضيات الفهم ومع ما ثقفته ذاكرة الفرد من معارف، مما يسمح باستنباط المبدإ التداولي العام(20):

(20) إن وسيطي الأثر المعرفي والكلفة يمكنان من إزالة اللبس اللغوي.

يمكن تخصيص هذا المبدإ على النحو التالي:

(21) تقوى المعلومات المقترنة بمفاهيم موسوعية، الواردة في الأقوال، على تحديد عود الضمائر وإزالة اللبس اللغوي.

كما نخلص إلى نتيجة عامة، فحواها أن المقاربة التداولية المعرفية تظفر بوصف مناسب للعائدية الخطابية، لكونها تأخذ بعين الاعتبار مختلف العمليات الذهنية التي تتحكم في جريان الكلام وتأويله.

وتنطلق من مسلمة مقتضاها أن اللغة غير مستقلة عن الواقع وتجارب المتكلمين.

يظهر هذا البعد المعرفي من وسيطين معرفيين يروزان ورود الخطاب:

أ - وسيط الجهد المعرفي

ب - وسيط الأثر المعرفي.

في المقابل تعجز التصورات النحوية عن تقديم أوصاف ملائمة لانحصار جهازها الوصفي في المستويات التركيبية والدلالية، ولانطلاقها من ادعاء يقضي بأن المعنى اللغوي مستقل عن السياق.

الهوامش:

1 – موشلر (1989) Moeschler ص:123.

2 – جرايس (1975) ص ص 60–61.

3 – يشير جرايس إلى أن هناك قواعد أخرى جمالية أو اجتماعية أو أخلاقية، يمكن إضافتها إلى القواعد المذكورة، مثل "كن مؤدبا في كلامك"، وهي قواعد سبق وأن قتلها علماء أصول الفقه بحثاً في معرض الحديث عن ما يجب على المحاور العمل به في باب "أدب المناظرة". انظر الباجي في "المنهاج في ترتيب الحجاج" ونجم الدين الطوفي في "علم الجذل في علم الجدل".

4 – سبربرוولسن (1956) ص101.

5 – يراد بهذا المفهوم "كل تمثيل تصوري للعالم الواقعي".

6 – هذا المبدأ شبيه بمفهوم المساق الوارد عند الأصوليين. انظر الموافقات للشاطبي 413/3.

7 – سبربروولسن (1986) ص:136 وبلاكمور (1987) ص ص 41–42.

8 – د. الفاسي الفهري (1981).

9 – ليونس (1977) ص 659.

10 – تبين أطروحة ملنر (1982) Milner، حول الإحالة، أن هناك نوعين من الصرفات:

أ) صرفات مستقلة إحاليا ودلاليا وتركيبيا

ب) صرفات غير مستقلة لاإحاليا ولادلاليا كالضمائر.

لتقويم هذه الأطروحة، يمكن الرجوع إلى دراسة آن ربول (1990) Anne Reboul.

11 – بنفنست (1966)، نقلاً عن الأزهر الزناد(1993) ص:116.

12 – كيمسن.، (1988) Kempson..R.

13 – كتاب الكافية في النحو لرضي الدين علي، ابن الحاجب 4/2.

14 – هناك رأي ثالث، يذهب إلى أن الضمير يعود على النخل والزرع معاً، وأن هذين السابقين يدخلان في حكم الضمير.

قائمة المراجع العربية

ابن الحاجب، علي رضي الدين، كتاب الكافية في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، (1982).

الشاذلي، الهيشري (1991) "الالتفات في القرآن"، في حوليات الجامعة التونسية، العدد 32.

عظيمة، عبد الخالق محمد (1972)، دراسات لأسلوب القرآن الكريم، دار الحديث، مطبعة السعادة، مصر.

الفاسي الفهري، عبد القادر(1981). "الدلالة النظرية لبعض الظواهر الإحالية في اللغة العربية"، اللسانيات في خدمة اللغة العربية، سلسلة اللسانيات عدد: 5، تونس.

الزناد الأزهر (1993). نسيج النص، المركز الثقافي العربي، البيضاء.

قائمة المراجع الأجنبية

Blakemore, D. (1987), Semantic constraints on Relevance. Blackwell, Oxford.

Carston, R. (1988) "Language cognition", in Newmeger, F.j (ed.). Linguistics, vol4, Cambridge University Press.

Cornisch, F(1990). "Anaphore Pragmatique, Reference et Modeles du discours", in Kleiber, G. Tyvaert, (ed). L'Anahore et ses domaines,Recherches Linguistiques, Université de Metz. Paris.

Fodor, J.A (1983), The Modularity of Mind, M.I.T. Press, Cambridge, Mass. (Trad. Française, la Modularité de l'esprit. Minuit (1986).

Grice. H.P. (1975) "Logic and conversation", in, cole, P and Morgan. J(ed). Syntax and Semantics vol III, NewYork. Academic Press.

Kempson, R. (1988). "Grammar and conversational Principles" in, Newmeyer, F. J (ed).Linguistics: The Cambridge University Press.

Lita, L (1990) "Un cas d'ambiguité Réferentielle, Aspects Pragmatiques", dans Kleiber, G et Tyvaert J. (ed).

Lyons. J. (1977) Semantics, Cambridge University Press.

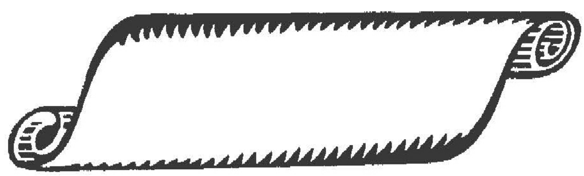
Lyons. J. (1990) Semantique Linguistique, (trad. Dur and J. et Boulonnais, D. Larousse. Paris).

Reboul, A (1990) "Rhetorique de l'anaphore" in Kleiber, G et Tyvaert, J. (ed.).

Sperber, D and Wilson. D. (1986) Relevance: communication and cognition, Basil Blackwell. oxford.

Werth, P (1983), Focus, coherence and Emphasis, croomHelm. London.

Yan, H (1991), "A Neo-Gricean Pragmatic theory of Anaphora", in journal of linguistics n°27.



أمن اللبس ومراتب الألفاظ في النحو العربي

د. رشيد بلحبيب [*]

1- وظيفة اللغة بين الإفهام والتعمية / حذر اللبس:

لولا حاجة الناس إلى المعاني وإلى التعاون والترافد لما احتاجوا إلى الأسماء [1]. ولذلك كانت غاية اللغة القصوى التفاهم :"فنتكلم أو نكتب لبيان أفكارنا وإيصالها إلى فهم السامع أو القارئ ولا بد لنا في هذا من استعمال الجمل، فإنها صور للفكر خطابا وكتابة ذلك لأن الجملة تحتوي على شيئين ألفاظ منسوقة على ترتيب مخصوص ومعان تقابل تلك الألفاظ ويدل عليها بها. [2]

ومما لا ريب فيه أن النظام اللغوي خلق للإفادة أي لتبليغ أغراض المتكلم للمستمع فهو آلة للتبليغ جوهره تابع لما ولي من أمر الإفادة. [3]

ولا غرابة في هذا ما دام شرط الإفادة وعدم اللبس شرطا في كل عملية تواصلية شفاهية أو كتابية. لأن "اللغة تبقى لغة في جميع أحوالها، وإذا استخدمت كتابة فليس مهما أن يتم هذا حسب حروف الألفباء أو حسب طريقة بريل أو حسب نظام مورس وما إلى ذلك" [4] ما دامت تؤدي وظيفتها.

وقد فهم اللغويون العرب هذه الظاهرة فهما صحيحا يقول الجاحظ: " يكفي من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق ... ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع " [5]

فذلك من شروط نجاح أي عملية تواصلية.

إن من أهم أركان العملية التواصلية الإفادة، أي الابتعاد عن اللبس أو ما يسميه تشومسكي " الغموض التركيبي " [6] Structural ambiguity ولهذا صاغ النحويون العرب قواعد من مثل : " الأصل في الكلام أن يوضع للفائدة" ، و" لا يجوز الابتداء بالنكرة لأنها لا تفيد"... ومتى زالت الفائدة أو التبست صار الكلام عبارة عن ركام من الألفاظ.

يقول تمام حسان :"إن اللغة العربية- وكل لغة أخرى في الوجود- تنظر إلى أمن اللبس باعتباره غاية لا يمكن التفريط فيها لأن اللغة الملبسة لا تصلح واسطة للإفهام والفهم وقد خلقت اللغات أساسا للإفهام وإن أعطاها النشاط الإنساني استعمالات أخرى فنية ونفسية [7].

فالمتكلم حين يقصد إفهام المخاطب رسالته اللغوية فإنه يرتبها على منوال لا يدع معه للبس مجالا حتى

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الأول- وجدة (المغرب)

يدرك مقاصده ذلك الإدراك الذي يتوخاه، فالالتباس ممنوع أبداً لمنافاته القصد من وضع اللغة، " وأما سهولة الفهم فشرط أولي وضروري أيضا بما أنه غاية اللغة ومطلب من مطالبها المقصودة بالذات وهو دليل على ارتقائها وارتقاء أهلها " [8].

اللبس محذور :

هناك قاعدة كبرى في أصول الفقه الإسلامي تجعل " المصلحة" غاية، وتقابلها قاعدة كبرى في أصول النحو تجعل " الفائدة" هي الغاية وتلخص المصلحة في أصول الفقه عبارة " لا ضرر ولا ضرار " وتلخص الفائدة في أصول النحو عبارة صاغها تمام حسان في صورة مشابهة هي " لا خطأ ولا لبس " [9]. وقد وضعها ابن مالك في شطر بيت يقول :

وإنْ بشكلٍ خيفَ لبس يجتنب

لقد عقد السيوطي في الأشباه والنظائر فصلا تحت عنوان" اللبس محذور " تعرض فيه للأساس الذي هيكل نحاة العربية عليه قواعدهم وأسسوا بناء عليه تصوراتهم وتعليلاتهم لمباحث اللغة، فاللبس محذور عندهم، ولا ينبغي إلا أن يكون كذلك، ولهذا بحثوا الأشباه والنظائر التي يمكن أن يقع الخلط واللبس فيها، وتحدثوا عن اللبس في معظم أبواب الصرف والنحو والمعاني وهذه بعض النماذج:

* قال ابن فلاح في المغني:"إنما ضم حرف المضارعة في الرباعي دون غيره خيفة التباس الرباعي بزيادة الهمزة بالثلاثي نحو: ضرب يضرب، وأكرم يكرم، لأن الهمزة في الرباعي تزول مع حرف المضارعة، فلو فتح حرف المضارعة لم يعلم أمضارع الثلاثي هو أم مضارع الرباعي، ثم حمل بقية أبنية الرباعي على ما فيه الهمزة [10].

* ومن ذلك إذا خيف من النسب إلى صدر المضاف لبس حذف الصدر ونسب إلى العجز فيقال في النسب إلى عبد مناف وعبد أشهل: منافي وأشهلي لأنهم لو قالوا عبدي لالتبس بالنسبة إلى عبد القيس فإنهم قالوا في النسبة إليه عبدي ...[11]

* ومنه عدم لحاق التاء في صفات المؤنث الخاصة بالإناث كحائض وطالق ومرضع وكاعب وناهد وهي كثيرة جدا لأنها لاختصاصها بالمؤنث أمن اللبس فيها بالمذكر فلم تحتج إلى فارق [12] * ومن ذلك يجوز أن يقال في النداء : يا أبت ويا أمت بحذف ياء الإضافة وتعويض التاء عنها، قال ابن يعيش: " ولا تدخل هذه التاء عوضا في ماله مؤنث من لفظه لو قلت : في يا خالي ويا عمي : يا خالة ويا عمة لم يجز لأنه كان يلتبس بالمؤنث، فأما دخول التاء على الأم فلا إشكال لأنها مؤنثة، وأما دخولها على الأب فلمعنى المبالغة [13].

كما تحدث ابن هشام عن اللبس حديثا مفصلا في تقرير شامل عند بيانه عن اللجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها، فقد جعل الجهة التاسعة منها: ألا يتأمل عند وجود المشتبهات [14] وعرض هناك لما يحتمل المصدرية والمفعولية، وما يحتمل المصدرية والظرفية والحالية وما يحتمل المصدرية والحال... مما يمكن أن يقع فيه اللبس.

2- أمن اللبس والترخص في الإعراب:

لقد جعل اللغويون العرب العدول عن أصل وضع الجملة بواسطة الحذف أو الإضمار أو الفصل أو تشويش الرتبة بالتقديم والتأخير أو التوسع في الإعراب من باب " الترخص عند أمن اللبس" مع الإشارة إلى أن هذا الترخص يخضع لقيود في مقدمتها حصول الفائدة أو أمن اللبس عند حصول العدول، يقول تمام حسان:"ويتضح خضوع العدول لأمن اللبس في وجوب أن يكون هناك دليل على المحذوف وضرورة التفسيرعند الإضمار وما يفرض من شروط على الفصل بين المتلازمين وعلى التقديم والتأخير وهلم جرا. (15)

ومن أشكال العدول عن أصل من الأصول، العدول عن الإعراب.

إن من أصول العربية الدلالة بالحركات على المعاني فإذا استهدينا بهذا الأصل وجب أن نرى في هذه العلامات الإعرابية إشارة إلى معان يقصد إليها فتجعل تلك الحركات دوال عليها وما كان للعرب أن يلتزموا هذه الحركات ويحرصوا عليها ذلك الحرص كله، وهي لا تعمل في تصوير المعنى شيئا، بل لقد كانت حارسا لأمن اللبس في النظام والسياق معا. (16)

يقول السيوطي : " إنما وضع - الإعراب- في الأسماء ليزيل اللبس الحاصل فيها باعتبار المعاني المختلف عليها، ولذلك استغنى عنه : الأفعال والحروف والمضمرات والإشارات والموصولات لأنها دالة على معانيها بصيغها المختلفة فلم تحتج إليه، ولما كان الفعل المضارع قد تعتوره معان مختلفة كالاسم دخل فيه الإعراب ليزيل اللبس عند اعتوارها، ومنه رفع الفاعل ونصب المفعول فإن ذلك لخوف اللبس منهما لو استويا في الرفع أو في النصب، ثم قال: " ومن ثم وضع للبس ما يزيله إذا خيف واستغني عن لحاق نحوه إذا أمن " (17) .

إن العرب مجمعون على رفع الفاعل ونصب المفعول به إذا ذكر الفاعل إلا أنه قد جاء الفاعل منصوبا والمفعول مرفوعاً إذا أمن اللبس يقول ابن مالك :

ورفع مفعول به لا يلتبس ونصب فاعل أجز ولا تقس . (18)

قال ابن الطراوة : " بل هو مقيس ومنه في القرآن الكريم (فتلقى آدم من ربه كلمات) [البقرة /36] فابن كثير وهو القارئ المكي من القراء السبعة ينصب آدم ويرفع كلمات (19).

وقد كان ابن الطراوة يقول : إذا فهم المعنى فارفع ما شئت وانصب ما شئت وإنما يحافظ على رفع الفاعل ونصب المفعول إذا احتمل كل واحد منهما أن يكون فاعلا وذلك نحو : " ضرب زيد عمرا" لو لم ترفع " زيدا " وتنصب "عمرا" لم يعلم الفاعل من المفعول . (20)

وقد أوردت مصادر النحو عددا من الأبيات الشعرية وقع فيها الترخص في الإعراب.

يقول الزجاجي : " وقد جاء في الشعر شيء قلب فصيّر مفعوله فاعلا وفاعله مفعولا على التأويل ضرورة وأنا أذكر لك منه شيئا تستدل به على ما يرد

عليكم منه في الشعر فتعرف وجهه ولا تنكره، فمنه قول الشاعر:

مثل القنافد هداجون قد بلغت

نجران أو بلغت سوءاتهم هجر

فقلب الفاعل فصار مفعولا

ومنه قول الآخر:

غداة أحلّت لابن أصرم طعنةً

حصين عبيطات السدائف والخمر

فقلب فنصب الطعنة وهي التي أحلت له ورفع المفعول.

ومما جاء من المفعول المحمول على المعنى قوله:

قد سالم الحيات منه القدما

الأفعوان والشجاع الشجعما

لأن المسألة لا تكون إلا من اثنين، ومن سالم شيئا فقد سالمه الآخر لأنه مثل المقاتلة والمضاربة... فجعل الحيات فاعلات فرفعها بالمسالمة ثم نصب الأفعوان والشجاع... فجعلها مفعولات لأنها مسالمة كما أنها مسالمة.[21]

وقد جعل ابن هشام هذا الترخص من ملح كلامهم قال: " من ملح كلامهم تقارض اللفظين في الأحكام"[22] كإعطاء الفاعل إعراب المفعول وعكسه عند أمن اللبس مثل : " خرق الثوبُ المسمارَ" و"كسر الزجاجُ الحجرَ" ، وأورد مجموعة من الأبيات من بينها:

إن من صاد عقعقا لمشوم

كيف من صاد عقعقان وبوم

وفيه رفع الفاعل والمفعول معا.[23]

3- مصادر اللبس التركيبي:

يتوقف فهمنا للتراكيب في شطر كبير منه على هيئة نظم الكلم، ذلك أن كثيرا من الجمل الملتبسة التي تحتمل الواحدة منها معنيين أو أكثر إنما يرجع اللبس فيها إلى هيئة النظم وسمته[24] ولهذا كان تصريف الكلام لأداء مختلف الوظائف، لا سيما الوظيفة المحورية (الفهم والإفهام)، تقتضي من المتكلم احترام جملة من النواميس اللغوية تحتل في تفكيره محل الأساس الضروري لكل عملية تواصل لغوية مهما كان مستواها.

إن من أهم مصادر اللبس خرق القواعد بشكل صريح وسافر، أو كما يعبر عن ذلك "غرايس" عند الاستخفاف بالقواعد أو استغلالها مع عدم احترام المبادئ المتحكمة في أي خرق، لأن المتكلم إذا انحرف عن استعمال مواقف للحكم والقواعد احتاج المستمع على الأقل إلى تقرير الكلام وإعادة تشكيله حتى يتوصل عبر استدلالات متتابعة إلى المقتضى الذي يقصد المتكلم إبلاغه .[25]

فاغتصاب الأماكن والنزول في غير الأوطان[26] من شأنه أن يؤدي إلى عدم التطابق بين المستوى المنطوق والفكرة ، وإذا لم يتم التطابق المذكور فسد النظم والتبست الطرق المؤدية إلى الغرض، واضطر القارئ إلى إعادة تركيب الأجزاء وتنسيقها حتى يحصل على صورة المعنى. وقد برزت هذه المعاني في تحليل الجرجاني لنماذج من الشعر العربي اتفق أسلافه على فسادها إلا أنهم لم يستطيعوا تحليل وجه الفساد

أو اكتفوا بعبارات مجملة لا تفي بالغرض. فجميع النقاد يعتبرون بيت الفرزدق:

وما مثله في الناس إلا مملكا

أبو أمه أبوه حي يقاربه.

فاسداً لأن فيه معاظلة بين الكلام وتقديما على غير الوجه و لم يزيدوا على هذا التفسير شيئا. أما الجرجاني فقد بيّن فساد نظمه بالمفارقة الحاصلة فيه بين ترتيب المعاني في الفكر وترتيب الألفاظ في الذكر.(27)

يقول الجرجاني: " فانظر أيتصور أن يكون ذمه للفظه من حيث إنك أنكرت شيئا من حروفه أو صادفت وحشيا غريبا أو سوقيا ضعيفا أم ليس إلا لأنه لم يرتب الألفاظ في الذكر على موجب ترتب المعاني في الفكر فكدّ وكدّر ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا بأن يقدم ويؤخر ثم أسرف في إبطال النظام وإبعاد المرام، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منها صورة ولكن بعد أن يراجع فيها باب من الهندسة لفرط ما عادى بين أشكالها وشدة ما خالف بين أوضاعها".(28)

إن من أهم مصادر اللبس إذن " العدول عن أصل الوضع" ، بواسطة الحذف أو الإضمار أو الفصل أو تشويش الرتبة بالتقديم والتأخير أو التوسع في الإعراب، وهذا العدول إما أن يكون مطردا إذا أمن اللبس - وذلك بوجود دليل على المحذوف وضرورة التفسير عند الإضمار وما يفرض من شروط على الفصل بين المتلازمين وعلى التقديم والتأخير وهلم جرا (29) ، وإما أن يكون غير مطرد إذا خيف اللبس- فللبس دور أساسي في تصريف أحوال العدول والتصرف فيها.

4- تحكم اللبس في حفظ المراتب:

إن المصدر الذي نريد أن نقف عنده، باعتباره من مصادر اللبس الكبرى، هو التقديم والتأخير فالأصل فيه عدم اللبس، إلا أن الكاتب أو الشاعر قد يذهب مذهب التوعر فيقدم ويؤخر دون أن يراعي الأصول قاصدا اللبس والتعمية.

يقول ابن القيم معلقا على قول الشاعر:

نفلق ها من لم تنله سيوفنا

بأسيافنا هام الملوك القماقم.

تقديره : نفلق بأسيافنا هام الملوك القماقم، ومن لم تنله سيوفنا و"ها"للتنبيه تقديره: تنبهوا لهذا المعنى وإنما دعاه إلى التقديم والتأخير إيقاع اللبس على السامع وجعله من باب الألغاز" (30)

ومن وصايا النقاد للكتاب أن يتجنبوا ما يكسب الكلام تعمية فيرتبوا ألفاظهم ترتيبا صحيحا (31) ولا يكرهوا الألفاظ على اغتصاب الأماكن.(32)

أما إذا خيف اللبس وهدد القصد وأمكن للسامع أن يحمل الخطاب على غير المراد فينتقض العهد وينحل العقد وتتبدل القضية والحكم فلا مناص من إيفاء اللغة أقدارها وإحلال الكلمات محالها. (33)

يقول جبر ضومط : " فإذا راعيت هذه الأغراض- المحافظة على حسن الرصف والفاصلة- فقدم ما شئت وأخر ما شئت على شرط ألا يقع التباس في الجملة ولا تعقيد، أما الالتباس فلا يسوغ بوجه من الوجوه ولذلك لا يصح في جملة: " لو اشتريت لك بدرهم

لحما تأكلينه" : تأخير المجرور الأول وتقديم الثاني عليه، ولا في جملة (وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى [يس /19] أن تؤخر المجرور أصلا، لأن التأخير يؤدي في الحالين إلى الإلباس. (34)

فالتقديم قد يكون دافعا للبس أو جالبا له حسب المباحث، واللبس قيد من القيود التي تحد من حرية الجملة العربية ومن حركية مفرداتها، وسوف نحاول البرهنة على هذا الأمر من خلال النماذج النحوية التالية:

أ- التباس المبتدإ بالخبر :

لقد تقدمت الإشارة إلى أن المبتدأ والخبر يتميزان بنوع من الحرية فيسمح التركيب العربي بتقديم الخبر وتأخير المبتدإ ما لم يؤد ذلك إلى اللبس، ومن الحالات التي يجب فيها أن يلزم كل موضعه، إذا كانا معرفتين أو نكرتين متساويتين في التخصيص ولا قرينة تميز أحدهما عن الآخر، فالمعرفتان نحو : زيد أخوك، فإن كلا من هذين الجزأين صالح لأن يخبر عنه بالآخر ويختلف المعنى باختلاف الغرض فإذا عرف السامع زيدا بعينه واسمه ولا يعرف المخاطب اتصافه بأنه أخو المخاطب وأردت أن تعرفه ذلك قلت:أخوك زيد، ولا يصح لك أن تقول: "زيد أخوك".

وإذا عرف أخا له ولا يعرفه على التعيين باسمه وأردت أن تعينه عنده قلت : أخوك زيد ولا يصح لك أن تقول : "زيد أخوك" .(35)

والنكرتان المتساويتان نحو : "أفضل منك أفضل مني"، فإن كل واحد من هذين الوصفين صالح لأن يخبر عنه بالآخر لعمله في المجرور بعده، فإذا جعلت أفضل منك مبتدأ، " وأفضل مني" خبره امتنع تقديم الخبر لئلا يتوهم ابتدائيته فينعكس المعنى لعدم القرينة وإلى هذا أشار الناظم بقوله:

فامنعه حين يستوي الجزءان

عرفا ونكرا عادمي بيان(36)

ومن أطرف ما في هذا الأمر أن جماعة من النحويين لا يجيزون تقديم خبر المبتدإ عليه إذا كان معرفة(37) فلا يجيزون أن يقال: "أخوك زيد" والمراد "زيد أخوك" ومن حججهم أنه يقع الإشكال فلا يعلم السامع أيهما المسند وأيهما المسند إليه فلما عرض فيهما الإشكال لم يجز التقديم والتأخير، وكان ذلك بمنزلة الفاعل والمفعول إذا وقع الإشكال فيهما لم يجز تقديم المفعول كقولك : ضرب موسى عيسى(38)

يقول السيوطي:

" فإذا كان الخبر معرفة كالمبتدإ لم يجز تقديم الخبر لأنه مما يشكل ويلبس إذ كل واحد منهما يجوز أن يكون خبرا ومخبرا عنه" (39)

بخلاف ما إذا كان معه قرينة لفظية أو معنوية فاللبس ينتفي.

فالأول نحو: رجل صالح حاضر فإن القرينة اللفظية وهي الصفة قاضية على النكرة الموصوفة بالابتدائية تقدمت أو تأخرت.

والثاني : نحو : " أبو يوسف أبو حنيفة" فإن القرينة المعنوية وهي التشبيه الحقيقي قاضية بأن "أبو يوسف" مبتدأ لأنه مشبه و "أبو حنيفة" خبره لأنه مشبه به

تقدم أو تأخر [40] فلا بد أن تكون للقارئ معلومات سابقة عن كل من أبي يوسف - وهو من أشهر تلامذة أبي حنيفة- وأبي حنيفة إمام المذهب الفقهي المعروف وأن تكون لديه الكفاءة اللغوية التي تؤهله لمعرفة المحكوم به والمحكوم عليه أو المشبه والمشبه به أو المبتدإ والخبر، ففي الجملة السابقة استوى طرفا الجملة في التعريف، ومع ذلك يجوز فيها أن يتقدم الخبر " أبو حنيفة" وهو المشبه به ويتأخر المبتدأ " أبو يوسف" فتصير الجملة:

أبو حنيفة أبو يوسف لأن القرينة المعنوية وهي التشبيه الحقيقي تقضي بأن يكون " أبو يوسف" مبتدأ تقدم أو تأخر لأنه مشبه، وأن يكون " أبو حنيفة" خبرا تقدم أو تأخر لأنه مشبه به. [41]

إذن فالعنصر الدلالي يقوم- عند فقدان ما يميز الوظائف النحوية بعضها من بعض- بالتمييز بين هذه الوظائف مما يتيح لها حرية الرتبة فتقدم من تأخير أو تؤخر من تقديم. [42]

يقول عبد القاهر الجرجاني: " واعلم أنه ليس من كلام يعمد واضعه فيه إلى معرفتين فيجعلهما مبتدأ وخبرا ثم يقدم الذي هو الخبر إلا أشكل الأمر عليك فيه فلم تعلم أن المقدم خبر حتى ترجع إلى المعنى وتحسن التدبر.

ففي قول الشاعر:

نَمْ وإنْ لَمْ تَنَمْ كَرايَ كَراكَ [43]

ينبغي أن يكون كراي خبرا مقدما ويكون الأصل: " كراك كراي" ، أي نم وإن لم أنم فنومك نومي...

ثم قال: وإذا كان كذلك فقد قدم الخبر وهو معرفة وهو ينوي به التأخير من حيث كان خبرا.

قال فهو كبيت الحماسة:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا

بنوهن أبناء الرجال الأباعد

فقدم خبر المبتدإ وهو معرفة، وإنما دل على أنه ينوي التأخير المعنى، لولا ذلك لكانت المعرفة إذا قدمت هي المبتدأ لتقدمها. [44]

ب- التباس المبتدإ بالفاعل:

ومما يجب فيه تأخير الخبر أن يخاف التباس المبتدإ بالفاعل إذا تقدم الخبر وكان فعلا مسندا إلى ضمير المبتدإ المستتر نحو : "زيد قام" أو يقوم"، فلو قدم والحالة هذه وقيل: قام أو يقوم لالتبس المبتدأ بالفاعل بخلاف ما إذا كان الخبر صفة نحو: " زيد قائم" أو كان فعلا رافعا لظاهر أو لضمير بارز، فالأول نحو: " زيد قام أبوه" والثاني نحو :" أخواك قاما" على اللغة الفصحى فلا لبس فيهن فيجوز تقديمه فتقول : " قائم زيد"، و" قام أبوه زيد" ، و"قاما أخواك" وهذا التقييد لا بد منه في قول الناظم:

كذا إذا ما الفعل كان الخبرا [45]

إذن، إذا كان الخبر فعلا فإنه لا يجوز أن يتقدم لأنه إذا تقدم الفعل على الاسم خرج من حدّ الابتداء وارتفع بالفعل [46] وهذا مما يؤدي إلى التباس المبتدإ بالفاعل لا محالة [47]

ج- التباس الفاعل بالمبتدإ:

لابد في الجملة الفعلية من ذكر الفعل قبل الفاعل

مطلقا [48] ،ولا يجوز تقدم الفاعل، ودليل امتناع تقديم الفاعل هو التباسه بالمبتدإ [49] وتحول الإسناد من إسناد فعلي إلى إسناد اسمي [50]وهذا ما عبر عنه الشهاب القاسمي بقوله: " فإن قلت: لم امتنع التقديم لتوهم الفاعلية مع أنه لا يختلف المعنى، قلت : يختلفان بالجملة الاسمية والفعلية المختلفتين بإفادة الأولى الثبوت والدوام والثانية التجدد والحدوث". [51]

وقد لاحظ النحاة هذا المعنى، ومن ثم قالوا إن رتبة المبتدإ التقديم لأنه محكوم عليه والمحكوم عليه قبل الحكم، بخلاف جملة الفعل والفاعل فإن المقصود فيها أولا إنما هو المسند أي الفعل مضافا إليه الفاعل ثم ما لابسه من بقية متعلقاته، ولهذا لا يقدم الفاعل على الفعل أصلا لئلا يلتبس بالمبتدإ في أنه هو المقصود أولا. [52]

ويقوي ذلك أن حكم المبتدإ أن يؤتى به أولا لثان، وحكم الفاعل أن يؤتى به ثانيا لأول، أعني أن حكم المبتدإ أن يقدم قبل الحديث عنه فيكون حديثه تابعا لحديثه قبل أن يعرض للمبتدإ المجاز، والأشخاص مقدمة في الرتبة قبل حركاتها الموجودة منها قبل تأثيراتها في غيرها، وأيضا فإن الفاعل يجوز أن ينعكس مبتدأ أبدا، ما لم يكن فيه ضمير عائد إلى مفعوله... [53]

وإذا كان النحاة عللوا امتناع تقديم الفاعل بالتباسه بالمبتدإ فإنهم جوزوا تقديمه متى زال المانع، قال الأبّدي في شرح الجزولية: " ولا يبعد عندي أن يقال إن هذا الفعل يصح له العمل في الأول مقدما عليه وذلك مع أداة تطلب بالفعل... إلا أن يمنع من ذلك مانع، وذلك المانع في الفاعل هو أن يلتبس بالمبتدإ في قولك : "قام زيد وزيد قام" ،[54] ثم قال: " فإذا جاء حرف لا يليه الفعل، لفظاً أو تقديرا ،أزال ذلك اللبس فصحّ أن يكون فاعلا مقدما، إن قدرت الفعل فارغا من الضمير، وفاعلا بإضمار فعل إن قدرت الفعل مشغولا بضمير،قال ابن أبي الربيع:وهذا الذي قاله الأستاذ إنما هو بناء منه على أن الفاعل لا يقدم لأجل اللبس بالمبتدإ فعلى هذا متى زال ذلك اللبس ينبغي أن يقدم [55].

د- التباس الفاعل بالمفعول:

لابد في الجملة الفعلية من ذكر الفعل قبل الفاعل مطلقا، وأما ما سواه من بقية المتعلقات فالأصل فيها أن تتأخر عن الفعل، إلا أنها بحسب الصناعة اللفظية لا يتعين بينها وبين الفعل ترتيب مخصوص، فلك أن تقدم ما شئت منها على الفعل أو تؤخره على ما تراه مناسبا بشرط أن تحافظ على منع الالتباس وتتجنب التعقيد. [56]

فالمفعول به قد يتقدم على الفاعل وقد يتأخر عنه نحو :" ضرب زيدا عمرو" و"خرق السترَ المسمارُ" لأن ظهور الإعراب في الاسمين قد يبّين الفاعل من المفعول، فإذا لم يظهر الإعراب فيهما أو في أحدهما كقولك:ضرب موسى يحيى لم يجز التقديم والتأخير [57] لما يؤدي إليه ذلك من التباس المفعول بالفاعل. [58]

يقول ابن أبي الربيع: " وذلك أن الفاعل والمفعول إذا لم يكن في الكلام ما يدل عليهما التزمت العرب تقديم الفاعل وتأخير المفعول، فإذا قالوا: "ضرب

ويكون المرتفع بها عاقلا وغير عاقل. [67]

وفي المثال الثاني : "استخلف المرتضى المصطفى" تعتمد القرينة المعنوية فيه على معلومات خاصة اقترنت بدلالة اللفظ المستخدم "استخلف" أي جعله خليفة، ولا بد أن يكون المستمع عارفا بأن لقب المصطفى خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبأن لقب المرتضى خاص بأبي بكر رضي الله عنه، ولا بد أن يكون عارفا أيضا بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قبض للرفيق الأعلى قبل أبي بكر. [68]

فلما زال اللبس بالأدلة والقرائن المعنوية جاز التقديم والتأخير. [69]

وقد اتضح أن العنصر الدلالي يسمح بالتصرف في التقديم والتأخير لأنه يقوم بالدور الذي كانت تقوم به العلامة الإعرابية وهي إحدى الوسائل التي اصطنعتها اللغة للتمييز بين العناصر بعضها البعض.

وإذا انعدمت العلامة مع عدم وجود القرينة كان الالتزام بالترتيب الأصلي بين الفاعل والمفعول به بديلا عنها، فيلزم كل واحد مركزه ليعرفا بالمكان الأصلي، فللرتبة دور مهم في الجملة فهي تساعد على رفع اللبس عن المعنى بتحديد موقع الكلمة فيها: " إذ العبارة إنما تدل على المعنى بوضع مخصوص وترتيب مخصوص، فإن بدل ذلك الوضع والترتيب زالت تلك الدلالة ". [70]

وقد استدل الفاسي الفهري على أن الأصل في الجملة العربية (ف+فا+ مف) بالاحتفاظ بالرتبة الأصلية عند غياب الإعراب يقول : " ومن المؤشرات على النمطية المذكورة، (ف+فا+مف) عدم إمكان اللبس في الجمل التي يتوارد فيها الفاعل والمفعول بدون إعراب بارز مثل:

ضَرَبَ عيسَى مُوسَى

ضَرَبَ مُوسَى عِيسَى

فعيسى فاعل بالضرورة في الجملة الأولى وموسى مفعول.

وموسى فاعل بالضرورة في الجملة الثانية وعيسى مفعول.

مع أن الأمر بخلاف ذلك في الجملة : ضرب عيسى زيدا نظراً لبروز الإعراب " [71]

هـ- التباس المقصور بالمقصور عليه:

لا يجوز تقديم المقصور عليه حيث كان الطريق "إنما" لأجل وجود الالتباس في التقديم، وذلك لأن كلا من المفعول والفاعل مثلا الواقعين بعدها يجوز أن يكون هو المقصور عليه دون الآخر وأن يقترن أحدهما بقرينة تدل على كونه هو المقصور عليه، فقصدوا أن يجعلوا التأخير علامة القصر على ذلك المؤخر، فالتزموه في مواطن مع إنما ، و لم يجعلوا التقديم أمارة ليجري على ما تقرر في أصل القصر"بإلا" كما تقدم في النفي. [72]

ففي قول العرب: " ليس الطيب إلا المسك" : لو قلبت طرفي الجملة فقلت :" ليس المسك إلا الطيب"، لأجل الغرض في نفي الطيب عن كل شيء غير المسك وتحصل معنى غير ما تقصده من النظم الأول، ولا ينكر أنه يعرض في بعض صور هذا الباب غموض

الفرق.(73)

وكذلك في قولك في "ما ضرب زيد إلا عمرا" لايجوز " ما ضرب عمرا إلا زيد" لما فيه من اختلال المعنى وانعكاس المقصود.(74)

فتقديم المحصور عليه لا يجوز في كل مباحث الحصر(75) لأنه يفهم خلاف المقصود ويؤدي إلى عكس المراد.(76)

و- موضع الجار والمجرور واللبس:

سأعرض لتأخير الجار والمجرور الممتنع بسبب اللبس من خلال آيتين كريمتين وقف عندهما البلاغيون طويلا:

* الآية الأولى: (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) [غافر/ 28] إذ جعلوها مثالا على أن تأخير الجار والمجرور يخل بالمعنى، يقول الزركشي: " من ذلك كون التقديم يمنع اختلال المعنى كقوله تعالى (الآية) فإنه لو أخر قوله (من آل فرعون) فلا يفهم أنه منهم (77) وذلك لأن في التأخير إخلالا ببيان المعنى (78) لأن في تأخيره خيفة أن يلتبس المعنى بغيره كقوله تعالى) (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه) فإنه لو قيل (يكتم إيمانه من آل فرعون) لتوهم أن من آل فرعون من صلة يكتم فيختل المقصود.(79)

ففي الآية السابقة ثلاثة نعوت قدم أهمها وأخصرها وهو: " مؤمن" وأخر النعت الجملة " يكتم إيمانه " منعا للالتباس ومراعاة لحسن النظم معاً.

ويمكن إجمال صور التركيب الممكنة في ما يلي:

1- وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه.

2- وقال رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون.

3- وقال رجل من آل فرعون مؤمن يكتم إيمانه.

4- وقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه مؤمن.

5- وقال رجل يكتم إيمانه من آل فرعون مؤمن.

6- وقال رجل يكتم إيمانه مؤمن من آل فرعون.

فمن هذه الصور الست (الثانية والخامسة) ممنوعتان لوقوع الالتباس فيهما.

والثالثة والرابعة والسادسة جائزات بحسب اللغة إلا أن البلاغة تنكرهن لتقدم غير الأهم فيهن على الأهم... (80)

* الآية الثانية: هي قوله تعالى (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا) [المؤمنون/ 33] بتقديم "من قومه" على الوصف " الذين كفروا " قال الزركشي: " ولو تأخر لتوهم أنه من صفة الدنيا لأنها ههنا اسم تفضيل من الدنو وليست اسما والدنو يتعدى "بمن"، وحينئذ يشتبه الأمر في القائلين أنهم أهم من قومه أم لا، لاشتمال التأخير على الإخلال ببيان المعنى المقصود وهو كون القائلين من قومه.

وحين أمن هذا الإخلال بالتأخير قال تعالى في موضع آخر من هذه السورة (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم([المؤمنون/24] بتأخير المجرور عن صفة المرفوع. (81)

ز- التباس أحد المفعولين بالآخر:

يرتفع اللبس في مفعولي علم مع إلزام كل من المفعولين مركزه، وذلك بأن يكون ما كان خبرا في

الأصل بعدما كان مبتدأ فلا يجوز في نحو : " علمت زيدا أباك" مع اللبس تقديم الثاني على الأول وهذا كما قلنا في نحو: ضرب موسى عيسى... فإذا لزم كل واحد مركزه لم يلتبس إذا قام مقام الفاعل وهو في مكانه ...(82)

كما يجب حفظ المراتب في باب أعطيت إذا التبست مخالفته نحو: " أعطيت زيداً أخاك" فإن لم تلتبس القرينة جاز العدول كقوله تعالى (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) [الجاثية /22](83)

ويمكن تتبع مظاهر اللبس وأثرها في حفظ المراتب في غير ما ذكرت من أبواب النحو المختلفة، فإذا كان صاحب الحال نكرة وجب تقديمها نحو: جاءني راكبا رجل ، لأنه يؤمن إذن التباس الحال بالوصف إذ الوصف لا يتقدم على الموصوف، وأما إذا تأخر نحو : جاءني رجل راكبا فقد يشتبه في حال انتصاب ذي الحال بالوصف نحو: رأيت رجلا راكبا. (84)

وكذلك إذا كانت " أن" مع صلتها مبتدأ وجب تقديم خبرها عليها، وإنما تعين تقديم الخبر لئلا يلتبس " بإنْ" المكسورة ، لأنك لو جئت بالخبر بعد خبر " أن" المفتوحة إما ظرفا نحو: أن زيدا قائم عندي أو غير ظرف نحو: أن زيدا قائم حق، لاشتبهت المفتوحة بالمكسورة و لم تدفع الفتحة الخفية اللبس، لكون الموقع موقع المكسورة، لأن لها صدر الكلام بخلاف المفتوحة.(85)

إن هذه النماذج التي استعنت بها -وغيرها كثير- تدل على فهم اللغويين العرب لهذه الظاهرة فهما دقيقا ومراعاتها في التحليل، فقد استقر عندهم أن الالتباس لا يسوغ بوجه من الوجوه لمخالفته الغاية من وضع اللغة " إذ يكفي من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق... ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع (86) فإن ذلك من شروط نجاح أي عملية تواصلية أو فشلها.

الهوامش

(1) الحيوان 201/5.
(2) الخواطر الحسان ص: 6.
(3) نظرية النحو العربي ، نهاد الموسى ص،87.
(4) اللغة والمعنى والسياق، جون لاينز ص،26.
(5) البيان والتبيين 87/1.
(6) نظرية تشومسكي اللغوية، جون لاينز ص، 120.
(7) اللغة العربية معناها ومبناها ص، 233، وينظر" اللغة بين المعيارية والوصفية" تمام حسان، ص،58.
(8) الخواطر الحسان ص، 16.
(9) الأصول ، ص 220-221.
(10) الأشباه والنظائر 339/1.
(11) المصدر السابق 341/1.
(12) المصدر السابق.
(13) الأشباه والنظائر 338/1.
(14) مغني اللبيب ص، 729 وما بعدها ، وينظر "نظرية النحو العربي" نهاد الموسى ص،74.
(15) الأصول ص، 148.
(16) النحو والنحاة ، أحمد عرفة ص، 114.
(17) الأشباه والنظائر 337/1.
(18) شرح الكافية الشافية 612/2.
(19) معاني القرآن، الفراء 28/1،إعراب القرآن للنحاس 215/1.
(20) البسيط 262/1، وقد تعقب ابن أبي الربيع ابن الطراوة وجعل رفع المفعول وإن فهم المعنى كالغلط.
(21) الجمل ، الزجاجي ص،203-204-205، وينظر الأبيات: الحلل لابن السيد ص، 97-98.البسيط 262/1 الأشباه والنظائر 337/1،وهي من شواهد الكتاب 145/1،المقتضب 430/2،النكت ص، 95-96.
(22) مغني اللبيب ص، 915.
(23) المصدر السابق ص، 917-918، شرح ابن عقيل 14/2، شرح الكافية الشافية 612/2.
(24) ينظر : نظرية النحو العربي، نهاد الموسى ص،25 والتفكير البلاغي عند العرب ص: 202 والضرورة الشعرية في النحو العربي، محمد حماسة ص، 218.
(25) الاقتضاء في التداول اللساني، عادل فاخوري ص، 114.
(26) بعض كلام بشر بن المعتمر، البيان والتبيين 138/1.
(27) ينظر : التفكير البلاغي عند العرب، حمادي صمود ص،516-517.
(28) أسرار البلاغة ص، 113.
(29) الأصول، تمام حسان ص، 148.
(30) الفوائد المشوق ص، 86.
(31) الصناعتين ص، 159.
(32) البيان والتبيين 138/1.
(33) التفكير البلاغي عند العرب ص، 107.
(34) الخواطر الحسان ص، 65.
(35) ينظ : شرح التصريح 170/1-171-172، الإشارات والتنبيهات، الجرجاني ص، 51 نهاية الإيجار، الرازي، ص،163.
(36) شرح التصريح 172/1-173، شرح الكافية الشافية 365/1.
(37) ينظر ، الحلل، ابن السيد ص، 151، التخمير275/1.
(38) الأشباه والنظائر 150/3-151.
(39) المصدر السابق 66/2.
(40) شرح التصريح 173/1، البسيط 590/1.
(41) ينظر ، بدائع الفوائد 188/1.
(42)النحو والدلالة، محمد حماسة ص، 140-141.

(43) ينظر: البيت في : الدلائل ص،373، وصدره، (شـــاهد منك أن ذاك كذاك).

(44) دلائل الإعجاز ص،373-374،شرح ابن غقيل 233/1.

(45) شرح التصريح173/1-174،وينظر:أوضـــح المســـالك 146/1.

(46) التبصرة 101/1، حاشية يس 171/1.

(47) الحلل ص، 151.

(48) الخواطر الحسان ص، 59.

(49) المطول ص، 117.

(50) نظام الجملة العربية، مصطفى جطل ص، 52.

(51) حاشية يس 173/1.

(52) الخواطر الحسان ص،123.

(53) الحلل ص، 147.

(54) البسيط 638/2.

(55) المصدر السابق 638/2.

(56) الخواطر الحسان ص، 59.

(57) الحلل ص، 97.

(58) الأشباه والنظائر 66/2.

(59) البسيط 279/1.

(60) اللغة العربية معناها ومبناها، تمـــام حســـان ص، 208، وينظر، النحو والدلالة ص، 141.

(61) ينظر: نهاية الإيجاز، مبحث: المتعين للتأخير ص:320.

(62) الخصائص 35/1.

(63) الحلل 35/1.

(64) البسيط 279/1.

(65) المصدر السابق 279/1.

(66) شرح الكافية 72/1، وينظر: اللغـــة العربيـــة معناهـــا ومبناها ص، 209.

(67) البسيط 279/2.

(68) ينظر، النحو والدلالة ص، 143.

(69) الخصائص 35/1.

(70) منهاج البلغاء، حازم القرطاجني ص، 179.

(71) إشكال الرتبة، الفاسي الفهري ص، 55-56، وينظر، في بناء الجملة العربية ص: 192.

(72) مواهب الفتاح 233/2.

(73) التبيان ، الزملكاني ص، 101.

(74) مختصر التفتازاني 226/2 و ما بعدها.

(75) ينظر مبحث الحصر المطول ص ،135.

(76) مواهب الفتاح 226/2.

(77) البرهان 233/3.

(78) الإيضاح ص، 208، المطول ص، 185.

(79) عروس الأفراح ص، 66-67.

(80) الخواطر الحسان ص، 66-67.

(81) البرهان 233/3-234،وينظر:عروس الأفـــراح 162/2-163-164،وينظر: نماذج أخرى ، نتـــائج الفكـــر ص، 330-331.

(82) شرح الكافية 83/1.

(83) المصدر السابق 84/1، وينظر: الكشاف 291/4.

(84) شرح الكافية 204/1.

(85) شرح الكافية 99/1.

(86) البيان والتبيين 87/1.

المثل وما يجري مجراه من الأشكال التعبيرية في كتب الأمثال القديمة عند العرب

د. سالم مرعي الهدروسي(*)

تمهيد:

تشكل الأمثال بنمطها اللغوي الشفاهي، العفوي الشعبي أبسط الأشكال الأدبية الفنية وأوجزها عند معظم الشعوب، وتعكس مشاعر الناس، وأفكارهم وتصوراتهم لحياتهم، وعاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم ، ومعظم مظاهر نشاطات حياتهم الأخرى، وتعبر عنها بصورة حية، تصدر عن مختلف مستويات الجماعات الإنسانية بكافة المعايير التصنيفية لمستويات البشر على اختلاف حضاراتهم [1] .

يضاف إلى ذلك ما تمتاز به الأمثال من سرعة سيرورتها على الألسن من جيل إلى جيل، وأحياناً من جماعة إلى جماعة أخرى مختلفة، وعبورها من لغة إلى أخرى، عبر الأزمان والأمكنة، وما لها من أثر السحر في التأثير على الناس وإقناعهم، رغم بساطة معانيها، وسذاجة صياغتها في معظم الأحيان[2].

ولما كان للأمثال هذه الأهمية، فإن الأمثال العربية تكاد تقابلنا في معظم مصادر التراث العربي، ككتب التفسير، والمعاجم اللغوية، وأمهات الأدب والمسامرات والأخلاق، وكتب اللغة والنحو، وكتب الحكمة والفلسفة والطباع، والتاريخ والسير، وكتب البلاغة والموسوعات الثقافية، إضافة إلى مصنفات الأمثال البحتة. وقد عني علماء الأدب واللغة والتفسير العرب منذ وقت مبكر بجمعها وتصنيفها وتبويبها وشرحها، وجعلوا منها مادة تأديبية وتعليمية وتربوية، وزينوا بها آدابهم ودعموا أقوالهم، وعللوا أفعالهم، بحيث بقيت تلك الأمثال والحكم حية في تراثهم الكتابي والشفاهي إلى يومنا هذا [3]. ولم تقتصر عنايتهم بالأمثال القديمة فحسب، بل قاموا في الفترات اللاحقة بتدوين الأمثال المحدثة (المولدة) وإضافتها إلى مواضعها من كتب الأمثال والأدب كما فعل الميداني (ت 518هـ)، مما يعكس مدى وعيهم بأهمية هذا الجنس الأدبي، الذي يمثل صفوة اللغة المحكية العفوية، وما يحويه من خبرة الحواس والشعور والعقل، فيجمع في ثناياه ما بين الحقيقة الفطرية، والمعرفة المكتسبة، مما يسعف في إضاءة بعض جوانب حضارة العرب وتطور فكرهم، ويكشف عن بعض جوانب فلسفة حياتهم الأولى البدائية، وثقافتهم الشفاهية وتطورها في المراحل اللاحقة[4].

(*) قسم اللغة العربية بجامعة اليرموك - الأردن

تأصيل لفظ المثل:

ورد لفظ المثل في معظم اللغات السامية، واشتق من جذر متقارب فيما بينها على النحو التالي: في العربية، مَثَل، في العبرية masal، في الآرامية Ma tla، في السريانية metala، وفي الحبشية mesl، وفي الأمهرية Masala و Messale، وفي الأكادية meslum، وفي الآشورية masala.

وتتضمن هذه الكلمة في جميع اللغات السامية معنى المماثلة والتشبيه، والموازنة والمقارنة، كما يؤكد أيسفيلد والفاخوري وعابدين، باستثناء اللغة العبرية التي دل فيها على السيادة والحكم إضافة إلى المماثلة(5).

غير أن اللغة العربية قد توسعت في مفهوم هذه الكلمة لغة واصطلاحا وأعطتها زخما دلاليا حافلا.

المثل في اللغة:

ذكر اللغويون للفظ المثل عدة معان يعنينا منها:-

1- الشبه، ويرى الراغب الأصفهاني (ت502هـ) أن المثل بهذا المعنى يشمل المشابهة في عدة أمور هي: الجوهر، والكيفية، والكمية، والقدر، والمساحة (6).

2- المثل، والنظير، والتسوية، والمشاكلة، والمماثلة، وذهب ابن منظور (ت711هـ) إلى أن مثل ومثل كلمتي تسوية بمعنى واحد، وفرق ابن العربي (ت638هـ) بينهما، ورأى أنهما متقاربتان في المعنى فالمثل "عبارة عن شبه المحسوس، والمثل عبارة عن شبه المعاني المعقولة" وأيده ابن أبي الإصبع (ت654هـ) والزركشي (ت794هـ) في ذلك (7).

3- الصفة، وذهب إلى ذلك أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ)، وأيده يونس بن حبيب (ت182هـ)، والثعالبي (ت429هـ) وبها فسر الأخير قوله تعالى: [مَثَل الجنة التي وُعد المتقون] ، وذهب إلى ذلك الزركشي (ت 794هـ) أيضاً (8).

4- العبرة، والحجة، والآية، والحديث، وهذه المعاني من غايات ضرب المَثَل ولوازمه، وليست من معانيه كما ذهب ابن منظور (ت711هـ)، والفيروزي أبادي (ت817)، وأبو البقاء الكفوي (ت1094هـ) (9).

5- المثال، والحذو، والشاهد، والانتصاب، فكل ما كان شاخصاً لأمر ما، كان مثلاً له، وعلما يعرف به، فكأنه ماثل بين اليدين، ومنتصب أمام العين(10). ويؤيد هذه المعاني الأصمعي (ت216هـ)، وابن السكيت (ت243هـ)، والمبرد (ت258هـ)،وابن رشيق (ت456هـ) وغيرهم (11)، وهذا المعنى يرجح اشتقاق لفظة المثل المادي الحسي، فيمكننا إرجاع معنى المادة حسياً إلى البروز والشخوص، وإذا قالوا مَثَل ومَثُل أي قام منتصباً،ويرى ذلك فلايشر (Fleischer)، وأمين الخولي (12)، ومصدر هذا الرأي ما نقله الميداني (ت518هـ) عن أحد العلماء قوله: " سُمّيت الحِكم القائم صدقُها في العقول أمثالاً لانتصاب صورها في العقول، مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب"(13). ويميل عابدين والصغير: إلى اشتقاق المثل من التماثل اعتماداً على قول الجوهري (ت398هـ) " مثلت له كذا تمثيلاً، إذا صورت له

مثاله بالكتابة وغيرها" [14]. وذلك من قبيل اشتقاق أسماء المعاني من أسماء الأعيان، لأنه يعيد إلى الأذهان معنى الشخوص والانتصاب، وبذلك يجمع المثل إلى معانيه المثال والمثول، والتصوير معاً [15].

المثل في الاصطلاح:

هناك اتجاهان رئيسيان في تحديد المراد من دلالة كلمة المَثَل في الاصطلاح عند الأدباء والنقاد والمفسرين القدماء؛ اتجاه أدبي تفسيري، يُعنَى بإبراز جوانب من خصائص المعنى المصطلح عليه، ويؤكد هذا الاتجاه على اعتبار المورد والمضرب، والغرابة (الندرة)، والسيرورة فيه، واتجاه بلاغي بتجاوز ذلك إلى الجوانب البلاغية والتصويرية في المَثَل.

الاتجاه الأدبي:

وقد ركز أصحاب هذا الاتجاه على السمات الأساسية التي تجعل من المَثَل جنساً أدبياً يتميز عن غيره من أجناس الأدب، كما اهتموا بمواضع استعماله.

وممن يمثل هذا الاتجاه كل من ابن السكيت (ت243هـ)، والمبرد (ت285هـ)، والزمخشري (ت538هـ)، والرازي (ت606هـ).

أما ابن السكيت (ت243هـ) فقد عرَّف المَثَل بقوله: " المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ" [16] فقد التفت في تعريفه إلى مضرب المثل، ومخالفة لفظه له، واتحادهما في المعنى.

أما المبرد (ت285هـ) فقد التفت في تعريفه المثل إلى وجه المشابهة بين الحالين، مع ملاحظة السيرورة، فقال: "هو قول سائل يُشبّه به حال الثاني بالأول والأصل فيه التشبيه،... فحقيقة المَثَل ما جعل كالعلم للتشبيه بحال الأول... فمواعيد عرقوب علم لكل ما لا يصح من المواعيد"[17]. ووافقه الرازي (ت606هـ) على ذلك بقوله: " المَثَل تشبيه سائر، وتفسير "السائر" أن يكثر استعماله على معنى أن الثاني بمنزلة الأول" [18].

واشترط الزمخشري (ت538 هـ) التمثيل بالمورد، وربط غرابة المثل وندرته بتداوله وقبوله وسيرورته، فقال: « ثم قيل للقول السائر الممُثل مضربه بمورده مثل، و لم يضربوا مثلاً، ولا رأوه أهلاً للتسيير، ولا جديراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه "[19]. أما الرازي (ت606هـ) فجمع بين رأيي المبرد (ت 285هـ) والزمخشري(ت 538هـ) معاً فيما يتعلق بندرة المثل وغرابته فقال: " قيل للقول السائر الممثّل مضربه بمورده مثل، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه " [20].

ويبدو أن السيرورة تعني ضمناً أن المثل في سيرورته بين الناس عبر أجيالهم وأزمانهم ومواطنهم أصبح تراثاً شعبيا، من نتاج جماعي عفوي، يصعب على الفرد أن يبدعه قصداً عن سابق نية وتصميم، فهو قول نطق به الكثير من الناس وصاغه أحدهم بصورة ذكية مؤثرة [21]، غير أن الثعالبي (ت 429هـ) يطالعنا بأمر غير مألوف في مجال الأمثال، فقد أصبح المثل عنده إبداعاً فردياً ممكناً، يستطيع الفرد أن ينتجه عن سابق تصور وقصد كما حاول هو نفسه أن يفعل في

كتابه (التمثيل والمحاضرة)، حيث يذكر في مقدمته قوله:" قد جمعنا من إنشائنا في كتابنا هذا ألفاظاً وجيزة، أجريناها مجرى الأمثال، وفصولاً قصيرة دللناها على مواقع الأعمال، وقصدنا فيما ألفناه من ذلك وجه الاختصار، وكنه الاقتصار، ليقل لفظه، ويسهل حفظه "[22]

أما ابن رشيق (ت 456هـ) فقد جعل صنعة الأمثال- على النحو الذي ذهب إليه الثعالبي - مقصورة على الأمثال الشعرية، وجاء بأمثلة لذلك من صنعه هو نفسه[23]

واشترط علماء الاتجاه الأدبي في المَثَل: عدم التغيير في الصيغة، أو التركيب، أو البناء، وأن يستعمل المثل على الحكاية، تماماً مثلما أرسل في مورده.

وأكد ذلك الفارابي (ت350هـ) في ديوان الأدب بقوله « المثل ما تراضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه، حتى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السراء والضراء، واستدروا به الممتنع من الدر، ووصلوا به إلى المطالب القصية، وتفرجوا به عن الكُرَب المكربة ، وهو أبلغ الحكمة؛ لأن الناس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة ، أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة "[24]، ففي هذا التعريف إبراز لمسألة ثبات الأمثال وتداولها ، وإمكانية التعبير بها عن أشياء ، لا يعبر عنها بطريق مباشر ، ويوضح أن المَثَل يعبر عن حاجة شخصية في ثوب إنساني عام، ثم يشير إلى ضرورة الاستحسان العام الذي تلقاه الأمثال بين الناس ، ويؤكد المرزوقي (ت 421 هـ)، ذلك بقوله في كتابه شرح الفصيح: " المثل جملة من القول ، مقتضبة من أصلها ، أو مرسلة بذاتها ، فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول ، فتنقل كما وردت فيه إلى كل ما يصح قصده بها ، من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوحيه الظاهر إلى أشباهه من المعاني ، فلذلك تضرب وإن جُهِلت أسبابها التي خرجت عنها"[25] ففي هذا التعريف توضيح لحقيقة المثل، فهو قول موجز يضرب في حالات مشابهة لمورده الأصلي وإن جهل أصله، ولا يُغَيَّر لفظه في أية حالة من حالات استعماله.ويؤكد أبو هلال العسكري(ت بعد395 هـ) هذه الخاصية في المثل بقوله أن الأمثال" تضرب على ما جاءت عليه عن العرب، ولا تغيّر صيغتها "[26]. ويبرر الطوسي (ت 460 هـ) ثبات الأمثال بقوله: " ومن حُكْم المَثَل أن لا يتغير لأنه صار كالعلم"[27] .

أما الرازي (ت 606 هـ) فيرى أن " الأمثال لا تغير، لأن ذكرها على تقدير أن يقال في الواقعة المعنية، إنها بمنزلة من قيل له هذا القول ، فالأمثال كلها حكايات لا تتغير"[28] . ويرى السيوطي (ت 911هـ) أن الأمثال لا تتغير بل تجري كما ضربت، ولا يستعمل فيها الإعراب[29]. وذهب إلى هذا الرأي في ثبات الأمثال على الحكاية واتسامه بالغرابة من المفسرين البيضاوي (ت 685 هـ) ، حيث يقول في تحديد معنى المثل "قيل للقول السائر الممثَل مضربه بمورده، ولا يضرب إلا ما فيه غرابة، ولذلك حُوفِظ

عليه من التغيير"[30] وأيده في ذلك أبو السعود (982هـ) .

فقد حدد هؤلاء العلماء أهم ركائز المثل في الاصطلاح الأدبي بإيجاز اللفظ، وكثافة الدلالة، والمضرب، والمورد، والثبات على الحكاية في استعماله وعدم تغييره، ثم السيرورة والانتشار بين الناس من جيل إلى جيل،ومن مكان إلى آخر، وأخيرا عزة المثل وغرابته وندرته .

فالمثل عندهم عبارة موجزة شائعة، مركزة الدلالة، تشي بمهارة الصنعة الأدبية، المتسمة بالخبرة والندرة أو الغرابة، ذات معنى حاد، يلتصق بظروف الناس، وحياتهم المتكررة[32] .

وقد أجمل ابن رشيق (ت456 هـ) هذه الصفات في حديثه عن المثلَ السائر بقوله ."المثل السائر في كلام العرب كثير نظماً ونثراً، وأفضله أوجزه،وأحكمه أصدقه، وقولهم:"مثل شرود وشارد" أي سائر لا يُردُّ، كالجمل الصعب الشارد الذي لا يكاد يعرض له ولا يرد، وزعم قوم أن الشرود ما لم يكن له نظير ، كالشاذ والنادر ،... وتأتي الأمثال الطوال المحكمة، إذ تولاّها الفصحاء من الناس" ويزيد في هذه السمات إمكان الإتيان بالأمثال الطوال المحكمة، وربَطَها بفصاحة قائلها وقدرته على إحكامها [33] .

وقد فسر ابن قيم الجوزية (ت 701 هـ) السيرورة بمعنى كثر الاستعمال "ومعنى السائر أنه كثر استعماله، واستعماله على أن الثاني بمعنى الأول"[34] .

ويشير أبو البقاء الكفوي (ت 1095هـ) إلى سيرورة المثل وانتشاره بين الناس من العامة والخاصة واستحسانهم له بقوله."والمثل بفتحتين ـ لغة ـ اسم لنوع من الكلام، وهو ما تراضاه العامة والخاصة، لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ ويستعمل في السراء والضراء،وهو أبلغ من الحكمة"[35] . وهو يعتمد في رأيه هذا على ما ذكره الفارابي(ت350 هـ) في هذا الشأن، دون الإشارة إليه، كما يلحظ تجنبه الإشارة إلى البعد المجازي في استخدام الأمثال والربط بينها وبين التشبيه التمثيلي أو الاستعارة .

وقال الحسن اليوسي (ت 1102هـ) في كتابه زهر الأكم ."اعلم أنه يقال مثلٌ سائر، سواء كان شعرا أو غيره، وهو من السير في الأرض، استعمل في ذهاب المثل وشيوعه في سماع الناس، ويقال أيضا مثل شارد وشرود... لأن المثل إذا شاع لا يستطاع رده ولا يمكن إخماده كما لا يستطيع رد الشرود من الإبل"[36].

ويبالغ ابن القيم الجوزية (ت 751هـ) في إفراد خاصية العقل للأمثال فيقول. "الأمثال شواهد المعنى المراد، وهي خاصيته ولبه وثمرته"[37] .

ويطالعنا القلقشندي (ت821هـ) برأي فيه طرافة وإضافة جديدة ويعتبر الأمثال رموزا وإشارات يلوح بها على المعاني تلويحا، ولها مقدمات وأسباب، وتختص ألفاظها بالاختصار والإيجاز[38].ويشترط ابن حجة الحموي (ت 837هـ)في المثل سمة الوعظ، وأن يحتوي على ما يحسن التمثيل به[39]. وأخيرا يرى التهانوي(ت ق 12 هـ) أن معنى المثل في الأصل هو

النظير، ثم نقل إلى القول السائر المتمثل مضربه بمورده ويقول."المثل في الأصل بمعنى النظير، ثم نقل منـــه إلى القول السائر – أي الفاشي – الممثل مضربه بمورده، والمراد بالمورد الحالة الأصلية التي ورد فيها، وبالمضرب الحالة المشابهة بها التي ورد فيها الكلام، وهـــو مـــن المجاز المركب، بل لفُشُوِّ استعمال المجاز المركب بكونه على سبيل الاستعارة سمي بالمثل"[40] .

وقد لاحظ الباحثون أهمية الصورة المجازيـــة في مدلولات المثل ، فربطوا بينها وبين بعض معاني اللفظ في اللغة، ورجحوا أن أصل المثل يرجع إلى معنى المجاز والتشبيه،كما أن التشبيه يعـــد عنصـــرا أساســـيا في تعريفات اللغويين العرب للمثل[41] .

إذن فقد بني المثل الاصطلاحي عند هؤلاء علـــى الركائز التالية: المورد، والمضرب والنقل على الحكاية وعدم التغيير في الرواية، والسيرورة، والغرابة،إضافـــة إلى الإيجاز، والتكثيف .

الاتجاه البلاغي .

ينظر أعلام هذا الاتجاه إلى المثل باعتباره حالـــة خاصة من حالات التمثيل،أي التشبيه أو الاســـتعارة، أخذ وجه الشبه فيها من أشياء متعددة ومختلفـــة،أي باعتباره جملة استعارية[42] .

فالمثل عند القزويـــني (ت 739هـــ) وشـــراح التلخيص هو التمثيل على سبيل الاستعارة، وقد يسمى التمثيل مطلقا قال: "ومتى فشا استعماله كذلك سمي مثلا، ولذلك لا تغير الأمثال"[43] .

ولعل أول من أشار إلى السمة البلاغية في المثـــل هو أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـــ)فقد وصف الأمثال في مقدمة كتابه بقوله" "هذا كتاب الأمثـــال، وهي حكمة العرب في الجاهلية والإسلام، وبها كانت تعارض كلامها، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق، بكناية غير تصريح، فيجتمع لها بذلك ثـــلاث خصال، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى وحسن التشـــبيه"[44]. فيشير إلى أن المثل حكمة ناتجة عـــن التجربـــة، ويرى أن التعبير بالمثل كناية بطريقة غـــير مباشـــرة، مشيرا إلى دلالته (الإيحائية)، ويقرب بذلـــك بـــين مصطلح المثل والمماثلة. والتعبير غير المباشر في المثـــل يصاغ غالبا في أسلوب التمثيل، وعد من سمات المثل ، إيجاز اللفظ، وكثافة المعنى وإصابته، ثـــم يشـــير إلى حسن التشبيه في المثل، وإلى الجانب التصويري الـــذي تظهر فيه أبرز عناصر المثل الجمالية . ومع أن أبا عبيد عد حسن التشبيه من سمات الأمثال التصويرية على ما يظهر من قصده، فقد ضم كتابه كثيرا من الأمثال غير التصويرية .

ووافقه على هذه السمات البلاغيـــة في المثـــل معاصره إبراهيم النظام (ت 231 هـــ) ، والذي عـــد المثل نهاية البلاغة، فقال ." يجتمع في المثل أربعـــة لا تجتمع في غيره من الكلام ، إيجاز اللفـــظ، وإصابـــة المعنى، وحسن التشبيه ، وجودة الكناية، فهو نهايـــة البلاغة"[45] . وقد نقل عنه ابن رشيق (ت 456 هـــ) هذا الرأي في العمدة في معرض حديثه عـــن تـــأصيل معنى لفظ المثل ،حيث يلتفت إلى جوانب جماليـــات المثل الأدبية والبلاغية، فيحصرها في ثلاث سمات، بعد

أن يبرز الجانب التربوي الوعظي في وظيفته، فيقول ."إنما سمي مثلا لأنه ماثل لخاطر الإنسان أبدا، يتأسى به، ويعظ، ويأمر ، ويزجر... وقال. بعضهم: في المثل ثلاث خلال، إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى،وحسن التشبيه"[46].

وذهب الفراء (ت 204هـ) وأبو عبيدة (ت209هـ)إلى أن المثل يراد به المثل بمعناه العام، أو يراد به التشبيه وما يتصل به من تمثيل [47]، كما استعمل الجاحظ (ت 255هـ) "المثل" بمعنى الاستعارة ، فقال في معرض حديثه عن قول الشاعر." هم ساعد الدهر الذي يتقى به "."قوله هم ساعد الدهر" إنما هو مثل ، وهذا الذي تسميه الرواة البديع" و"ساعد الدهر" في البيت استعارة أو تشبيه بليغ [48] .

ويؤكد ابن فارس (ت395هـ) ما في المثل من السمات المجازية القائمة على التشبيه والمماثلة والتورية، فيقول : " المثل، المثل...، والمثل المضروب مأخوذ من هذا ، لأنه يذكر مورّى به عن مثله في المعنى" [49].

وألمح الميداني (ت516هـ) إلى ما يتسم به المثل من التمثيل والتشبيه، بكلام مقتضب مزج فيه بين الملامح اللغوية والملامح البلاغية للمثل، فقال: " فالمثل ما يمثل به الشيء، أي يشبه... فصار المثل اسما مصرحا لهذا الذي يضرب، ثم يرد إلى أصله الذي كان له من الصفة"[50].

وظل المثل عند البلاغيين مرتبطا بالتشبيه، وما يتصل به من استعارة أو تمثيل، فقال الرازي (ت606هـ): "المثل تشبيه سائر"، وقال في موضع آخر: " المثل قول يشبه به حال الثاني بالأول"[51].

وقال الطوسي (ت460هـ) في حمل المثل على الاستعارة أو التشبيه البليغ، أو التمثيل، بقوله: " والتشبيه في الأمثال لما يحتاج إليه من البيان، هو على وجهين: أحدهما ما تظهر فيه أداة التشبيه، والآخر مالا تظهر فيه" [52].

وقد اعتنى هؤلاء العلماء بالمثل بوصفه تعبيرا للإيضاح والمشابهة- ولو من بعض الوجوه- بين الخفي والجلي، والمعنوي والمحسوس، ويبرز الراغب الأصفهاني (ت502هـ) سمة المشابهة بين مورد المثل ومضربه، فيقول : " المثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولا في آخر، بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره. نحو قولهم: الصيف ضيعت اللبن " فإن هذا القول يشبه قولك: " أهملت وقت الإمكان أمرك" [53].

ووصف الزمخشري (ت 538هـ) الأمثال بالفصاحة، والبلاغة، والمنطق ، والإيجاز المعبر، والتلويح المصرح، والكناية المفصحة، ونعتها بجوامع الكلم، ونوادر الحكم، مشيرا إلى أنها يتكلم بها كما هي، فقال يذكر الأمثال " هي قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها، وبلاغتها التي أعربت بها عن القرائح السليمة،... حيث أوجزت اللفظ فأشبعت المعنى، وقصرت العبارة فأطالت المغزى، ولوحت فأغرقت في التصريح، وكنت فأغنت عن

الإفصاح، بله الاستظهار بمكانها، والتمتع بجانبها عن الانتظام في سلك التذاكر" ثم يقول في ثبات نقل الأمثال على الحكاية وتفسير معنى التمثيل والمضرب" والأمثال يتكلم بها كما هي، فليس لك أن تطرح شيئا من علامات التأنيث... ولا أن تبدل اسم المخاطب...والتمثل تطلب المماثلة، والضرب البيان".

ثم يشير إلى علاقة المماثلة والمشابهة بين المورد والمضرب، فيقول: " سميت هذه الجملة من القول المقتضبة من وصلها أو المرسلة بذاتها، المتسمة بالقول، المشتهرة بالتداول، مثلا؛ لأن المحاضر بها يجعل موردها مثلا ونظيرا لمضربها" وهو بذلك يجمل أهم سمات المثل الأدبية والبيانية بإيجاز اللفظ، وكثافة المعنى، وندرة القول، وعزته وغرابته، وسيرورة المثل وشيوعه، وتداوله على الحكاية، ولوحظ علاقة المشابهة والمماثلة بين مورده ومضربه [54].

فقد ذهب الراغب الأصفهاني (ت502هـ) إلى أن " لضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء النظائر، شأن ليس بالخفي في إبراز خفيات الدقائق، ورفع الأستار عن الحقائق، تريك المتخيل في صورة المتحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والعائب كأنه مشاهد، وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة، وقمع لسورة الجامح الأبي، فإنه يؤثر في القلوب ما يؤثر وصف الشيء في نفسه "[55]وبسبب ذلك يعلل كثرة ورود الأمثال في القرآن وفي كلام الأنبياء والحكماء.

ويؤكد الرازي (ت606هـ) أثر الأمثال التصويري والإيضاحي في القلوب والعقول والحواس، فيقول: " إن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأن الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقا للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح" [56].

ويركز البيضاوي (ت685هـ) على الإيضاح الحسي للمثل عن المعنى الممثل به، بحيث يسهل تخيله أو تصديقه، فيقول: " فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له، ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس، ليساعد فيه الوهم العقل، ويصالحه عليه، فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم، لأن من طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة" [57].

وأكد ابن قيم الجوزية (ت751هـ) أن الأمثال تقوم على تشبيه الشيء بالشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس،أو أحد المحسوسين من الآخر، واعتبار أحدهما بالآخر، وأن وظيفة المثل البلاغية تقوم على إزالة اللبس وإشاعة الوضوح والإفهام [85].

وقد ذهب أبو حيان الأندلسي (ت754هـ) إلى أبعد من ذلك في جعله المثل نوعا من التشبيهات المعقدة بعيدة المغزى، تهدف إلى إيضاح المجهول بالمعلوم، والخفي بالجلي، فيكشف بذلك عن غرابة المعاني وغموضها، فيزيدها جلاء ووضوحا. إن المثل " ذكر وصف محسوس، وغير محسوس، يستدل به

على وصف مشابه له من بعض الوجوه، فيه نوع من الخفاء، ليصير في الذهن مساويا للأول في الظهور من وجه دون وجه" [59].

ويعتبره أبو البقاء الكفوي (ت 1095هـ) في كلياته نوعا من أنواع المجاز المرسل لتعريف الحقائق بألفاظ لم توضع لها في الأصل، فاستعملت للتعبير عنها في موارد الحاجة، فيقول"والمثل...اسم لنوع من الكلام، وهو ما تراضاه العامة والخاصة، لتعريف الشيء بغير ما وضع له من اللفظ، يستعمل في السراء والضراء" [60].

وقد مزج البلاغيون بين المثل والتمثيل، فقد مال عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) إلى توحيد مفهوم كلمتي المثل والتمثيل، لأنهما يدلان على معنى واحد، فيقول : " إن كل ما لا يصلح أن يسمى تمثيلا فلفظ المثل لا يستعمل فيه" [61]. فهو يعتبر المثل والتمثيل شيئا واحدا منتزعا من مجموعة تشبيهات عالقة بمواضع متعددة، وبضم بعضها إلى بعض يحدث تشبيه مركب، من خلال امتزاج عدة صور في إحداث صورة واحدة، فيكون سبيل الشيئين يمزجان، فيكونان حقيقة تمثيلية موحدة، لا تدرك بانفصالهما، لأنها تحصل من توافر عدة جمل وعبارات، فيقول " إن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو الأولي بأن يسمى تمثيلا، لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح، ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام، أو جملتين، أو أكثر" [62]. وكأن الجرجاني يجعل المثل يختلط بالتمثيل بصورة يصعب التفريق بينهما. وممن ذهبوا إلى هذا الرأي في تطابق مصطلحي التمثيل والمثل أبو البقاء الكفوي، حيث يقول : " ويسمى الكلام الدائر في الناس للتمثيل مثلا ؛ لقصدهم إقامة ذلك مقام غيره" [63].

ويفرق الجرجاني (ت471هـ) بين التشبيه والتمثيل الذي هو المثل، من حيث إن التمثيل تشبيه في الأصل، غير أن تشبيه شيء بشيء آخر يكون عنده على ضربين" أحدهما أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأول، والآخر أن يكون المثل متصلا، بضرب من التأول" [64] فما حصل بلا تأول أو تخيل فهو التشبيه عنده ومعنى ذلك أن الشبه موجود في المشبه به في وضوح وإبانة دون ضم شيء آخر إليه، وكان الشبه نتيجة لامتزاج صورة بصورة واحدة أو بصورة متعددة، ولتداخل معنى بمعنى، أو بمعان متعددة، يكون في ضمهما وجمعهما حصول الشبه المراد مركبا في المشبه والمشبه به، ولا يحصل ذلك إلا بضرب من التأول والتخيل، فالكلام تمثيل، وهو لديه المثل، وهنا يتجلى معنى قوله: " فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلا" [65].

وقد جارى العلوي (ت749هـ) الجرجاني (ت471هـ) في مزج مفهوم المثل بالتمثيل، والتفريق بين التمثيل والتشبيه، فقال:"وإنما تقع التفرقة من جهة أن الوجه الجامع إن كان متفرعا من عدة أمور فهو التمثيل، وإن كان مأخوذا من أمر واحد فهو الاستعارة" [66] غير أن التشبيه عند الجرجاني (ت471هـ) يقابل الاستعارة عند العلوي

(ت749هـ).

وأيد القزويني (ت739هـ) والتفتازاني (ت793هـ) وغيرهما من شراح التلخيص الجرجاني (471هـ) فيما رآه، فالمثل عندهم هو التمثيل على سبيل الاستعارة، وقد يسمى التمثيل مطلقا، قال القزويني (ت739هـ) " ومتى فشا استعماله كذلك سمي مثلا، ولذلك لا تغير الأمثال" (67).

أما الحسن اليوسي (ت 1102هـ) فيرى أن " المثل هو قول يرد أولا لسبب خاص، ثم يتعداه إلى أشباهه، فيستعمل فيها شائعا على وجه تشبيهها بالمورد الأول، غير أن الاستعمال على وجهين: أحدهما أن يكون على وجه التشبيه الصريح... كقولهم كمجير أم عامر... والثاني أن لا يكون على وجه التشبيه الصريح كقولهم:الصيف ضيعت اللبن... ونحو ذلك، وهو أكثر من الأول" (68).

ويذهب إلى هذا الرأي من المحدثين رودلف زلهايم، الذي يعتمد على التفتازاني (ت793هـ) في تحديد معنى المثل عند البلاغيين، فيقول: " أما البلاغيون... فإن المثل عندهم حالة خاصة من حالات التمثيل، وهو تشبيه أو استعارة، أخذ وجه الشبه فيها من أشياء مختلفة، أي أنه بعبارة أخرى جملة استعارة، فإذا شاع مثل هذا التمثيل على الألسنة، سمي مثلا"(69).

ويرى منير القاضي، أنّ المثل استعارة تمثيلية مبنية على التشبيه المركب، أي تشبيه الصورة المنتزعة من حالة المشبه بالصورة المنتزعة من الحالة التي كان عليها المشبه به. فيقول: " المثل في مصطلح الأدب: هو القول السائر الممثل بمضربه ، أي المشبه حالة مضربه، بحالة مورده. أي الحالة التي كان قد ورد فيها القول، فهو استعارة تمثيلية، مبنية على التشبيه المركب" (70).

وأما ابن رشيق (ت456هـ) فيكتفي بجعل المثل كالتمثيل والاستعارة شكلا من أشكال التشبيه، تفترق عن التشبيه بالأداة والأسلوب، فيقول: " والتمثيل والاستعارة من التشبيه، إلا أنهما بغير أداته، وعلى غير أسلوبه والمثل المضروب... راجع إلى ما ذكرته... وتسمية المثل دالة على ما قلته، لأن المثل والمثل الشبيه والنظير" (71).

ومن جهة أخرى فقد ألمح كل من أبي عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ)، والنظام (ت231هـ) في تعريفهما للمثل أن المثل نوع من الكناية غير الصريحة، كان العرب يعارضون بها كلامهم (72).

وهذا يقرب بين مفهوم المثل والمماثلة، وهي ضرب من الاستعارة، أطلق عليه قدامة ابن جعفر (ت337هـ) المماثلة، وعرفها بقوله: " وذلك أن يقصد الإشارة إلى معنى، فيضع ألفاظا تدل عليه، وذلك المعنى بألفاظه، مثال للمعنى الذي قصد الإشارة إليه"(73). وهي ضرب من المجاز يقع بين الكناية والاستعارة التمثيلية أو التشبيه التمثيلي، ولا صلة بين المفهومين من ناحية الدلالة الاصطلاحية أو البلاغية.

ويجتمع أصحاب الاتجاهين على السمات التالية في مفهوم المثل:

1- إيجاز العبارة، وتكثيف المعنى، إضافة إلى الندرة والغرابة.

2- المورد ويمثل إصابة الدلالة في تصوير جانب من خبرات الحياة الواقعية أو المتخيلة المتكررة الحدوث.

3- المضرب، ويتجلى من خلال وجود علاقة المشابهة القائمة على الاستعارة أو الكناية أو التشبيه بين حالة المورد وحالة المضرب، من خلال إسقاط تجربة سابقة على تجربة لاحقة.

4- السيرورة والتداول بين الناس باعتبار المثل فناً شعبياً وجماعياً تتناقله الألسن عبر الأزمان والأمكنة.

5- الثبات في صياغته وعدم تغيير لفظه الموضوع له، ونقله على الحكاية كما أرسل عند المورد.

6-علاقة المشابهة أو التمثيل بين المورد والمضرب.

ولا أظن أن أحدا من الباحثين المحدثين والمعاصرين العرب قد أتى بشيء جديد على ما أسلفناه في مفهوم المثل [74].

أدبية الأمثال والعناية بها في النثر العربي القديم:

أشار العديد من علماء الأمثال القدماء، والباحثين المحدثين إلى أن الأمثال نوع أدبي قائم بذاته سواء ما جاء منها منثورا أو منظوما، له عناصره المميزة، وسماته المحددة التي أسلفناها في تعريفاته.

والمثل في الأصل نمط شفاهي من أنماط الأدب، وهو تراث شعبي لا يعرف قائله على وجه التحديد، رغم أن كتب الأمثال العربية قد عزت أعدادا منها إلى أشخاص ذوي مكانة دينية أو اجتماعية أو سياسية أو فكرية، فإذا ما استثنينا أمثال القرآن، وأمثال الحديث النبوي الشريف، والأمثال الشعرية، وبعض الحكم، وربما بعض أمثال الكتاب المقدس، فما عدا ذلك من الأمثال فقد نشأت عن لا وعي شعبي وبطريق الصدفة غالبا، ثم طارت بها الألسن عبر الأجيال، حتى دونت في كتب الأمثال والأدب، ولا شك أنها بقيت تتداول مشافهة خارج إطار التوثيق الكتابي، عرضة للتحوير والتبديل في شكلها، وإن ظلت إلى حد ما محافظة على ما عبرت عنه من هموم الإنسان وتجاربه بصوت جمعي شعبي. ولا أظن أننا نحتاج إلى معرفة قائلها الأول لنتداولها ونستشهد بها، ويبدو أن بعض من نسبت لهم هذه الأمثال كانوا ممن يحفظونها، أو يحسنون الاستشهاد بها في كلامهم، وليسوا هم الذين أرسلوها أصلا. فالمثل بطبيعته لا يتطلب علماً، ولا خيالا واسعا، ولا تفكيرا عميقا، وإنما مصادفة التقاء تعبير موجز بليغ، بتجربة حية، في شأن من شؤون الحياة المتكررة، أو إحدى خبراتها [75].

وقد خلط طه حسين في تحامله على النثر الجاهلي بين المستوى الشفاهي للمثل، ومستواه الكتابي، فقال: " والأمثال بطبيعتها أدب شعبي مضطرب متطور، يصح أن يؤخذ مقياسا لدرس اللغة، ومقياسا لدرس الجملة القصيرة، كيف تتكون، ومقياسا لنوع خاص للعبث بالألفاظ والمعاني" [76]. فقد انطلق طه حسين في حكمه هذا من خلال ربطه نشوء النثر

الفني بانتشار الكتابة والتدوين من ناحية، ومن ناحية أخرى حكم على النثر الفني بمقدار اقترابه من الصناعة القائمة على الزخرفة المعتمدة لذاتها فدمج بين مفهوم الفنية الأدبية والتصنع المتكلف، وكأنه يحصر الإبداع الفني في الفرد المبدع، ويستبعد إمكان الإبداع الجماعي العفوي الذي تقوم عليه الأمثال في الغالب.

ويشير ابن المقفع (ت143هـ) إلى قيمة المثل الأدبية وجمالياته التعبيرية والبلاغية عامة، فيقول: " إذا جعل الكلام مثلا، كان أوضح للمنطق، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث" (77).

وقد أيده أبو الحسين بن وهب الكاتب في ذلك، مؤكدا ما للمثل من سمات بيانية، جعلت منه مادة محببة لدى الناس عامة، ولدى الحكماء والعلماء خاصة، فتوسل الناس باستخدامهم الأمثال في تعبيرهم ليبينوا لبعضهم تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه فقال: " فأما الحكماء والأدباء فلا يزالون يضربون الأمثال، ويبينون للناس تصرف الأحوال، بالنظائر والأشباه والأشكال؛ ويرون هذا النوع من القول أنجح مطلبا، وأقرب مذهبا... فلذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم ونطقت ببعضه على ألسن الوحش والطير "(78).

ويشير ابن عبد ربه (ت327هـ) إلى تمايز الأمثال بين الأنواع الأدبية الأخرى، فيصفها بأنها " وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحلي المعاني، تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان، وعلى كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء مسيرها، ولا عم عمومها، حتى قيل أَسْيَرَ من مثل" (79).

وقد وسع ابن عبد ربه (ت327هـ) من مدلول كلمة المثل حتى شملت عنده معظم أنواع جوامع الكلم، والنوادر، والأقوال السائرة.

أما حمزة الأصفهاني (ت351هـ) فيلمح إلى تداخل هذا الفن الأدبي مع الأجناس الأدبية الأخرى، وتغلغله فيها، بحيث أصبح مما يمدح به مبدعو هذه الفنون تضمينهم له فيها، فيرى أن الأمثال فن قولي يتسم بالفصاحة والبلاغة، يجري " على ألسنة الفصحاء، ويختلط بخطاب البلغاء، ويدخل في نوادر الأدباء، وبدائع الشعراء"(80).

وربما كان أبو هلال العسكري (ت395هـ) خير من بيّن أهمية الأمثال، ومواطن الحاجة إليها، وقيمتها الفنية والموضوعية، وإبراز أهم سماتها، وتقييم أثرها في نفوس الناس، فيقول: " إني ما رأيت حاجة الشريف إلى شيء من أدب اللسان بعد سلامته من اللحن، كحاجته إلى الشاهد، والمثل، والشذرة، والكلمة السائرة، فإن ذلك يزيد المنطق تفخيما، ويكسبه قبولا، ويجعل له قدرا في النفوس، وحلاوة في الصدور، ويدعو القلوب إلى وعيه، ويبعثها على حفظه، ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة، والاستظهار به أوان المجادلة في ميادين المجادلة، والمصاولة في حلبات المقاولة، وإنما هو في الكلام كالتفصيل في العقد، والتنوير في الروض، والتسهيم في

البرد، فينبغي أن يستكثر من أنواعه، لأن الإقلال منها كاسمه إقلال، والتقصير في التماسه قصور، وما كان منه مثلا سائرا فمعرفته ألزم" [81].

أما ابن رشيق (ت456هـ) فيجعل الأمثال صنفا من أصناف الشعر فيقول: " جميع أصناف الشعر أربعة: المدح، والهجاء والحكمة، واللهو، ثم يتفرع عن كل صنف من ذلك فنون... يكون من الحكمة الأمثال، والتزهيد، والواعظ..."[82].

أما الثعالبي (ت429هـ) فيطالعنا بأمر جديد كل الجدة في ميدان الأمثال، فقد نقله من الشعبية العفوية والنتاج الجماعي، إلى علم إبداعي فردي، يقصد إليه الفرد عن سابق تصور ونية، وهذا أمر غير مألوف في نشأة الأمثال، فيقول في كتابه التمثيل والمحاضرة" قد جمعنا من إنشائنا في كتابنا هذا ألفاظا وجيزة أجريناها مجرى الأمثال، وفصولا قصيرة دللناها على مواقع الأعمال، وقصدنا فيما ألفناه من ذلك وجه الاختصار،وكنه الاقتصار،ليقلّ لفظه، ويسهل حفظه"[83].

أما الزمخشري (ت538هـ) فبعد أن وصف الأمثال بالفصاحة، والبلاغة، والمنطق والإيجاز المعبر، والتلويح المصرح، والكناية المفصحة، يقوم بتصنيفها في جوامع الكلم، ونوادر الحكم.[84]

ولأهمية هذه الأمثال، فقد عني العلماء المسلمون بجمعها، وتدوينها، وتفسيرها، ونسبتها إلى قائل ما ، وإيراد القصص والأخبار التي تعين على فهمها، منذ فترة مبكرة، حيث شكلت هذه العناية بالأمثال بداية حركة جمع اللغة وتدوينها، فرويت الأمثال ضمن أيام العرب، وأشعارها، وأخبار فرسانها، وأجوادها، وعقدت لها مجالس العلم والدرس، وتنولت بالشرح، والتفسير، لبعد العهد ما بين مضربها وموردها، وشكلت مادة تأديبية خصبة، كما تبوأت مكانا مرموقا في أدب المسامرة منذ بداية العصر الأموي، فجمعت بين الوعظ والتهذيب، والمتعة، كما جمعت بين الخيال الشعبي، والأخبار الحقيقية، مما شكلت مادة أدبية محببة للنفوس [85].

ويروى أن أول من عني بجمع الأمثال والقصص المتعلقة بها عبيد بن شرية الجرهمي (ت حوالي 67هـ)، وقد وضع فيها كتابا لمعاوية بن أبي سفيان (ت60هـ)، وقد ذكر عبيد في قصص الأمثال كثيرا عن المتأخرين من جماع الأمثال [86]، وعاصره مؤلف آخر هو صحار بن عياش (أو عباس) العبدي (ت حوالي 50هـ)، عاش زمن معاوية[87] ، وعلاقة بن كريم (أو كرسم) الكلابي (ت حوالي 65هـ) كتب ليزيد بن معاوية (ت64هـ)[88]، ويبدو أن هؤلاء الثلاثة كانوا مصدر معظم القصص والأساطير التي ألحقت بالأمثال فيما بعد [89]. وتظهر صورة شاملة لكتب هؤلاء المؤلفين في كتاب الأمثال للمفضل الضبي (ت170هـ)، حيث تظهر فيه روح الراوية الأديب الذي يهتم بالقصص والأحاديث والنوادر والخرافات والأساطير المسلية، التي تنتهي بعبارة مأثورة، أو قول سائر، على لسان أحد أبطالها، فتصبح هذه العبارة بعد ذلك مثلا، وتصدر بعبارات

كاشفة، مثل: " فأرسلها مثلا"، أو "فذهب مثلا"، أو "فذهب قوله مثلا"، أو " فصار مثلا" وما شابه ذلك[90].

وجاءت بعد هؤلاء طبقة ممن اتسع لهم باع التأليف في الأمثال، وهم أبو عمرو بن العلاء (ت154هـ)، والمفضل بن محمد الضبي (ت170هـ)، وأبو فيد مؤرج بن عمرو السدوسي (ت193هـ) وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت210هـ)، والأصمعي عبد الملك بن قريب (ت213هـ)، وأبو زيد الأنصاري(ت210هـ).

وقد انتقلت معظم قصص الأمثال التي جمعها المفضل الضبي (ت180هـ) إلى مؤلفات من تلاه من الكوفيين والبصريين، وأضيفت إليها قصص أخرى من رواية أو صنع الوليد بن الحسين الكلبي، المعروف بالشرقي بن القطامي (ت158هـ) مؤدب المهدي (ت 169هـ)، وكذلك من رواية هشام بن السائب الكلبي (ت 204هـ)، وعوانة بن الحكم (ت 147هـ)، وظلت قصصهم تروى في كتاب الأمثال حتى عصر الميداني[91]. و لم يأت أحد بجديد يذكر في قصص الأمثال بعد ذلك، سوى المفضل بن سلمة (ت295هـ)في القرن الثالث، في كتابه "الفاخر"، وقد اعتمد على من سبقه في الأمثال وقصصها، ككتاب المفضل الضبي (ت170هـ)، و روايات ابن الكلبي (ت204هـ)، وكتاب الأمثال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ)، والذي يعد كتابه توسيعا لطبيعة المثل، وتجديدا في تقسيم الأمثال بحسب الموضوعات، وغالبا ما تكمن قيمة الحكايات الملحقة بالأمثال في تفسير بعض الأمثال الغامضة، وإضافة بعض الإيضاحات اللغوية فحسب، ولا تفيد القارئ أو السامع كثيرا في أصل الأسماء أو طبيعة الأحداث التي توردها أو تعالجها هذه الأمثال في كثير من الأحيان.

واعتبر معظم دارسي الأمثال العربية هذه الأخبار موضوعة، ومما يدل على ذلك، تعدد الحكايات التي توضح المثل الواحد، واختلافها مثل الحكايات الملحقة بالمثل(وافق شن طبقة)[92]، أو انبثاق عدد وفير من الأمثال والأقوال السائرة من حكاية واحدة، تنوف على العشرين مثلا في حكاية المثل(خطب يسير في خطب كبير)[93].

وهذا يحملنا على القول إن هؤلاء الرواة عنوا بسرد الأخبار؛ لتوفير أكبر قدر من عناصر التشويق، والمتعة، والتأثير في سامعيهم، أكثر من عنايتهم بتدقيق الأعلام،والتثبت من صحة الأخبار، على أن معظم كتب الأمثال التي تلت ذلك رتبت مادتها من الأمثال على حروف المعجم، مقسمة على ثمانية وعشرين بابا. وفي العادة فإن المثل يسبق قصته زمنيا وفنيا، ولكن في كثير من الحالات تسبق القصة من الناحية الفنية المثل، لأن الأمثال في هذه الحالة تحتوي على مغزى القصة، وتشرح موقفا معينا فيها، ولا يفهم إلا في سياق القصة كما نلحظ في أمثال المفضل الضبي (ت170هـ)[95].وجرت العادة أن يرتب المؤلفون أمثالهم حسب الموضوعات،كما فعل أبو عبيد القاسم بن سلام (ت224هـ)، وحمزة الأصفهاني (351هـ)،

والثعالبي(429هـ)، أو يرتبونها حسب حروف المعجم على ثمانية وعشرين بابا، كما فعل أبو هلال العسكري (ت395هـ)، والزمخشري (ت537هـ)، والميداني (ت518هـ) ويعتبر مجمع الأمثال للميداني أكبر مصدر في الأمثال وحكاياتها، حيث تضمن أكثر الأمثال العربية وقصصها في المصادر التي سبقته، كما قام الميداني(ت516هـ) بجمع قدر وفير من الأمثال المولدة، وألحقها بأبواب هذا السفر القيم،حيث اشتمل على خمسة آلاف وثمانين مثلا قديما، إضافة إلى ألف مثل من أمثال المولدين(*).

الهوامش

1) انظر زلهايم: الأمثال العربية القديمة 7-13، وشوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر 16، وعفيف عبد الرحمن: الأمثال العربية القديمة 12-13، ومحمد أبو علي : الأمثال العربية7 .

2- See,Hulme. Proverb Lore P.6, Sellheim: Mathal in E12, Vol. VI, pp.815-821.

3-وانظر عفيف عبد الرحمن:الأمثال العربيةالقديمة 13و
Sellheim: Mathal: in E12, Vol.VI,pp.821-824.

4- انظر زلهايم: الأمثال العربية القديمة 42، وعبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم 174-192، وحاكلين بياتي: المثل جنساً أدبياً 280-298.

5- انظر عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم 4-6، وزلهايم: الأمثال العربية القديمة 21، ومحمد الصغير: الصورة الفنية 41، و

Sellheim: Mathal, in E12,Vol. VI, P.815 ff,
O. Eissfeldt: Der Maschal. S. 33,40 ff.

6- انظر الراغب الأصفاهي: المفردات 462، وابن منظور : اللسان (مثل) 610/11.

7- انظر ابن منظور: اللسان (مثل) 610/11-615، والزركشي: البرهان 490/1، وابن أبي الإصبع: بديع القرآن 58.

8- انظر ابن منظور: اللسان (مثل) 611/11-612، والأزهري، التهذيب (مثل) 96/15 * محمد 15.

9- انظر ابن منظور: اللسان (مثل) 612/11، والفيروز آبادي: القاموس (مثل) 49/4، والأزهري: التهذيب (مثل) 95/15، وأبو البقاء الكفوي: الكليات 269/4.

10- انظر ابن منظور: اللسان (مثل) 611/11،613، والجوهري: الصحاح (مثل) 1816/5.

11- انظر الأصمعي: الأضداد31، والمبرد: المقتضب 225/3، والميداني: مجمع الأمثال 6/1، وابن رشيق: العمدة 280/1، و
12- Fleischer: Kleine Schriften, Vol. I,S. 59.
وانظر زلهايم: الأمثال العربية القديمة 22، وأمين الخولي: الأمثال في القرآن (مخطوط)، ومحمد الصغير: الصورة الفنية 50، وسالم الهدروسي: المثل ومفهومه عند اللغويين (بحث مقبول للنشر في مجلة اللسان العربي).

13- الميداني:مجمع ال/ثال 6/1، والنويري : نهاية الأرب 2/3.

14- الجوهري: الصحاح(مثل) 1816/5، وانظر عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم 1-7، ومحمد الصغير: الصورة الفنية 50-51.

15- انظر سالم الهدروسي: المثل ومفهومه عند اللغويين

(*) بقية البحث في العدد القادم

(مقبول للنشر في مجلة اللسان العربي)، ومحمد الصغير: الصورة الفنية 50-51، ومحمد الفياض: الأمثال في القرآن 48-51.

16- الميداني: مجمع 5/1.

17- الميداني: مجمع الأمثال 5/1-6، والمثل في الميداني: مجمع الأمثال 311/2، والبكري: فصل المقال 113، والزمخشري: المستقصى 107/1-108.

18- الرازي : نهاية الإيجار 81، وانظر أحمد مطلوب: معجم النقد 48/2.

19- الزمخشري: الكشاف 195/1.

20- الرازي : مفاتيح الغيب م1/ج362/2.

21- HULME: Proverb Lore p.6.

22- الثعالبي: التمثيل والمحاضرة 3-4.

23- ابن رشيق : العمدة 284/1،285.

24- الفارابي : ديوان الأدب 74/1.

25- السيوطي : المزهر 486/1.

26- أبو هلال العسكري: الجمهرة 7/1.

27- الطوسي : التبيان 341/7.

28- الرازي: نهاية الإيجاز 81.

29- السيوطي : المزهر 486/1.

30- انظر البيضاوي : أنوار التنزيل 3/1.

31- انظر أبو السعود: إرشاد العقل السليم 50/1.

32- انظر عبد المجيد عابدين: الأمثال في النثر العربي القديم 8.

33- ابن رشيق: العمدة 280/1-281، وانظر أحمد مطلوب: معجم النقد 249/2.

34- ابن قيم الجوزية : الفوائد 66.

35-أبو البقاء الكفوي: الكليات 343/4، وانظر الفارابي: ديوان الأدب 74/1.

36- الحسن اليوسي: زهر الأكم 56/1.

37- ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين 291/1.

38- القلقشندي:صبح الأعشى 295/1-296.

39- ابن حجة الحموي: خزانة الأدب 102.

40- التهاوني : كشاف اصطلاحات الفنون 1340/4.

41- انظر السيوطي: المزهر 486/1، وعبد المجيد عابدين: المثل في النثر العربي القديم 16.

42- زلهايم: الأمثال العربية القديمة 26.

43- القزويني: الإيضاح 307، وللمؤلف نفسه: التلخيص: 324، وشروح التلخيص 147/4، وانظر أحمد مطلوب: معجم النقد 248/2.

44- أبو عبيد بن سلام : كتاب الأمثال 34.

45- الميداني: مجمع الأمثال 6/1.

46- ابن رشيق: العمدة 280/1.

47- انظر الفراء: معاني القرآن 69/3 وأبو عبيدة:مجاز القرآن 359/1.

48- الجاحظ : البيان والتبيين 55/4.

49- ابن فارس: مقاييس اللغة 296/5.

50- الميداني : مجمع الأمثال 6/1.

51- الرازي: نهاية الإيجاز81، وللمؤلف نفسه: مفاتيح الغيب م6 /ج237/17.

52- الطوسي: التبيان 293/6.

53- الراغب الأصفهاني: المفردات 462، والمثل في الميداني: مجمع الأمثال 68/2.

54- الزمخشري : المستقصى 1/ب-ج،هـ.

55- السيوطي : الاتقان 39/4.

56- الرازي: مفاتيح الغيب م1/ ج312/1.

57- البيضاوي: أنوار التنزيل 39/1.

58- انظر ابن قيم الجوزية: أمثال القرآن 173.

59- أبو حيان الأندلسي: البحر المحيط 74/1.

60- أبو البقاء الكفوي: الكليات 268/4.

61- عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة 87.

62- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة 96.

63- أبو البقاء الكفوي: الكليات 269/4.

64- عبد القاهر الجرجاني: أسرار البلاغة، 80-81.

65- عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة 84.

66- العلوي : الطراز 344/3-345.

67- القزويني: الإيضاح 307، والتفتازاني: المطول على التلخيص 380.

68- الحسن اليوسي: زهر الأكم 21/1.

69- زلهايم: الأمثال العربية القديمة 26، وانظر التفتازاني : المطول على التلخيص 380.

70- منير القاضي: الأمثال في القرآن 3.

71- ابن رشيق: العمدة 280/1.

72- انظرالميداني:مجمع الأمثال 6/1، وزلهايم الأمثال العربية القديمة 23.

73- الباقلاني: إعجاز القرآن 119.

74- انظر على سبيل المثال زلهايم: الأمثال العربية القديمة 27، وعفيف عبد الرحمن: الأمثال العربية القديمة 41، وممدوح حقي: المثال المقارن 19، ومحمد أبو صوفة: الأمثال العربية 17، وحنا فاخوري: الحكم والأمثال 8-9، و
Sellheim, Mathal, in E12, Vol.VI.815.

75- زلهايم: الأمثال العربية القديمة21-35.

76- طه حسين: في الأدب الجاهلي 331.

77- ابن المقفع: الأدب الصغير 326.

78- ابن وهب الكاتب: البرهان 145-146.

79- ابن عبد ربه: العقد63/3.

80- حمزة الأصفهاني: الدرة الفاخرة 55.

81- أبو هلال العسكري: جمهرة الأمثال4/1،8

* التفصيل: أن يجعل بين كل لؤلؤتين في العقد خرزة.

82- ابن رشيق : العمدة 101/1.

83- الثعالبي: التمثيل والمحاضرة 3-4.

84- الزمخشري: المستقصى 1/ب-ج.

85- انظر زلهايم: الأمثال العربية القديمة 71-114، وعبد المجيد قطامش: الأمثال العربية القديمة 39-122.

86- انظر النديم: الفهرست 102، وياقوت معجم الأدباء 78/12، وأبو عبيد البكري: فصل المقال 64،75،93،177.

87- انظر ابن النديم : الفهرست 102، أبو عبيد البكري: فصل المقال 308.

88- انظر ابن النديم : الفهرست 102، وياقوت: معجم الأدباء 190/12.

89- انظر زلهايم: الأمثال العربية القديمة 52، وأبو عبيد البكري، فصل المثال 7.

90- انظر زلهايم: الأمثال العربية القديمة 54،55،72،73، وقطامش: الأمثال العربية 48-52.

91- انظر زلهايم: الأمثال العربية القديمة 53-54، قطامش: الأمثال العربية 72-77، وابن النديم: الفهرست 75،102،103،108، والسيوطي: بغية الوعاة 296/2.

92- الميداني: مجمع الأمثال 359/2.

93- الميداني: مجمع الأمثال 233/1.

94- زلهايم: الأمثال العربية القديمة 70،71،77.

95- انظر الثعالبي: التمثيل والمحاضرة، والزمخشري: المستقصى 1/ب-ج.

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
مكتب تنسيق التعريب

سلسلة المعاجم الموحدة
رقم : ٧

المعجم الموحد

لمصطلحات الآثار والتاريخ

(انجليزي - فرنسي - عربي)

١٩٩٣

القبائل الستّ والتقعيد النحوي

د. خليل أحمد عمايره(*)

لعل مما لا يحتاج إلى إطالة البحث والتنقيب الحديث عن النشأة الأولى للنحو العربي، فقد أطال الحديث فيه بعد التنقيب نفر من الباحثين الجادين في القديم والحديث، وجمعوا كثيراً من القصص التي تناثرت في بطون كتب التراث بعد أن راج سماعها وكثر تناقلها بين العامة والخاصة في القرون المتوالية [1] من القرن الثاني للهجرة إلى يوم الناس هذا؛ فقد استقر الأمر عندهم، أو عند جُلّهم، على أن اللحن قد انتشر في ألسنة المتكلمين بالعربية بعد أن كثر اختلاط العرب بغير العرب أو بالعرب الذين كان لهم اختلاط بالأعاجم على أطراف شبه الجزيرة العربية من فرس أو روم أو أحباش أو أقباط ...إلخ، وبعد أن أصبحت للعرب دولة يحرصون على لغتها وبخاصة أن تلك اللغة هي لغة فكرهم ودستورهم في الحياة، فكانوا حُرّاصاً عليها حرصهم على فكرهم، وحرصهم على فكرهم هو حرصهم على وجودهم، فعليهم أن يدافعوا عنه فإن قُتلوا دونه ودونها كانت لهم الجنة، وإن أهملوه وأهملوها كان لهم الهوان وعليهم اللعنة.

أدرك الحرّاص من العلماء أنّ عليهم أن يضعوا الدواء لعلاج اللحن الذي دخل البيوت العربية، وأخذ يهاجم ملكة اللسان، فخشوا أن ينغلق القرآن والحديث على المفهوم فأخذوا يضعون ما أسماه ابن خلدون ((صناعة العربية))، يقول ابن خلدون[2]: ((إن اللغة هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغتنا، فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين، والسمع أبو الملكات، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة)). فكانت صناعة العربية على يد الخليل بن أحمد- رحمه الله- بوضع القواعد التي تمكّن من ((انتحاء سمت كلام العرب)) [3] فكانت المادة اللغوية موضع الدرس هي المادة التي أخذت من القبائل العربية عن طريق السّماع، ومن ثمّ القياس عليها؛ لاستنباط قواعد العربية.

ولست معنياً هنا برصد القصص الكثيرة التي قيلت في النشأة الأولى للدرس النحوي؛ أهي ما وضعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، أم هي جهود

(*) جامعة اليرموك - أربد- المملكة الأردنية الهاشمية

أبي الأسود الدؤلي، أم ما كان من عيسى بن عمر، أم قبل ذلك أو بعده، ولكن الذي يهمنا هنا أن نقول: إن الجهود التي قدّمها الخليل ورصدها سيبويه في الكتاب تُعد الحلقة الأولى في سلسلة المعرفة للدرس النحوي المعروف، وقد قامت تلك الجهود على تفكير الخليل في وضع علل النحو وعامله، يقول:[4] ((إن العرب قد نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله، واعتللت أنا بما عندي... فإن سنحت لغيري علة لما علمته من النحو هي أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها))، فقد وضع الخليل مجموعة من القواعد والقوانين في ضوء نظرية العامل، وضعها للأجيال لتتعلّم العربية، ولكنه لم يغلق الباب لتكون علله وحدها السبيل، أو السبيل الوحيد، لتعلم العربية وقوانين النطق بها، فترك لغيره أن يعلل بما يراه وأن يستنبط قواعده وقوانينه التي يمكن أن يعلل بها الظواهر اللغوية في العربية معبّراً عن ذلك بتواضع العالم وثقته التي ليس من اليسير أن تجدها في غيره منذ يومه إلى يومنا هذا.

يسود بين الباحثين منذ زمن بعيد أن الخليل بن أحمد قد اعتمد لتقعيد العربية لهجات عدد من القبائل العربية التي كان يرى أن لهجاتها كانت تخلو من اللحن؛ لبعدها عن الاحتكاك بغير العرب، أو بالعرب الذين كانوا يجاورون مَنْ لسانهم غير عربي، سواء أكان ذلك في الحياة اليومية، أم في العبادة كما كان يفعل سكان نجران الذين هم نصارى يتعبدون بالسريانية، فترد عدّة قوائم تعدد القبائل التي تجتمع فيها الصفات التي يجب أن تتوفر في من تؤخذ عنهم عربية التقعيد والقياس، أشهر هذه القوائم وأكثرها انتشاراً، بل أكثرها وأقواها اعتماداً تحصرها عدّاً في القبائل: أسد وتميم وقيس وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، مع الدفاع عن كلّ قبيلة وسبب اختيارها في هذه القائمة دفاعاً يعتمد على المكان الذي كانت تعيش فيه، وسنناقش هذا فيما بعد، ولكنّا لم نعثر على أي نص قديم يحقق هذا الزعم، فمن المعلوم أن الخليل بن أحمد تكلم العربية سليقة، ورحل في بوادي العرب مستزيداً متعلماً من العرب الأقحاح، وناقلاً بوعي العالم ما سمع منهم، ولكنه لم يقل مطلقا إنه قد وضع تحديداً مكانياً لأخذ اللغة في مرحلة التقعيد، و لم يرو عنه أنه وضع تحديداً مكانياً لأخذ اللغة في مرحلة التقعيد، و لم يرو عنه أنه قد وضع معايير مكانية تحدد القبائل التي يؤخذ بلسانها، فقد قامت علل النحو في عقله، وصنفها بطريقته الخاصة بعد أن كان قد طاف في الجزيرة العربية ورحل إلى بوادي الحجاز ونجد يستمع ويروي ويفكر ويصنّف.

لعل أقدم نصّ يتحدث فيه صاحبه عن التحديد المكاني، فينسب وضع القواعد إلى لهجات قبائل بعينها هو ذاك النصّ المنسوب إلى أبي نصر الفارابي، وهذا النصّ، في حقيقة الأمر نصان: أحدهما وهو الشائع الذي يأخذ به الباحثون وهو الذي جاء في ما أورده السيوطي في (المزهر)و(الاقتراح) نقلاً عن الفارابي في كتابه المسمّى: (بالألفاظ والحروف)، كما يقول السيوطي. والآخر هو النصّ الوارد في كتاب

(الحروف) للفارابي، وسنبدأ بالأصل الذي يفترض أن السيوطي قد أخذ عنه، يقول الفارابي [5]: ((.. وأنت تتبين ذلك متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء؛ فإن فيهم سكان البراري، وفيهم سكان الأمصار، وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين، وكان الذي تولّى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق، وتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون أهل الحضر، ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم ومن أشدّهم توحشاً وجفاءً، وأبعدهم إذعاناً وانقياداً. وهم قيس وتميم وأسد وطيء ثم هذيل فإن هؤلاء هم معظم من نُقل عنه لسان العرب، والباقون، فلم يؤخذ عنهم شيء لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطبقة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر)).

ولسنا هنا بصدد تحقيق القول بأن هذا النص هو ذاته النصّ الذي أورده السيوطي، أم أن السيوطي قد اعتمد كتاباً آخر غير هذا الكتاب للفارابي، أم أن خلطاً قد وقع في تسمية الكتاب، فهذا كتاب الحروف وهناك كتاب آخر وسمه الفارابي ب ((الألفاظ))، وهو كتاب صغير نافع في المنطق، وقد حققه الدكتور محسن مهدي ، أيضاً، محقق كتاب (الحروف)[6].

وسنورد هنا نصّ السيوطي لنرى الفرق في هذا الموضوع، يقول السيوطي [8]: ((وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمّى (الألفاظ والحروف): ((كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانة عمّا في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتُدي، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم: **قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أُخذ ومعظمه،** وعليهم اتُّكل في **الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين،** و لم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة لم يؤخذ عن حضريّ قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام؛ لمجاورتهم أهل مصر والقبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد؛ لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانية، ولا من تغلب واليمن؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر؛ لمجاورتهم للقبط والفرس،ولا من عبد القيس وأزد عمان؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن؛ لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف؛ لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم... والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب وصيّرها علماً وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة فقط من بين أمصار العرب)).

فإذا ما أمعنا النظر في هذين النصّين خرجنا بعدد من النقاط:

1- إن النصّ الذي أورده السيوطي يشير في مجمله إلى ما أوجزه الفارابي في النص الوارد عنه، مما يرجح أن السيوطي كان يحيل إلى هذا النصّ بعينه، فإما أن تكون الذاكرة قد ندّت عن بنود في النصّ الأصل، أو أنه قد فصّل فزاد ما كانت قناعته قد وصلت إليه.

2- إن ما أورده السيوطي في مقدّمة نصّه عن قريش لم يرد ما يقابله في نصّ الفارابي، هذا فضلاً عن أنّ الصفات الرفيعة التي ذكرها في قريش وفي لهجتها تحتّم أن تكون هذه اللهجة من النقاء والسمو البياني في مقدمة اللهجات التي يُعتمد عليها، فقد جاء وصفها بألفاظ (أفعل) للمفاضلة المطلقة(8)،(أجود العرب،وأسهلها، وأحسنها، وأبينها) أبعد هذه الصفات يمكن أن تكون مواصفات للاعتماد، فكيف يكون الأمر إن قلنا: أبعد هذه الصفات تستثنى هذه اللهجة من لهجات التقعيد ؟!!!.

فهل يكون السيوطي قد اطلع على نصّ آخر لعالم آخر يمجّد فيه لهجة قريش فاختلط الأمر عليه فأورد مضمون نصين في نصّ واحد منسوب إلى عالم واحد، أم أنّ قناعة السيوطي بلهجة قريش كانت رفيعة قوية، فأدرج لهجتها في صدر النصّ الذي شاع عن الفارابي متحدثاً فيه عن قبائل الاعتماد اللغوي في الغريب وفي الإعراب والتصريف.

3- إن القبائل المعتمدة عند الفارابي هي: **قيس وأسد وطيء ثم هذيل**.أما المعتمدة في نص السيوطي فهي: **قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين**، فزاد السيوطي بعض كنانة واعتمد بعض طيّء التي اعتمدها الفارابي كلها.

4- اشترط النصّان في الإشارة إلى أن الذين شُغلوا باللغة واللسان العربي وجعلوها علماً وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق فقط، من أمصار العرب.

5- فصّل السيوطي في النصّ الذي أورده ذاكراً مجموعة هائلة من القبائل التي كانت على أطراف الجزيرة العربية أو في داخلها مختلطين بغيرهم مجاورين لهم، في حين عبّر الفارابي عن ذلك بإيجاز وتعميم، فقال: ((... والباقون فلم يؤخذ عنهم شيء؛ لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطبقة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر)).

6-لعلّ من أهم ما يلفت انتباه الدارس في النصين أنّ الحديث فيهما لا يشير بوضوح -ولا حتى بالتلميح- إلى اعتماد القبائل في تقعيد النحو العربي، وإنّما الحديث فيهما بوضوح عن اللغة وغريبها وفصيحها، وأكثرها إبانة وسلاسة، أو توحشاً وجفاءً، وعلى ذلك يمكن أن تحمل إشارة السيوطي بقوله:((... وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف)).

7- ولعلّ من أهم ما يلفت الانتباه أيضاً في النّصّين، أنهما يفترضان العزلة وقلة الاختلاط قاعدة

للفصاحة والبيان، بل للاعتماد اللغوي، ولكن هذه القاعدة منقوضة تماماً بما جاء في مقدمة نصّ السيوطي،وبنصوص أُخر سنذكرها بعد قليل، فقريش كانت موضوع اختلاط دائم؛ اختلاط تجاري، واختلاط ديني، واختلاط اجتماعي مستمر في الجاهلية والإسلام، وهذا ما يؤكده كثير من العلماء القدماء، يقول الفراء فيما يرويه السيوطي أيضاً [9] : ((كانت العرب تحضر الموسم في كلّ عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات جميع العرب، فما استحسنوه من لغات تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ)).ويؤكد هذا ما جاء عن أبي العباس ثعلب [10]: ((ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوزان، وتضجع قيس، وعجرفية ضبه...)) ثم جاء هذا المضمون مفصلاً مرتبطاً بإجماع علماء العربية في ما يروى عن أحمد بن فارس، يقول[11]:((**أجمع علماؤنا بكلام العرب** والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم **أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة**؛ وذلك أن الله تعالى اختارهم من جميع العرب، واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فجعل قريشاً قطّان حرمه، وولاة بيته، فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج يتحاكمون إلى قريش في دارهم، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها، ورقة ألسنتها؛ إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها، **فصاروا بذلك أفصح العرب، ألا ترى** أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا كسر أسد وقيس)).

فانظر تجد أن قريشاً كانت أفصح العرب كافة، ومن ثمّ هي أفصح من القبائل التي كانت موضع الاعتماد اللغوي سابقة الذكر، فإن كانت تميم فصيحة فقريش أفصح منها لما في تلك من عنعنة وهي أفصح من قيس وكذلك أسد وهذه هي القبائل الرئيسة الثلاث الواردة قمّة للفصاحة في نصيّ الفارابي والسيوطي سالفي الذكر، وتجد أيضاً أن سبب فصاحة قريش في هذا النصّ هو الاختلاط بالوفود العربية التي كانت تفد إلى قريش في ديارها، وهذا ما أجمع عليه العلماء بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم، ولعل هذا السبب الذي من أجله أجمع هؤلاء على فصاحة قريش (وهو الاختلاط) هو السبب في ما أخذه ابن فارس على القبائل الثلاث: أسد وقيس وتميم، فإن الإجماع في النصوص على أنها كانت تسكن في أماكن يصعب أن يتم فيها اختلاط، فضلاً عن أن الحاجة للذهاب إلى مضارب هذه القبائل لم تكن قائمة.

يقول عمر فروخ[12] في بيان علاقة سكان الحجاز (وهي مضارب قريش) بغيرهم ((منذ أواسط القرن السادس للميلاد بدأ مجرى التاريخ في بلاد العرب يتحول من نجد إلى الحجاز فاكتسب الحجاز بذلك

مكانة اقتصادية تجارية، فمن العوامل الــــتي أدت إلى ذلك تحوّل طريق التجارة من البرّ إلى البحر الأحمر... ثم إنّ مكة في الحجاز كانت مركزاً دينياً قديماً... وقد اقتضى الحج إلى مكة (بل الإسلام) أن يقـوم فيهـا وحولها وعلى الطرق المختلفة المتجهة إليها أســواق دائمة أو مؤقتة في فترات متفاوتة، وقد كانت هــذه الأسواق للبيع والشراء وإنشاد الشعر وإلقاء الخطب، وللبحث عن الغرماء وللمفاخرة وغير ذلك. وكذلك كثرت الجوالي من الشعوب المختلفة في ذلك الحين في الحجاز فحدثت فيه نهضة عمرانية واقتصادية)).

بقي أن نشير في هذا البند إلى قضيتين هامتين:

الأولى: أن هناك عدداً من القوائم التي أشار فيهـا أصحابها إلى أفصح القبائل وأجودها لغة، ومن هــذه القوائم ما جاء في نصّ ابــن خلــدون، يقــول [13]:

((كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها؛ لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم **ثـــم مــن اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبـــني كنانــة وغطفان وبني سعد وبني تميم**، وأما مَنْ بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعــة وعــرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة، فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم، وعلـــى نسـبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحــة والفساد عند أهل الصناعة العربية)).

في نصّ ابن خلدون هذا ثلاث نقاط رئيسة:

1- إنه جعل قريشاً أساس الفصاحة ورأس قبائلها، وهي صاحبة اللغة النقية، وعلل ذلك ببعدها عن بلاد العجم، أي أنها لم تكن لتحتك بلغات غير العرب مع أنها كانت موطن صراع اللهجات العربية المختلفــة، ومن قريش انطلق ابن خلدون ليقيس فصاحة القبائل مِنْ حولها؛ فمن كان قريباً منها كان يتمتع بالفصاحة؛ لقربه منها، ومن بعدت مضاربه عنها قلّت فصاحته. فبذا أصبحت قريش مقياساً لسلامة اللغــة ونقائهــا، والفصاحة فيها لبعدها عن الاختلاط.

2- اختار ابن خلدون مجموعة من القبائل يشهد لها بدرجة من الفصاحة بحسب قربها من قريش تالية لها في ترتيب الفصاحة وفيها مما جاء في نصّي الفــارابي والسيوطي سالفي الذكر وفيه نقص أو زيادة عليهما، فالقبائل هي: ثقيف وهذيل وخزاعة وكنانة وغطفان وبنو سعد وبنو تميم، فزاد: ثقيفاً وغطفان وبني ســعد فضلاً عن قريش وحذف قيساً وطيء.

3- إن مقياس الفصاحة عنده هو القرب أو البعـد من قريش وليس العزلة المكانية والعيش في الوبر كما ذهب الفارابي والسيوطي، فقريش كــانت تسـكن مكة، وكانت مكة المعلم الحضاري البــارز في شـبه جزيرة العرب. وربما كان ما ذهب إليه ابن خلــدون هنا أقرب إلى ما يمكن أن يؤخذ به، إذ ليس العزلــة عنده هي العزلة المكانية بل هي العزلة عن الاختــلاط بالأعاجم وليس العرب، فإن هــذا(أي الاختــلاط بالعرب) يولد قوة لغوية ولا يسفر عــن ضعـف في الملكة اللسانية، وتكاد تكون هذه النقطــة العنصـر المشترك بين معظم النصوص، فهي تكاد تجمع علـــى عدم الأخذ عن القبائل التي كانت تجاور الأعاجم من

فرس وروم وأحباش وأقباط... إلخ.

وهناك قائمة أخرى بأفصح العرب، جاء عن أبي عبيد عن طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قوله[14]: ((نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوزان وهم الذين لهم عليا هوزان وهن خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف، قال أبو عبيد: وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر وذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وأني نشأت في بني سعد بن بكر))، وكان مسترضعاً فيهم وهم الذين قال أبو عمر العلاء أفصح العرب عليا هوزان وسفلى تميم)).

ولعل نظرة فاحصة إلى خريطة توزيع هذه القبائل تؤكد أنهم لم يكونوا في عزلة مكانية، يرشد إلى ذلك نسبهم، فبنو سعد بن بكر هم سعد بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة من قيس عيلان [15] فهم من هوزان، وهوزان لا تعد في أية قائمة من قبائل الاحتجاج والعزلة، وأما ثقيف، وهي إحدى قبائل عليا هوزان فكانت تسكن الطائف وكان لهم فيها صنم يسمى اللات مبنياً على صخرة، كانوا يحرمون من واديه ، ويكسونه، هدمه خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة [16] ، أما نسبهم فهم: بنو منبه بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان وهم ثقيف [17] وكانت سوق عكاظ في أرضهم تفد إليها وفود العرب وشعراؤها يتفاخرون ويتبارزون أمام لجان التحكيم من مختلف القبائل حيث لا مجال للعزلة المكانية.

وتلتقي تميم في النسب مع هاتين القبيلتين، فهم تميم بن عامر بن أُد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان [18]؛ أبناء عمومة يلتقون مع بني سعد بن بكر ومع ثقيف، فلا بد أن صلة ما كانت قائمة بينهم بحكم القربى وبحكم سوق عكاظ التي كانت تجمع قبائل العرب.

والقضية الثانية التي لا بد من الإشارة إليها هي أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش في ما اطرد عند كثير من الباحثين: القدماء والمحدثين، وهو أمر لا يؤخذ من غير مناقشة، ولكنا لا نرى أن إطالة القول فيه مما يحتاجه هذا البحث، ويكفي أن ننظر في اللغات واللهجات الواردة في القرآن الكريم لنعرف أن نسبة نزوله بلهجة قريش كانت على الأغلب كما جاء في ما يروي السيوطي من رد ابن عبد البر[19] في التمهيد على قول من قال نزل القرآن بلغة قريش، فيقول: ((معناه عندي على الأغلب لأن غير لغة قريش موجودة في جميع القراءات)).

فبعد أن تبين أنّ العزلة المكانية لم تكن حقا هي مقياس الفصاحة في القبائل العربية، وبعد أن أوضحنا أنّ الفصاحة قد وُضع لقبائلها عدد من القوائم، يدافع صاحب كلّ قائمة عن أسباب الفصاحة في قبائل قائمته، وبعد أن ناقشنا بالتفصيل الخلط والاضطراب القائم في نصّي الفارابي والسيوطي، بقي أن نشير ثانية إلى أننا لم نعثر على أي نصّ عن الخليل بن أحمد يشير

إلى أنه اعتمد لهجات بعينها لتقعيد القواعد النحوية، ولعل ما أصبح يتوارثه الباحثون والطلاب من أنّ النحو قام على لهجات القبائل الست: أسد وتميم وقيس وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، وهو ضرب من الوهم العلمي مرده إلى نصي الفارابي والسيوطي المتقدمين، فكيف إن علمنا أنّ الفارابي متوفى سنة 329 من الهجرة تقريباً والسيوطي متوفى سنة 911 من الهجرة وأما الخليل بن أحمد واضع علم النحو فقد توفي سنة 170 من الهجرة تقريباً.

ولنقطع الشّك باليقين في أن هذه القبائل قد افترى عليها الباحثون، وأن منهج الخليل أيضاً كان موضع افتراء، فإنّ علينا أن نقف مع كتاب سيبويه نهتدي منه إلى منهج الخليل ونرد به التهم أو الافتراء الذي أسند إلى الخليل، وستكون وقفتنا مع الكتاب لرد هذا الادعاء باستقراء منهج الخليل في شواهد الكتاب من الجوانب التالية:

أولاً: الشواهد التي لم تُنسب إلى قائل، ولسنا هنا بالمعنيين بتحقيق القول في عدد هذه الشواهد، أهي خمسون أم تزيد أم تنقص، فقد كان هذا موضوع بحث أشار إليه عدد من الباحثين. ولكننا نود القول إن من هذه الشواهد ما استُعمل لبناء قاعدة نحوية وهو غير منسوب إلى قائل، فمن ثَمّ يمكن القول بأنه ليس لأحد من قبائل قائمتي الفارابي والسيوطي، إذ إنّ ما جاز أن يُحمل على وجه شائع فقد سقط الاحتجاج به، كما يقول الأصوليون [20] وفي قولهم: الشيء إذا جاز أن يكون حجة في النظير جاز أن يكون حجة في النقيض[21]، ويقولون أيضاً: ((يحملون الشيء على ضده كما يحملونه على نظيره [22])) والقواعد الأصولية في هذا كثيرة.

ورد في كتاب سيبويه [23]؛ قال الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لستُ محصيه
ربّ العباد إليه الوجهُ والعملُ

أي من ذنب، وهذا من باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعولين، وإن عنيت الدعاء إلى أمر لم يجاوز مفعولاً واحداً، فعلى هذا البيت قامت قاعدة باب المنصوب على نزع الخافض، وهو مجهول القائل فمن باب أولى أن لا يكون لأحد شعراء القبائل الخمس أو الست.

ومثل ذلك ما جاء في كتاب سيبويه في إقامة قاعدة نحوية تتعلق بالحال مقدّماً على صاحبه النكرة بعد أن كان صفة متأخرة[24]، قال الشاعر:

وبالجسم منّي بيناً لو علمتِهِ
شحوب وأن تستشهدي العين تشهدِ

أي: شحوبٌ بيّنٌ.

وقال الشاعر [25]:

عَلِمَ القبائل من مَعدٍّ وغيرها
أنّ الجواد محمّدُ بن عطاردِ

فمنع صرف (معد) حملاً على القبيلة، والأكثر صرفه حملاً له على الحي المعروف.

وقال الشاعر[26]:

لا أب وابناً مِثل مروان وابنه
إذا هو بالمجد ارتدى وتأزّرا

فعطف (ابن) مع تنوينه على اسم لا، لأن المعطوف لا يجعل وما بعده بمنزلة اسم واحد، لأنهما مع حرف العطف ثلاثة أشياء، والثلاثة لا تجعل اسماً واحداً.

وقال الشاعر[27]:

يالعنة اللهِ والأقوام كلّهمُ

والصالحين على سمعان من جار

فحذف المدعو لدلالة حرف النداء عليه، والمعنى يا قوم أو يا هؤلاء، لعنة الله على سمعان... لذا رفع (لعنة) بالابتداء ولو أوقع النداء عليها لنصبها.

ومن الشواهد الخمسين ما أورد سيبويه شطره الثاني فقط غير منسوب وعليه وحده أقام سيبويه قاعدة نحوية، أكمله النحاة بعده كما جاء عند ابن يعيش بأنه منسوب إلى الأشجعي، قال سيبويه: قال الشاعر:

مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وتمام البيت :

وعدت وكان الخلف منك سجية

مواعيد عرقوب أخاه بيثرب[28]

وجاء عن سيبويه أيضاً ما أقام به قاعدة نحوية على قول لبعض العرب غفلاً من غير نسبة، يقول "في باب ما يتقدم فيه المستثنى: ((وحدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقولون : مالي إلا أبوك أحد، فيجعلون أحداً بدلاً. كما قالوا: ما مررت بمثله أحد، فجعلوه بدلاً))، وفي هذا بناء قاعدة على قول إحدى القبائل العربية لعلها من غير القبائل الست. ويستطيع البحث بيُسر أن يجمع القواعد كلّها التي أقيمت على شواهد غير منسوبة إلى شاعر.

ثانياً: شواهد لشعراء معروفين يقيم عليها سيبويه قاعدة نحوية سواء أكان الشاعر المعروف من القبائل الست أم من غيرها، ثم يعضد هذه القاعدة أو الشاهد بشاهد لشاعر مجهول والعكس صحيح؛ ومن ذلك مثلاً، أنه أقام قاعدة نحوية جاءت في شعر شاعر مجهول أعمل فيها صيغة المبالغة (ضروب) في معمولها المتقدم عليها، مؤيداً ما جاء في قول العرب: أما العسل فأنا شرّابٌ، وقال الشاعر[29]:

بكيتُ أخا لأواء يُحمدُ يومُهُ

كريمٌ رؤوس الدارعين ضروب

فأقام قاعدة إعمال صيغة المبالغة في متقدم.ومنه قول ذي الرمة[30]:

هجوم عليها نفسه غير أنّه

متى يرومَ في عينيه بالشبّح ينهض.

ومن ذلك أيضاً قول أبي ذؤيب الهذلي[31]:

قلى دينه واهتاج للشوق إنّها

على الشوق إخوانَ العزاء هيوجُ

وكذلك قول القلاخ[32]:

أخا الحرب لبّاساً إليها جلالها

وليس بولاج الخوالف أعقلا

فنجد أن القاعدة قد بنيت على بيت ذي الرمّة ثم عضّدها ببيتين لكلّ من أبي ذؤيب والقلاخ، ومن ثم أردف ببيت غير منسوب وقول جرت عليه العرب، وهو قول أيضاً غير منسوب، يقول ((سمعنا من يقول)) وهذه صيغة لا تشير من قريب أو بعيد إلى أيّ

من القبائل التي أشار إليها الفارابي أو السيوطي.

ومن ذلك أيضاً أن سيبويه قد أقام قاعدة نحوية على قول شاعر مجهول، ثم أتبعه بقول شعراء معروفين ولكنهم ليسوا من القبائل الست، فقد استشهد بقول الشاعر[32]:

((يا سارق الليلةِ أهلَ الدار))

فقد جعل (الليلة) أي المفعول الأول مجرورة بالإضافة، ونصب المفعول الثاني، وأقام عليه قاعدة، وهي أنه يجوز في الاسم الذي يتعدى فعله إلى مفعولين و لم ينوّن أن يُجر الأول وينصب الثاني وليس العكس، كما جاء في القرآن الكريم ((فلا تحسبنّ الله مخلف وعدهِ رسلَه))[33]، ثم أورد سيبويه قول الشماخ[34]:

ربَّ ابن عمّ لسليمى مُشْمعلْ

طباخِ ساعات الكرى زاد الكسل.

وقول الأخطل [35]:

وكرّارِ خلف المُحْجرين جواده

إذا لم يحام دون أنثى حليلها

والشماخ هو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني، وأما الأخطل فهو غيات بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو من بني تغلب، فهما لا ينتميان إلى القبائل الست.

ومنه أيضاً ما أقيمت فيه قاعدة على شعر أحد شعراء القبائل الستّ ثم أتى بشواهد من شعر شعراء آخرين ليسوا من شعراء هذه القبائل.

قال قيس بن الخطيم، وهو ثابت بن عدي بن سواد بن ظفر وهو كعب من مازن بن الأزد وهو من غير القبائل، يقول:

نحن بما عندنا وأنت بما

عندك راضٍ والرأي مختلف [36]

استشهد به سيبويه لما جاز من حذف المفعول الذي هو فضلة؛ لأن حذف خبر المبتدإ وهو عمدة أشد من حذف الفضلة. وللقاعدة ذاتها استشهد بشعر الفرزدق التميمي وهو من شعراء القبائل، يقول:

إنّي ضمنت لمن أتاني ما جنى

وأبي فكان وكنتُ غير غدور [37]

ومنه الاستشهاد بقول كلٌ من جرير التميمي وزهير بن أبي سلمى وهو من غير القبائل الست، يقول جرير: [38]

ألا أضحت حبالكم رماما

وأضحت منك شاسعةً أُماما

بترخيم (أماما) في غير النداء، وترك الميم على لفظها مفتوحة وهي في موضوع رفع. ويقول زهير:

خذوا حظكم يا آل عكرم واذكروا

أواصرنا والرحْمُ بالغيب تذكرُ.

بترخيم (عكرمة) وتركه على لفظه، ويتحمل أن تقدر إعرابه على أنه علم لمؤنث ممنوع من الصرف، باعتبار القبيلة.

ومنه قول عقيبة الأسدي [39] وهو من قبائل الاحتجاج، وقول لبيد بن أبي ربيعة وهو ليس كذلك، يقول لبيد:

فإن لم تجد من دون عدنان والداً

ودون معدٌ فلْتَزَعْكَ العواذل

ويقول عقيبة:

معاوي إننا بشر فاسجح

فلسنا بالجبال ولا الحديد

في باب ما يجري على الموضوع لا على الاسم الذي قبله، ومثل ذلك في الكتاب كثير.

ثالثاً: شواهد الشعراء من غير القبائل الست أقام عليها سيبويه قاعدة نحوية، ثم أتبع هذه الشواهد بشعر شعراء مجهولين، ومن ذلك مثلاً:

يقول أمرؤ القيس [36]:

أحار أُريك برقاً هب وهناً

كنارِ مجوسَ تستعر استعارا

فمنع (مجوس) من الصرف على معنى القبيلة، ثم عضد هذه القاعدة بشاهد لرجل من الأنصار[40] :

أولئك أولى من يهودَ بمدحة

إذا أنت قلتها و لم تؤنّبِ.

فما كان اسماً لقبيلة أو حي لا يصرف على الأصل، فالبيت الثاني لرجل من الأنصار، والأنصار ليس قبيلة، وربما كان الأنصاري من قريش أو من غير قريش، وقال الأصوليون[41]: ((ما تسرب إليه الاحتمال خرج من دائرة الاستدلال)).

ومنه(في الضرورة)قول عامر بن جوين الطائي: [48]

فلم أرَ مثلها خُبّاسةَ واحدٍ

ونهنهت نفسي بعدها كدت أفعله

فحملوه على (أنْ) لأن الشعراء قد يستعملون (أنْ) مضمرين كثيراً فنصب الشاعر (أفعله) بتقدير أن قبله.

ومنه قول أبي زبيد الطائي :[49]

أقام وأقوى ذات يومٍ وخيبةٌ

لأوّلِ مَنْ يلقى وشرٌّ ميسّرُ

فرفع بعض الشعراء المنصوب على المصدرية فجعلوه مبتدأ وجعلوا ما بعده مبنياً عليه، وفي هذا البيت رفع (خيبة) بالابتداء لما فيه من معنى النصب على المصدر المستعمل في الدعاء.

خامساً : شواهد تنسب إلى قبائل نصّ السيوطي على أنها لم يؤخذ منها لأن ألسنتها قد فسدت لمجاورتها من ليسوا بعرب، ومن ذلك ما استشهد به سيبويه من شعر غيات بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو من تغلب[50]، وتغلب قال فيها السيوطي ((... ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين اليونان))[51] ومنه أيضاً ما استشهد به سيبويه من شعر طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي[52] وبكر من القبائل التي رفض السيوطي الأخذ عنها ((... ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس)).

وإنّ من يدرس كتاب سيبويه يجد أنّه قد بُني بمنهجية لم تكن في نية بانيه أن يعتمد في التقعيد لهجة معينة، أو أنْ يفضل لهجة على لهجة، فضلا أن يكون قد اعتمد عدداً محدداً ومعيناً من اللهجات كما جاء في ما نصّ الفارابي وتأثر به كلّ من جاء بعده، فإن علمنا أن الفرق الزمني بين الخليل بن أحمد، صاحب الفكرة الرئيسية في التقعيد النحوي، وصاحب الأفكار والآراء التي اعتمد عليها سيبويه في كتابه الكتاب، هو الفرق بين سنة 170 من الهجرة تقريباً حيث توفي

الخليل بن أحمد، وسنة 329 من الهجرة حيث توفي الفارابي صاحب النصّ الذي تأثر به الدارسون من القرن الرابع الهجري إلى يومنا هذا مع أنّ مضمونه بلا وجود حقيقي في كتاب سيبويه أو منهج الخليل في التقعيد النحوي، فمما هو واضح أنّ الخليل قد أخذ النصّ الفصيح عن العرب الأقحاح بصرف النظر عن القبيلة التي كانوا ينتمون إليها، فالغاية عنده كانت الفصاحة والاتساق مع ما كانت عليه العربية آنذاك، والخليل بذلك طبٌّ خبير، فضلا عن أنه كان من أصحاب السليقة اللغوية، ويحفظ الشعر، ويقرضه، وخبير بكتاب الله ولغته، حريص عليه وعليها، وعلى استقامة ألسنة الناس عند النطق بها أو القراءة به.

أخذ الخليل النصّ الفصيح وإن كان قائله ليس بالمعروف، وبنى قواعد النحو التي تمكّن المتكلم أو المتعلّم من انتحاء سمت العرب في كلامهم، وتمكّن القارئ لكتاب الله من القراءة السليمة، وما ورد من كلام العرب مخالفاً لهذه القواعد فإنّه قد حُكم عليه بالشذوذ، والشاذ صحيح ولكنه لا يتفق مع القاعدة التي قُعِّدت ، لذا فإنه يُحفظ ولا يقاس عليه، فإن المقعِّد مهما اتسعت قاعدة الاستقرار عنده فلن يتمكن من جمع اللغة كلّها وإن كانت صغيرة، فكيف إن كانت اللغة التي كان الخليل يقعِّد القواعد لها هي العربية المعروفة باتساعها وتعدد لهجات المتحدثين بها.

ألا ترى بعد ذلك أن القبائل الخمس أو الست هي من القبائل المفترى عليها إن لم تكن هي المفترى عليها، وكذلك، ألا ترى أن تعدد قوائم الفصاحة عند العلماء - على الرغم من أنّه يؤدي إلى الشّك في صحة أيٍّ منها- يحتاج إلى إعادة النظر فيها لمعرفة الأسباب القبليّة أو غيرها التي تقف خلف اختيار بعضها ورفض الأخرى في التقعيد اللغوي.

الهوامش

1. انظر مثلاً الخصائص لابن جني 10/2، الإيضاح للزجاجي ت مازن المبارك ص 89 مقدمة ابن خلدون ص 546، البيان والتبيين 205/2-222،504.
2. المقدمة ص 546
3. ابن جني، الخصائص 35/1
4. الزجاجي، الإيضاح في علل النحو ص 66.
5. الفارابي- كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق ط2،ص147.
6. انظر مناقشة هذا في مقدمة محسن مهدي لتحقيق كتاب الحروف.
7. الاقتراح ص 44، المزهر 211/1.
8. وسنتحدث عن عدد آخر من قوائم اللهجات المعتمدة في التقعيد تتصل بهذه النقطة في نصّ السيوطي هذا.
9. الاقتراح: ص127.
10. مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون- دار المعارف- ص80-81.

11. ابن فارس، الصاحبي ص33-34 والسيوطي، المزهر 210/1.

12. عمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت 1970 ص 45.

13. مقدمة ابن خلدون: المكتبة التجارية، مكة المكرمة، 258/2-259.

14. السيوطي ، المزهر 210/1،211.

15. أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية،بيروت،1982م ص265.

16. السابق 182.

17. السابق 491.

18. السابق 207.

19. السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، دار الفكر، بيروت 136/1.

20. وانظر الإنصاف في مسائل الخلاف مسألة 8

21. وانظر السابق مسألة 1

22. السابق مسألة 23.

23. الكتاب 37/1.

24. الكتاب 123/2.

25. الكتاب 250/3.

26. الكتاب 285/3.

27. الكتاب 219/2.

28. الكتاب 272/1. - * الكتاب 337/2.

29. الكتاب 111/1.

30. الكتاب 110/1 وديوان ذي الرمة 324.

31. الكتاب 111/1.

32. الكتاب 175/1.

33. ابراهيم 47.

34. الكتاب 177/1.

35. الكتاب 177/1.

36. الكتاب 75/1.

37. الكتاب 270/2-271،76/1.

38. الكتاب 270/2-271.

39. الكتاب 67/1-68.

40. الكتاب 254/3.

41. الإنصاف مسألة 104،726/2.

42. المرزباني ، معجم الشعراء ص55.

43. الكتاب 43/3.

44. المرزباني ، معجم الشعراء ص204. وانظر الكتاب 46/3.

45. انظر مثلاً الكتاب 386/1 فيه شاهد لعبد الرحمن بن حسان **الخزرجي** والكتاب 68/1 فيه شاهد لكعب بن جعيل **التغلبي**. والكتاب 280/1 فيه شاهد لذي الرمة وهو **مضري** والكتاب 118/3 وفيه شاهد لزيد بن عمرو بن صعصعة والكتاب78/3 فيه شاهد لطرفة بن العبد وهو من **بكر بن وائل** والكتاب 70/2 فيه شاهد لعروة بن الورد وهو من **غطفان** والكتاب 20/2 فيه شاهد لابن ميّادة المرّي وهو منسوب إلى **غطفان** والكتاب 424/1 فيه شاهد لامرئ القيس وهو من كندة والكتاب 72/3 فيه شاهد للأعشى وهو من **بكر بن وائل** والكتاب 246/2 وفيه شاهد لعنترة بن شداد وهو من **عبس** والكتاب 256/1 وفيه شاهد لابراهيم بن هرمة **وهو من الشعراء المولدين**

46. الكتاب 279/1.

47. الكتاب 279/1.

48. الكتاب 307/1.

49. الكتاب 313/1.

50. الكتاب 177/1.

51. الاقتراح ص44.

52. جمهرة أنساب العرب ص320.

قائمة المصادر والمراجع

(1)- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين ،تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، 1961م.

(2) ثعلب، أبو العباس، مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر ط3.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة.

(4) ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.

(5) ابن حزم، أبو محمد بن أحمد الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت 1982م.

(6) ابن خلدون، المقدّمة، المكتبة التجارية، مكة المكرمة1994م.

(7) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، تحقيق د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت 1982م.

(8) الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، بيروت 1979م.

(9) سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة، طبعة بولاق.

(10) السيوطي، جلال الدين، الاقتراح، تحقيق أحمد محمد قاسم، جروس برس، 1988م.

(11) السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغات وأنواعها، تحقيق محمد أبو الفضل وآخرين، عيسى البابي الحلبي، ودار الجيل ودار الفكر، المكتبة العصرية.

(12) السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، دار الفكر، بيروت.

(13) فروخ،د. عمر، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت 1970م.

(14) الفارابي كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، الطبعة الثانية1990م.

(15) الفارابي، كتاب الألفاظ، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق.

(16) ابن فارس، أحمد، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي، بيروت 1964م.

النحو العربي
بين التعليم والتخصص

الدكتور/ محمد خان(*)

النحو هو انتحاء سمت كلام العرب من تصريف وإعراب (1). تلك غايته التعليمية التي صرّح بها ابن جني منذ القرن الرابع الهجري، وما زالت هي غايتنا نحن. نهدف إلى تحصيلها لنتمكن من ضبط كلامنا ضبطا يوافق قوانين اللغة العربية.

فهل بلَغنا الغاية؟ وما بالنا إذا التقينا اشتكى بعضنا لبعض من تدني المستوى التعليمي ورجعنا باللائمة على النحو والنحاة؟ على الرغم من أننا نتفق جميعا على ضعف التعليم في مختلف مراحله وليس لمادة وضع أحسن حالا من مادة أخرى في نفوس الطلبة.

وعندما رجعت بالسؤال إلى نفسي قلت: هل من سبيل للارتقاء بالنحو العربي؟ ما سرّ الضعف الذي يلازم طلابنا في قسم اللغة العربية بَلْهَ الأقسام الأخرى؟ أيَعُود الضعف إلى الأستاذ أم إلى الطالب أم إلى المادة؟ أهو في طبيعة المادة أم في منهجها؟

لا أزعم أني سأجيب عن كل الأسئلة، ولكن حسبي أن أتحدث عن المادة التي درّستها سنوات عدّة، وحاولت أن أقربها إلى الطلبة، وأعدت فيها التجارب ونوعتها وحصلت على نتائج متفاوتة من سنة إلى أخرى ومن فئة طلابية إلى أخرى...

إن لمادة النحو أهمية كبرى في تكوين المتعلم وبخاصة الطالب في الأقسام اللغوية والأدبية وبقية فروع العلوم الإنسانية. فهي ميزان القوة والضعف في بيئة المتعلمين. وأول ما يظهر الضعف يظهر على لسان المتكلم، ومن هنا كان الخطأ في النحو أول ما يلاحظ، ولكن ما قيمة الدرس النحوي إذا كان هو يعلّم الصواب والمواد الأخرى تهدمه؟

يُرمى النحو بكيل واف من التهم دونما وجه حق، وهي تنمّ عن جهل بما في الأنحاء من جفاف في كل لغات العالم، ولو التقى المختصون دورياً لدراسة قضايا النحو وتبادلوا الرأي فيه، وقدّموا التجارب ليستفيد بعضهم من بعض لما كانت هذه الحال في بلادنا، وإن الأمر لجدّ خطير إذا لم نستدرك أوضاعنا التعليمية والعلمية.

أودّ أن يكون هذا البحث إثارة علمية لحوار جاد يتواصل في المستقبل، ويشارك فيه المؤهلون من أساتذة وباحثين، ويقدمون أفضل ما يرون في تدريس مادة النحو العربي. وإننا لا ندعو إلى تغيير حقائقها أبدا إنما

(*) جامعة عنابة - المركز البسكرة - الجزائر

كل ما ندعو إليه هو تيسير الطرق والأساليب التي نتعاطاها بها بدءا من صياغة المادة وشواهدها ونحاول أن تكون قريبة من الحياة المعاصرة وأن نلزم الطالب بأن تكون تلك القواعد على لسانه دائما لتصير لغة طبيعية. وهذا أمر موكول لكل الأساتذة بأن لا يسمحوا لأنفسهم ولا لطلبتهم التحدث بغير العربية الصحيحة. ويكفي ابتذالا من قولنا: لا يهمنا إلا الفكرة !

إن عملنا هذا لا يتعدّى أن يكون إشارة إلى مدخل منهجي لتدريس المادة داعيا إلى إعادة تصنيف الكلمات صرفيا وتوزيعها وظيفيا بحسب دور كل كلمة في الجملة ويقلل من سلطان الجوازات والاحتمالات، وأن يتعامل مع العلامة الإعرابية بصفتها ظاهرة صوتية (وليست خفيّة) تستوجبها العلاقات النحوية للتمييز بين الوظائف داخل كل تركيب. وما علامات الإعراب إلا ثلاث: الضمة للإسناد وتوابعه والكسرة للإضافة والفتحة لما عداهما(2).

وإذا عدنا إلى البحث عن عوامل نشأة النحو العربي ألفيناها ثلاثة: علمية واجتماعية وحضارية وفي مقدمتها ظاهرة اللحن الذي بدأ يشيع على الألسنة بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأمم الأخرى الذين أسلموا. واللحن يتجلى في الإعراب أكثر من غيره لذلك استقرّ في الأذهان أن اللحن هو مخالفة حركة آخر الكلمات بما لا يوافق سمت كلام العرب.

إن الإعراب من أخص خصائص العربية، ولا مندوحة عن اعتماد حركاته للتمييز بين الوظائف النحوية في العموم وإلا كان المنطوق ضربا واحداً لا يتبيّن إذا تماثلت الأشكال. وكيف لا؟ والإعراب فرع المعنى كما يقال.

لقد نشأ النحو العربي في رحاب النصّ القرآني ومن أجل خدمته تلاوة وفهما، وما لبث أن توسعت دائرة الاهتمام اللغوي، فشملت النص الأدبي عموما، والنص الشعري خصوصا فكان تعليميا بالدرجة الأولى لتحقيق رغبة المسلمين في بلوغ المماثلة الاجتماعية. واللغة من أكبر الحواجز بين فئات المجتمع. ولما توسعت مجالات البحث اشتد التنافس على مقام الصدارة العلمية بين أبناء الأمة الواحدة، فنبغ منهم أئمة في كل علم.

لا جرم إن بدأ النحو ضبطا للنصوص وتقويما لألسنة المتعلمين الذين قصرت بهم سليقتهم، ثم تدرّج في التحليل والتعليل إلى أن وصل إلى نظريات تجريدية يتبارى فيها المتخصصون فتأسست مدارس مختلفة في رؤاها ومناهجها وذلك شأن كل العلوم.

من هنا كان للنحو مستويان: مستوى تعليمي ومستوى تخصصي، وهما في التراث حشد واحد من القوانين والقواعد التي استنبطها العلماء من لهجات القبائل العربية مجتمعة: شعرها ونثرها، ومن القرآن الكريم وقراءاته المختلفة، وصبّت على شاكلة واحدة، فظهر ما يمكن أن يسمى بالقاعدة النمطية التي هي القاسم المشترك بين الناطقين بلغة واحدة، ولكنها مذيلة بما خرج عنها. فقالوا: لغة شاذة أو رديئة أو

لهجة أو ضرورة شعرية... إلخ فنتج خلط بين ما يتعلمه الناس لعصمة ألسنتهم من الخطإ وفق الكلام العربي، وبين ما هو تحليل لظواهر أسلوبية تفرّد بها شاعر من دون خلقه، أو ما هو تفسير لآية قرآنية ركبت بأسلوب معجز يتحدّى فصحاء العرب. فما هذا إلا تميّز خاص لا يمكن أن يصير عامّا متبعا ولو درّسناه أبد الدهر: قال سيبويه: " وليس شيء يضطرون إليه إلا وهم يحاولون به وجها. وما يجوز في الشعر أكثر من أن أذكره لك ههنا" (3)

إن موروثنا النحوي يتضمن القواعد العامة للكلام العربي، كما يتضمن إشارات تحليلية لنصوص قرآنية وشعرية وغيرها يمكن أن يطلق عليها النحو الجمالي أو الأسلوبي أو يطلق على بعضها النحو الاحتمالي أو الجوازي، والاستحالي وغيرها من مستويات الأنحاء. ولكن ما يحتاجه المتعلم في مراحله الأولى من التعليم هو القواعد النمطية المشتركة التي يستعملها كل المتكلمين بلغة واحدة في حياتهم الاجتماعية تواصلا وإبلاغا. ثم يحتاج بعضهم -إذ ارتقى- إلى نحو متخصص يرتكز على السابق، وهو أفيد إلى طلبة اللغات والآداب، فيبيّن لهم الوجوه التي تفرد بها القرآن الكريم أو عدل إليها بعض الشعراء أو القبائل، فينشأ من ذلك كله منهج في النحو الأسلوبي يعتمد تحليل الظواهر لا تقعيد القواعد، ويبيّن المظاهر التي تفرّد بها هذا أو ذاك مما يعدّ نتاجا فرديا لا يرقى إلى التعميم. إذ لا يعمّم إلا ما كان نتاجا جمعيا يفرض قوانينه على الجميع.

اشتغل نحاتنا بقرينة الإعراب، وهي ليست القرينة الوحيدة بصفتها أثرا صوتيا يحدثه مؤثر أطلقوا عليه مصطلح (العامل)، وألفوا كثيرا من الكتب في العوامل بلغ عددها عند الجرجاني (مائة)، وهكذا بنى نحونا على نظرية العامل وهي مفيدة في جوانبها التعليمية ولكن دونما إيغال فيها أو مغالاة في تطبيقها وتعميمها من نحو التنازع والاشتغال... وحدّدوا للإعراب محلا فكان ماله محل وما ليس له محل، واضطرب المتعلم في التفريق بينهما طويلا، وما كانت الحاجة تدعو إليه ولا إلى الإعراب التقديري والمحلي -والفكرة افتراضية- فليس من النجاعة التربوية تعميمها.

إنهم لاحظوا ظهور علامات الإعراب ظهورا كاملا فقالوا الاسم المتمكن الأمكن أو المتصرف، وظهورا جزئيا فقالوا المتمكّن أو غير المنصرف ويقابلها المبنيات عندما تلازم حالة واحدة. فالحركات الثلاث لا تظهر على المقصور للتعذر ولا على المضاف إلى ياء المتكلم لاشتغال المحل. ولا تظهر الضمة ولا الكسرة على المنقوص للثقل... إلخ فما فائدة تقدير العلامة الإعرابية بالنسبة إلى المتعلمين؟ ألا تراهم يثقلون ألسنتهم بتدريبات تقنية لا تقوّم ألسنتهم؟

إن الوظيفة النحوية تدل عليها عدة قرائن منها حركة الإعراب والرتبة وبنية الكلمة وغيرها من القرائن. وما الإعراب إلا ظاهرة صوتية تتغيّر من حال إلى حال بسبب العلاقات السياقية بين ضمائم التراكيب. فإذا انعدمت بسبب وضعي كالمقصور مثلا أو صوتي كالمضاف إلى ياء المتكلم فما فائدة تقديرها؟

في الواقع هو تقدير مفترض (لوجود معدوم أصلا) لا يتصور إلا في الخيال. واللغة مادة لفظية وإعرابها ظاهرة صوتية فلا حاجة للمتعلم بأن يبحث عنها، ولا أن يلزم نفسه بذكرها، لأنها لا تقوّم لسانه ولا تصوّب اعوجاجه.

أراد نحاة البصرة أن يكون لقواعد النحو من الاطراد ما يعصم الألسنة من الخطإ، وما يبعدها عن التوسّع والتحرّر. وما خرج عما قرروه أسقطوه من هيكل النحو، وحكموا بشذوذه ورداءته، وقاموا بتوجيهه ما شاء لهم التمحل في التعليم، ولو عالجوه في إطاره الأسلوبي لما وقعوا في الخصومة بينهم وبين الشعراء- وقصصهم مشهورة في كتب الأدب واللغة- ومنهم ابن أبي اسحق الحضرمي (4) وتلاميذه الذين أرادوا أن يلزموا الشعر قواعدهم التي استنبطوها بالاستقراء من الكلام العربي. ألم يعلموا أنها قواعد قياسية للمتعلم ؟ أمّا الشاعر فدأبه أن يتجاوز هذه الأنماط الموصوفة في الكتب، ويحاول دوما كسر القيود! فيسوقه طبعه وموهبته إلى مخالفة المألوف ليتفرّد في الإبلاغ.

إننا إذا اقتنعنا بأن للشعر أساليبه ودروبه ومناهجه ونقاده كان أفضل لأبنائنا لينهضوا بلغتهم. وطلبتنا لن يتمكنوا من استيعاب (نحو الشعر) وكل أساليبه. فهي مظاهر خاصة بالإبداع ولا تلميذنا بقادر على إدراك (نحو القرآن)... فكل ذلك إجهاد لذهن المتعلم وتبديد لجهوده. فليس بمقدور كل الناس أن يعرفوا ذلك ويتمثلوه، وأن ينطقوا بمثله أبداً.

هذه هي البصرة التي حصرت النحو في قواعد مستقرة إلى حدّ ما، وامتاز شيوخها بالتشدد في القياس، و لم يدونوا إلا ماتفوّه به الفصحاء من العرب وثبت اطراده. غير أنهم في مقابل هذا المنهج التعليمي أفرطوا في تخريج ما خالف قواعدهم وتعسفوا في التقدير كثيرا وجعلوه من سنن النحو، فلو لم نتمكن من معرفة الحركة المقدرة، وعلة خفائها لعدّ ذلك ضعفا نحويّا يذم به المتعلم. وصار من العسير التخلي عن هذا الإطار الصارم، واستحال تعديله ضربا من المغامرة الفاشلة في بيئة المدرّسين وكادت المقولة تصدق فينا، وهي : إن النحاة العرب لم يعودوا قادرين على تجديد مادتهم.

إن ما يوجد من صلة افتراضية بين النحو وعلاماته الظاهرة وتقدير المعدوم منها والتخلي عن هذا أو عن بعضه على الأقل في المرحلة الأولى من شأنه أن ييسّر دراسة النحو للمتعلمين، كما يصبح التخلي عن لغة الشعر ضرورة تعليمية تقتضيها أوضاعنا في هذه المرحلة. ونحاول أن نقدّم تلك المسائل المختلفة من قضايا نحوية في الشعر مثلا في أقسام متخصّصة جدا، ويمكن أن ندرجها ضمن مواد أخرى كالأسلوبية أو نظريات الشعر أو لغته... المهم أن ندرك أنها ليست من مادة قواعد النحو التي تدرس فيها الأنماط العامة التي يشترك فيها كل المتكلمين. وهذه الفكرة يجسّدها قول أبي عمرو ابن العلاء حينما سئل : "كيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهو حجة؟ فقال: أعمل على الأكثر وأسمي ما خالفني لغات" (5). وعلى العموم

يمكن أن نقول: إن النحو قدّم بعض الحلول النظرية لبعض الحالات أو الظواهر كالأسلوبية وبعض التوجهات العملية التي تمكن من تلوين التعبير، وموضعها الحقيقي أن تكون في إطار تحليل النص الشعري.

يحق للدارس أن يتساءل: ما الفرق الذي يمكن أن يلاحظه المتعلم من الناحية الشكلية بين الأنواع المذكورة لاحقا ؟

إن الممنوع من الصرف لا ينون ولا يجرّ بالكسرة، وجمع المؤنث السالم لا ينصب بالفتحة، والمنادى المبني على الضم لا ينون، وكذا اسم لا النافية للجنس لا ينون، وجمع المذكر السالم يرفع بالواو وإذا نودي بني على الواو، والفعل المضارع علامة جزمه حذف النون والأمر مبني على حذف النون...

لا شك في أن هذه الأبواب النحوية وغيرها مما يماثلها بات من الضروري مراجعتها لا لتغيير حقائقها ولكن لتسهيل تعاطيها وتلقيها، فيعاد النظر في توزيع حركات الإعراب فيها. فما يضر العربية إذا قلنا : إن المنادى لا ينوّن مثل الممنوع من الصرف، ويمكن أن يكون هو نفسه في التركيبين كجاء أحمد ويا أحمد. فالأول نقول عنه فاعل مرفوع والثاني منادى مبني على الضم. والاسم واحد والعلامة واحدة. فما أشدها على ذهن المتعلم! وكذا قولنا: جاء المعلمون ويا معلمون. فالأول مرفوع بالواو والثاني مبني على الواو. هذه حالنا مع قواعد لغتنا التي نريد لها أن تكون لسان طلبتنا بل لسان مجتمعنا ؟!

يبدو أن التناقض واضح جلي في هذا وفي مثله من الأبواب النحوية، ولا ضير إن أعيد النظر في توزيع الحركة الإعرابية وفي تحديد الوظيفة النحوية. فما ندعو إليه لا يغير من المنادى ولكن يغيّر في منهج تفسير حركته. ولا من حقيقة جمع المذكر أو المؤنث أو غيرهما...

قد سبق القول: إن النحو علاقات سياقية تربط بين ضمائم التركيب التي تختلف حركتها الإعرابية بسبب الوظيفة التي تؤديها في صلب التركيب. فإن كان لها دور أحد ركني الإسناد كانت مرفوعة، وإن كانت مضافة بالحرف أو الاسم كانت مجرورة وما عداهما من الوظائف فتكون الكلمة منصوبة. وقد تطرأ عليها أوضاع تحويلية فتتغيّر حركتها الإعرابية تبعا للمعنى أو العامل اللفظي. وما ظهر من حركات الإعراب ذكرناه وما لم يظهر منها وكان منعدم الحركة بسبب وضعي كالمقصور والمبني أو بسبب صوتي طرأ على الكلمة كالمضاف إلى ياء المتكلم فلا حاجة إلى تقدير حركته،وبمعنى أصح من المفيد أن تلغى فكرة الإعراب التقديري والمحلي فإنها فكرة صناعية نظرية. فما قيمة أن يقول المعرب فعل ماض مبني على الفتح أو السكون، وفعل الأمر مبني على السكون أو على حذف النون أو حرف العلة... لأن ورود الفعل بتلك البنية نمطي لا يتصور المتكلم ولا السامع غير هذا. وهل يخطئ متعلم في حركة اسم الإشارة بسبب من حركة بنائه (مبني على السكون أو على الكسر).

كما تلغى الفكرة التي تقسّم الجملة إلى نوعين:

فعلية واسمية والتي تُخضع كل تركيب إلى هذا التقسيم الثنائي، فيخرج التعجب والاختصاص والاستثناء والمدح والذم والتحذير والإغراء والنداء... فهذه تندرج في لغة الوجدان التي يعبّر بها المتكلم عن أحاسيسه فتؤدي وظيفة إبلاغية سريعة تتجاوز قواعد الإعراب المعهودة ولعلها لم تتقيد به أبداً. قال سيبويه في مثل قولك: ما أحسن عبد الله. "زعم الخليل أنه بمنزلة قولك: شيء أحسن عبد الله، ودخله معنى التعجب. وهذا تمثيل و لم يُتكلّم به" (6). والمؤسف أن الإعراب كان على تمثّل ما لم يتكلم به.

في نهاية حديثنا نتخذ المنادى نموذجا نبيّن فيه وجهة نظرنا ونخالف رأي الأقدمين في كونه مفعولا به لفعل واجب الحذف. ولو أننا أظهرنا الفعل الذي قدروه من مثل أنادي أو أدعو... لتحوّل الإنشاء إلى الخبر، والنداء لا خلاف في إنشائيته، والفعل يغيّر من وظيفة النداء من حال الخطاب إلى حال الغياب. وما دفعهم إلى هذا التقدير قصور لفظي أو معنوي. وإنما دعتهم إليه اضطرارا الصنعة النحوية في تفسير حركة المنادى. فهو ليس بفاعل ولا مجرور فما بقي إلاّ المفعول به! وما الناصب له إلا فعل؛ لأنه أقوى العوامل، يعمل متقدما ومتأخرا، مذكورا أو محذوفاً. ولو أنهم اتبعوا الخليل في تفسير حركة المنادى(7) لاستغنوا عن هذا التقدير الاضطراري.

إن المنادى منصوب ما عدا المفرد المعرّف بالعلميّة أو بالقصد فإنه يرفع بلا تنوين ليخالف المرفوع بالإسناد (المبتدأ والفاعل...) فالنكرة تفيد الشيوع والتعميم وكذا الأعلام فإنها قد تشترك في اسم واحد. والنداء يعيّن إحداها لأنه حال خطاب. وإذا وُصِل المنادى بما بعده ردّ إلى أصله أي: النصب. ويجوز في تابع المنادى النصب على الأصل والرفع على اللفظ.

والنتيجة أن المنادى أحد المنصوبات، وهي كثيرة في العربية، وليس بلازم أن تكون كل المنصوبات معمولة لفعل. وهو حال خطاب " مختص من بين أمته لأمرك ونهيك أو خبرك" (8) ويرفع بلا تنوين إذا كان مفردا معيّنا. وعدم التنوين سبب وضعي يلحق الممنوع من الصرف، كما أنه سبب تمييزي يلحق المنادى، وما اختلاف حركات الإعراب للمنادى إلا لاختلاف أنواعه.

هذه محاولة أولى أردناها خالصة للغتنا ولا شك في أنها تحتاج إلى حوار جادّ يصوّب ما جنح منها، وإذا تيسّر لنا الأمر في المستقبل طرحنا نماذج أخرى ابتغاء تسهيلها للمتعلمين، راجين من المشتغلين بهذه المادة أن يقبلوا إعادة النظر في قواعدها بمنهج يقرّبها إلى هذا الجيل الذي نعلق عليه آمالنا في أن يحمل لواء العربية في بلادنا.

هوامش ومراجع

1- عرّف ابن جني (392هـ) النحو بقوله: " هو انتحاء سمت كلام العرب في تصرفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك ليلحق من ليس من أهل اللغة العربية بأهلها في الفصاحة فينطق بها وإن لم يكن منهم وإن شذ بعضهم عنها ردّ به إليها" ، الخصائص، تحقيق محمد علي النجّار، دار الهدى للطباعة والنشر بيروت، لبنان، ط2 (د.ت) ج1 ص34.

2- "فالعربية لغة إعراب، وهو الذي يؤدي ما بين المعاني من فروق، ويعني ذلك أن الوظائف النحوية من فاعلية ومفعولية وإضافة وغيرها في الجملة ناتجة عن الإعراب.يضاف إلى ذلك أن القيمة الإعرابية للكلمة ووظيفتها تتأكد وتثبت بموقعها من الجملة.محمد المنجي الصيادي،التعريب وتنسيقه في الوطن العربي،مكتب دراسات الوحدة العربية،بيروت ص482.

3- الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1977.ج1، ص32.

4- هو عبد الله بن أبي إسحق مولى آل الحضرمي أول من بعج النحو ومدّ القياس وشرح العلل، وكان مائلا إلى القياس في النحو. اعترض على شعر الفرزدق لمخالفته القياس وهجاه الفرزدق. توفي سنة (117هـ). انظر، الزبيدي (379هـ) طبقات النحويين واللغويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ط2، ص31،32. والسيرافي 368هـ)، أخبار النحويين البصريين، تحقيق محمد إبراهيم البنا، دار الاعتصام، ط2، 1985، القاهرة، ص44،45. ومن تلاميذه عيسى بن عمر الثقفي. وقد كان يرد بعض الشعر كقول النابغة:

فبتّ كأني ساورتني ضئيلة .:. من الرّقش في أنيابها السمّ ناقع.

وقال الصواب أن يكون (في أنيابها السمّ ناقعا). وكان يميل إلى النصب كلما وجد إلى ذلك سبيلا. توفي سنة 149هـ. ينظر طبقات النحويين ص43،44.

5- هو زبان بن العلاء التيميّ المازني أخذ عن ابن أبي إسحق وكان أوسع علما بكلام العرب ولغاتها، وهو أحد القراء السبعة وإمام البصرة فيها. توفي سنة 154هـ. ينظر طبقات النحويين ص35.

6- الكتاب ج1 ص72. وسار المعربون على مرّ العصور على تصوّر أن شرح الخليل إعراب فقالوا: ما أحسن عبد الله: جملة اسمية. ما مبتدأ، وأحسن فعل ماض جامد والفاعل (تقديره هو) وعبد الله مفعول به. والجملة الفعلية (أحسن عبد الله) خبر المبتدأ الذي هو (ما). إني أتصور أنها صناعة دعت إليها الضرورة. ولو قالوا: (ما) أداة تعجب (أحسن) صيغة تعجب و(عبد الله) متعجب منه، وكفى. وتكون القاعدة إن جملة التعجب تتكون من ثلاثة أركان : أداة تعجب ومتعجب منه وصيغة تعجب.

7- "قال الخليل رحمه الله:إذا أردت النكرة فوصفت أو لم تصف فهذه منصوبة لأن التنوين لحقها فطالت، فجعلت بمنزلة المضاف لما طال نصب وردّ إلى الأصل كما فعل ذلك بقبل وبعد". الكتاب 199/2. فمذهب الخليل في نصب المنادى-المضاف والنكرة-هو قياسه على قبلك وبعدك أو قبل وبعدُ.

8- ذهب الكوفيون إلى أن الاسم المنادى المعرّف المفرد معرب مرفوع بغير تنوين، وذهب الفراء من الكوفيين إلى أنه مبني على الضم وليس بفاعل ولا مفعول. ابن الأنباري(577هـ)، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تصحيح محمد محي الدين عبد الحميد. دار الفكر ج1، ص323.

رأي المدرسة التوليدية التحويلية
في تحليل الأصوات اللغوية

د.إبراهيم كونغ الجو (*)

تمهيد

تنسب النظرية التوليدية التحويلية إلى اللغوي الأمريكي أفرام نعوم تشومسكي (Avram Noam Chomsky).[1] وكان تشومسكي في التاسعة والعشرين من عمره، حين أصدر كتابه الأول (التراكيب النحوية) (Syntactic Structure) عام 1957 والذي بدأ به الثورة على علم اللغة الوصفي. وفي هذا الكتاب كان يرتكز أساساً على توليد الجملة وتحويلها فقط ولم يكن يتناول علم الأصوات بصورة منفردة، إلا في كتابه(النظام الصوتي للغة الانجليزية)(The Sound Pattern of English)(1968)وكان قد شاركه في تأليف هذا الكتاب العالم المعروف موريس هالي (Morris halle)[2].

وخرج الكتاب متأثراً بنظرية جاكوبسن الذي يرى أن الفونيمات هي ملامح مميزة. وإذا أمعنّا النظر في عنوان الكتاب (النظام الصوتي للغة الانجليزية) لوجدنا أنه لا يقتصر على قواعد اللغة الانجليزية، بل كان يريدها قواعد شمولية أو كلية.ويرى تشومسكي أن علم الفونولوجي التوليدي يتناول الفونيمات كوحدات مميزة في المعنى.والنظرية التوليدية التحويلية لا تتناول هي الأخرى طرق تدريس الأصوات اللغوية.

سنتناول بالبحث في هذا الفصل، الجزء الهام من أعمال تشومسكي مما يتصل بموضوع الدراسة وعرض ذلك بصورة مُيَسَّرة بعيداً عن التعقيدات الفنية في هذه المدرسة التوليدية التحويلية، ولذا سنبدأ أولاً بعرض بعض المصطلحات والمفاهيم التي تضع بين يدي القارئ صورة عامة عن الفونولوجيا التوليدية لكي يستطيع في النهاية أن يقدر آفاق الموضوع وأبعاده وتطبيقه على أصوات اللغة العربية.

1–3–1 الشمولية اللغوية عند تشومسكي

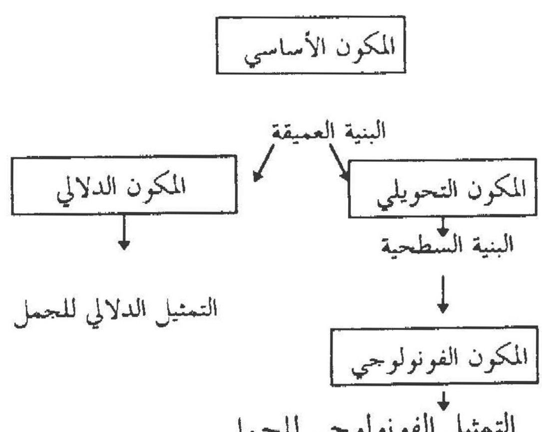
إن هدف المدرسة التوليدية التحويلية الأساسي هو العمل على تكوين نظرية لغوية شاملة (Universal) تنتظم عموم اللغات في العالم[3]. والتمييز بين ما يخص لغة معينة وبين ما يخص اللغات بصورة عامة.

وقد قسم تشومسكي الشمولية اللغوية إلى جزءين، أولهما: كلية منطقية أو شاملة منطقية (Formal Universal) وهي عبارة عن مبادئ عامة تحدد صورة القواعد وشكلها وطريقة عملها من خلال النظم

(*)كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية – السودان

النحوية لعدة لغات معينة [4]. والآخر: شاملة ثابتة (Substantive Universal) وهي عبارة عن شاملة تحدد نظماً من العناصر التي تتصور أو تشكل في قواعد معينة [5]. ويرى تشومسكي مثلاً أن النظرية التوليدية التحويلية تقترح شاملة منطقية باعتبار أنواع القواعد في النحو، على حين أنها تعتبر طبقاً للنظرية اللغوية العامة-عناصر كلية ثابتة [6].

وستناول نظرية علم الأصوات الشمولي في هذا الفصل وهي فرع من فروع علم اللغة العام وكذلك تختص هذه النظرية بمجموعة من التمثيلات الصوتية الممكنة للجمل بوساطة تحديد نظام شامل للملامح الصوتية ويشتق التأويل الصوتي لكل جملة من بنيتها السطحية (Surface Structure) التي تشتق بواسطة قواعد معينة لذا يقتصر اهتمامنا على البنية السطحية والتمثيلات الصوتية وقواعدها[7] ونصوّر العلاقات بين علم الأصوات الشمولي(الفونولوجي التوليدي) وعلم التراكيب(علم النحو)وعلم الدلالة [8]،في الشكل الآتي:



ويمكن أن ننظر إلى المستوى النحوي للجملة على أساس أنه شيء مستقل كلياً أو جزئياً عن النظام الذي تظهر فيه الكلمات متعاقبة ترتبط إحداها بالأخرى.

ونلاحظ أيضاً أن التمثيل الصوتي لكل جملة من بنيتها السطحية عن طريق القواعد الفونولوجية.

1-3-3 اتجاهات التحليل الفونولوجي في المدرسة التوليدية:

والحقيقة أن موقف تشومسكي يشبه موقف عالم اللغة الروسي جاكوبسن الذي استقر به المقام في الولايات المتحدة الأمريكية لعدة سنوات كان خلالها يجهر بالقول ناقداً آراء بلومفيلد ومذهبه في علم اللغة، وكان تشومسكي يشارك جاكوبسن في اعتقاده بأن هناك وحدات فونولوجية ونحوية ودلالية كلية وشاملة قد تشترك فيها اللغات جميعاً ولكنها ليست متحققة بالضرورة في جميع اللغات، بل ربما يتحقق هذا الوجود بصورة مختلفة وأقل اطّراداً مما قد يُوحيه مصطلح الكلية أو الشمولية في لغة معينة، بل يمكن أيضاً التعرف عليها عندما توجد في عدد من اللغات شريطة أن يتم تعريف هذه الوحدات وتحديدها في إطار نظرية لغوية عامة [9] فنحن نعرف مثلاً أن هناك نظاماً فونولوجياً ثابتاً يحتوي على ما يقرب من ست وعشرين وحدة فونولوجية ذات خصائص وسمات أو ملامح مميزة ونعرض هذه الملامح المميزة مع تطبيقها على أصوات العربية. وجدير بالذكر أن تشومسكي تناول الملامح المميزة الصوتية بالصورة الفيزيولوجية، على حين أن جاكوبسن تناول الملامح الصوتية بالصورة الأكوستيكية. [10]

حدوث أي تضييق وهي لثوية مغورة والتوائية وغارية وطبقية ولهوية وحلقية.

ب–2) الملامح المتعلقة بموضع اللسان:(14)

تعتبر الكسرة الممالة /e/ صائتاً محايداً في الملامح المتعلقة بموضع اللسان. وهذه الملامح تختص بالأصوات التي تحدث بعد الحنك الصلب.

1) مرتفع (High) في مقابل غير مرتفع (Nonhigh)

تنتج الأصوات المرتفعة بارتفاع جسم اللسان إلى فوق الموضع المحايد وهي تقابل الأصوات غير المرتفعة.

2) منخفض(Low) في مقابل غير منخفض (Nonlow).

تنتج الأصوات المنخفضة بانخفاض جسم اللسان إلى تحت الموقع المحايد وهي تقابل الأصوات غير المنخفضة.

3) خلفي (Back) في مقابل غير خلفي (Nonback)

تنتج الأصوات الخلفية بتراجع جسم اللسان من الموضع المحايد وتقابل الأصوات غير الخلفية.

ويكون تمثيل هذه الملامح على النحو التالي:(13)

جدول رقم (7)

الملامح \ مواضع النطق	حلقي	لهوي	طبقي	غاري
مرتفع	–	–	+	+
منخفض	+	–	–	–
خلفي	+	+	+	–

وقد تلعب هذه الملامح الثلاثة دوراً هاماً في النطق الثانوي ويشمل ذلك أنواعاً من التعديلات منها:–

أ) التغوير (Palatalization) يفرض الوضع المميز لنطق الصائت/i/

ب) التحليق (Pharyngealization) يفرض الوضع المميز لنطق الصائت /a/

ج) الإطباق (Velarization) يفرض الوضع المميز لنطق الصائت/i/ المركزي ويمثل الجدول التالي الملامح الثلاثة المذكورة أعلاه :–(16)

الملامح \ مواضع	أصوات مغورة	أصوات مطبقة	أصوات محلقة
مرتفع	+	+	0
منخفض	0	0	+
خلفي	–	–	+

(0= محايد)

وقد اتفق تشومسكي وهالي (Chomsky & Halle) على أن الأصوات المحلقة توجد في اللغة العربية ويسميانها أصواتاً مفخمة(17) (Emphatics)،ولقد اختلفت تسمية الملامح الثلاثة عند تشومسكي وجاكوبسن بالصورة الموضحة أدناه.(18)

تشومسكي		جاكوبسن	
مرتفع	High	منتشر	Diffuse
منخفض	Low	متضام	Compact
خلفي	Back	قراري	Grave

ويمكن تمثيل الملامح التحويلية على النحو التالي: [19]

مواضع النطق	خلفي	منخفض	مرتفع	نطعي	أمامي
شفوية	−	−	−	−	+
أسنانية	−	−	−	+	+
غارية	−	−	+	−	−
أسنانية مطبقة	+	−	+	+	+
طبقية	+	−	+	−	−
لهوية	+	−	−	−	−
أسنانية محلقة	+	+	−	+	+
حلقي	+	+	−	−	−
صائت مرتفع أمامي	−	−	+	−	−
صائت مرتفع خلفي	+	−	+	−	−
صائت متوسط أمامي	−	−	−	−	−
صائت متوسط خلفي	+	−	−	−	−
صائت منخفض أمامي	−	+	−	−	−
صائت منخفض خلفي	+	+	−	−	−
ياء انزلاقية	−	−	+	−	−
واو انزلاقية	+	−	+	−	−
مائع أسناني	−	−	−	+	+

4) مستدير (**Rounded**) في مقابل غير مستدير (**Nonrounded**) تنتج الأصوات المستديرة بتضييق فتحة الشفة، على حين أن الأصوات غير المستديرة تنتج بدون حدوث أي تضيق. والأصوات المستديرة لها صلة وثيقة بالأصوات الخلفية كما في الجدول التالي [20]

الأصوات / الملامح	Y	W	a	U	i
خلفي	−	+	−	+	−
مستدير	−	+	−	+	−

5) مُوزّع (Distributed) في مقابل غير موزع (Nondistributed)

تنتج الأصوات الموزعة بالتضييق الذي يمتد مع اتجاه التيار الهوائي إلى أقصى حد ممكن، على حين أن الأصوات غير الموزعة تنتج بالتضييق مع اتجاه التيار الهوائي إلى مدى محدّد [21]

ج) ملامح الصفات:

1) استمراري (Continuant) في مقابل غير استمراري (Stop)

عند إنتاج الأصوات الاستمرارية نجد أن هنالك تضييقاً بدائياً في الوترين الصوتيين إلا أنه يسمح بمرور التيار الهوائي،أما الأصوات غير الاستمرارية نجد أن التيار الهوائي الذي يمر عبر الفم يغلق بصورة فعلية.

2) التسريح الفجائي (Instantaneous Release) في مقابل التسريح البطيء (Delayed Release).

يفرّق هذا الملمح المميز بين الأصوات الانفجارية والأصوات الانفجارية – الاحتكاكية وذلك لأن الأصوات الانفجارية تنتج بالتسريح الفجائي، على حين أن الأصوات الانفجارية-الاحتكاكية تنتج بالتسريح البطيء [22].

3) متوتر (Tense) في مقابل غير متوتر (Lax).

الأصوات المتوترة تنتج بوضوح ويبذل فيها الجهد العضلي بصورة كبيرة، على حين أن الأصوات غير المتوترة تنتج سريعا وتكون أقل وضوحاً من الأصوات المتوترة. [23]

4)مجهور(Voiced) في مقابل مهموس(Nonvoiced).

تحدث الأصوات المجهورة بذبذبة الوترين الصوتيين مع تيار الهواء وكلما كان تيار الهواء متحركاً يساعد في جهر الأصوات وتقابل الأصوات، المهموسة. [24]

5) خشن (Strident) في مقابل غير خشن (Nonstrident)

الأصوات الخشنة تصدر ضجيجاً أكوستيكياً أكثر من الأصوات غير الخشنة. فالأصوات الخشنة هي أصوات استمرارية غير رنانة وانفجارية-احتكاكية، على حين أن الأصوات غير الخشنة هي أصوات إنفجارية ورنانة.[25]

وقد قام تشومسكي بالوصف الفونولوجي على أساس هذه الملامح المميزة كالآتي:-

تتكون كل قاعدة من القواعد الفونولوجية مما يأتي :-

(2) س ← ص/ ف ـــ ق

حيث ترمز (س) إلى عنصر مفرد ، بينما ترمز(ص) إلى سلسلة مركبة من عدة عناصر، وقد تكون من عنصر واحد أحياناً. ولذا فإن (س) و(ص) تمثلان الوحدات الفونولوجية ويشير السهم (←) إلى أن العنصر الخارج عنه السهم يمكن أن يتحول إلى العنصر المتجه إليه، أيْ أنه يمكن أن تحل (س) محل(ص). أما (ف) و(ق) فتشيران إلى الموقع أو السياق الذي تقع فيه (س). وتتضح لنا وظيفة مثل هذه القاعدة في تفسير بعض الظواهر الصوتية في اللغة العربية مثل ظاهرة مماثلة النون للصوت الشفوي الذي يليها، يمكن تمثيل ذلك في القاعدتين التاليتين.

(3) ن ــــم/ ـــــ ب

(4) ن ← م/ ـــــ م

ثم توحد القاعدتان في القاعدة التالية هي:-

(5) ن ← م/ ـــــ صامت

[+ شفوي]

1-3-4 تطبيق هذه الاتجاهات على أصوات العربية:

نتناول تطبيق هذه الاتجاهات فيما يلي:-

(1) الأصوات الرنانة في اللغة العربية هي الأصوات الأنفية والمكررة والجانبية ونصف الصوائت والأصوات الصائتة. أما الأصوات غير الرنانة في اللغة العربية فهي الأصوات الانفجارية والاحتكاكية والانفجارية- الاحتكاكية.

2) الأصوات الصامتة في اللغة العربية هي الأصوات الانفجارية والاحتكاكية والانفجارية- الاحتكاكية والمكررة والجانبية ونصف الصوائت. أما الأصوات الصائتة في اللغة العربية فهي الصوائت.

3) الأصوات النطعية في اللغة العربية هي الأصوات الأسنانية والأصوات ما بين الأسنان، أما الأصوات غير النطعية فهي الأصوات الشفوية والغارية والطبقية واللهوية والحلقية.

4) الأصوات الأمامية في اللغة العربية هي الأصوات الشفوية والأسنانية والأصوات ما بين الأسنان والأصوات اللثوية، أما الأصوات غير الأمامية في اللغة العربية فهي الأصوات الغارية والطبقية واللهوية والحلقية.

5) الأصوات المرتفعة في اللغة العربية هي الأصوات الغارية والطبقية ونصف الصوائت والكسرة والضمة، أما الأصوات غير المرتفعة في اللغة العربية فهي الأصوات اللهوية والحلقية والمكررة والجانبية والشفوية والأسنانية والفتحة.

6) الأصوات المنخفضة في اللغة العربية هي الأصوات الحلقية والحنجرية والأصوات غير المنخفضة هي الأصوات الشفوية والأسنانية والغارية والطبقية واللهوية والمكررة والجانبية ونصف الصوائت.

7) الأصوات الخلفية في اللغة العربية هي الأصوات الطبقية واللهوية والحلقية وصوت الواو والضمة، أما الأصوات غير الخلفية في اللغة العربية فهي الأصوات الشفوية والأسنانية والغارية والجانبية والمكررة وصوت الياء والكسرة والفتحة.

8) الأصوات غير الاستمرارية هي الأصوات الانفجارية

والانفجارية -الاحتكاكية.

أما الراء اللمسية في اللغة العربية فهي غير استمرارية[26].

9) الأصوات المجهورة في اللغة العربية هي أصوات الباء والدال والضاد والجيم والظاء والذال والزاي والغين والعين والميم والنون والراء واللام والواو والياء والأصوات الصائتة.

أما الأصوات المهموسة فهي أصوات الهمزة والتاء والثاء والحاء والخاء والسين والشين والصاد والطاء والفاء والقاف والكاف والهاء.

10) الأصوات الخشنة في اللغة العربية فهي الأصوات الاستمرارية غير الرنانة والأصوات الانفجارية والأصوات الانفجارية -الاحتكاكية، في حين أن الأصوات غير الخشنة هي الأصوات الانفجارية والأصوات الرنانة.

فيما يلي إليك الجدول الذي يمثل خلاصة للملامح المميزة لأصوات العربية طبقاً لنظرية الفونولوجيا التوليدية.

الملامح المميزة لأصوات اللغة العربية الفصحى

ملامح /أصوات	ب	د	ض	ت	ط	ك	ق	همزة	ج	ذ	ظ	ز	غ	ع	ف	ث	س	ص	ش	خ	ح	هـ	م	ن	ر	ل	و	ى	فتحة	كسرة	ضمة
رنانة	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	−	+	+	+	+	+	+	+	+	+
صامتي	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	−	−	−
نطعي	−	+	+	+	+	−	−	−	−	+	+	+	−	−	−	+	+	+	−	−	−	−	−	+	+	+	−	−	−	−	−
أمامي	+	+	+	+	+	−	−	−	−	+	+	+	−	−	+	+	+	+	−	−	−	−	+	+	+	+	−	−	−	−	−
مرتفع	−	−	−	−	−	+	−	−	+	−	−	−	−	−	−	−	−	−	+	−	−	−	−	−	−	−	+	+	−	+	+
منخفض	−	−	+	−	+	−	−	+	−	−	+	−	−	+	−	−	−	+	−	−	+	+	−	−	−	−	−	−	−	−	−
خلفي	−	−	+	−	+	+	+	−	−	−	+	−	+	+	−	−	−	+	−	+	+	−	−	−	−	−	=	−	−	−	+
استمراري	−	−	−	−	−	−	−	−	−	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+
مجهور	+	+	+	−	−	−	−	−	+	+	+	+	+	+	−	−	−	−	−	−	−	−	+	+	+	+	+	+	+	+	+
خشن	−	−	−	−	−	−	−	−	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	+	−	−	−	−	−	−	−	−	−

الهوامش

1) ولد تشومسكي في فيلاديليفيا عام 1928، ودرس علم اللغة والرياضيات والفلسفة في جامعة بنسلفانيا، كما تتلمذ على يد عالم اللغة الأمريكي هاريس (Harris)الـــذي كـــان أستاذا لعلم اللغة بجامعة بنسلفانيا. ويعمل تشومســـكي الآن أستاذاً لعلم اللغة في معهد ماساشوستس للتكنولوجيا (M.I.T) منذ عام 1955م.

2) ولد مورس هالي عام (1924) وتتلمذ على يد جاكبســـون الذي كان يعمل في حقل علم اللغة في جامعة هارفرد ونال درجة الدكتوراه في علم اللغة بإشرافه.

3) N. chomsky & M. Halle, The Sound Pattern of English, P.4.

4) Ibid.,

5) Ibid.,

6) Ibid ,

7) Ibid ., P.7.

8) ميشال زكريا، مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغـــة، ص37.

9) جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية، ترجمـــة حلمـــي خليل، ص237.

10) N. chomsky & M. Halle, Op.cit.,PP.302-329. R. Jakobson, C.G.M. Fant and M. Halle, Op.cit., PP.31-50.

11) N. chomsky & M. Halle, Op.cit. P.302.

12) Ibid ., P.303.

13) N. Chomsky & M. Halle, Op, cit., P.304.

14) Ibid. ,P.305.

15) Ibid. ,P.305.

16) Ibid. ,P.306.

17) Ibid. ,P.306.

18) Ibid. ,P.306.

19) Ibid. ,P.307.

20) Ibid. ,P.309.

21) Ibid. ,P.312.

22) Ibid. ,P.319.

23) Ibid. ,P.324.

24) Ibid. ,P.326.

25) Ibid. ,P.329.

26) Ibid.,P.318

[II] بحوث ودراسات في المصطلحية والترجمة والتوثيق

النظرية الخاصة في علم المصطلح وتطبيقاتها في مهنة المحاماة (*)

د. علي القاسمي(**)

ثقافة المحامي:

ليس ثمة مهنة كالمحاماة من حيث احتياج صاحبها إلى ثقافة معمقة واسعة في جميع ميادين المعرفة الإنسانية. فلكي يدافع المحامي عن إنسان متهم بجريمة قتل مثلا، عليه أن يكون متمرسا بعلم النفس لتحليل الدوافع النفسية الكامنة وراء الجريمة، وملما بمبادئ الطب الجنائي ليستطيع التعامل مع المعلومات الطبية المتعلقة بساعة الوفاة وكيفية وقوعها وغير ذلك، وعارفا بأنواع الأسلحة وأصناف الطلقات ليتمكن من استيعاب ما يدلي به المتخصصون حول تحديد السلاح الذي استخدم في الجريمة، ومطلعا على الدراسات المتعلقة بالعناصر الكيميائية والفيزيائية ليفهم تقارير الخبراء عن المواد الثبوتية، ومتقنا لطرائق الاستدلال والاستنباط المنطقية ليقدر على تمييز القضايا المنطقية الفاسدة التي قد يلجأ إليها الادعاء وهذا غيض من فيض.

المحامي واللغة:

ولما كانت القوانين تُصاغُ بلغة ما، ومرافعة المحامي تجري باللغة كذلك، فإن امتلاك ناصية اللغة، استيعابا وتعبيرا، ضروري لا لمعرفة فصول القانون ومواده منطوقا ومفهوما فحسب، وإنما كذلك لاستخدام اللغة المؤثرة ببلاغتها من غير إطناب ممل ولا إيجاز مخل، والمؤثرة بأسلوب إلقائها للطبوع دون تكلف مصنوع.

التعريف:

ولعل(التعريف) من أهم الأدوات اللغوية والمنطقية والاصطلاحية التي يستخدمها المحامي في مهنته؛ لأن إنزال العقوبة يتطلب أولا تحديد ماهية الفعل ومطابقته للنموذج القانوني للجريمة المنصوص عليها ببعديها المادي والمعنوي. فإذا كان المرء، على سبيل المثال، قد تفوه بشيء ما في حق موظف عمومي، ومثل أمام القضاء بتهمة إهانة موظف عمومي أثناء قيامه بوظيفته طبقا للفصل 263 من القانون الجنائي المغربي، فقد يجد محامي المتهم أن ما قاله موكله (رأيا شخصيا) أو (ملاحظة بريئة) وليس (إهانة) أو (قذفا) أو (سبا علنيا). هنا نحتاج إلى تعريف هذه المفردات خصوصا إذا ما علمنا أن كثيرا من المفردات غير

(*) ألقيت في ندوة عن لغة القانون نظمتها جمعية المحامين في فاس بالمملكة المغربية عام 1997.

(**) المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة - الرباط.

معرّفة في القانون أو معرّفة تعريفا يشوبه النقص. فجميع القوانين تعتورها ثغرات هنا وهناك؛ وقد يكون بعض هذه الثغرات مقصودا، لإضافة المرونة على القانون وفسح المجال لخرق القانون بصورة قانونية.

ثغرات القانون:

تتخذ الثغرات في القوانين ثلاثة أشكال رئيسة:

1) غموض القانون (Obscurité de la loi)أي عدم وضوح معنى النص من لفظه؛ وهنا نحتاج إلى قرائن أخرى لتبيين المعنى الذي رمي إليه المشرّع فعلا، أو المعنى الذي في صالحنا.

2) قصور القانون(Insuffisance de la loi) أي عدم تضمّن النص ما تقوم الحاجة إليه من أحكام جزئية أو تفصيلية. ويمكن أن يستغل المحامي هذا القصور لمصلحة موكله.

3) سكوت القانون (Silence de la loi)أي عدم ورود حكم في القانون يتناول الحالة أو النازلة المعروضة. وقد يساعد هذا السكوت الجاني على الإفلات من الجزاء طبقا لمبدأ (لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص سابق). وهذا ما حصل في الولايات المتحدة الأمريكية أول عهدها بانتشار الحاسوب عندما اطلع بعض الفتيان على أسرار الدولة عن طريقه فاضطر المشرّع إلى إضافة قوانين تجرّم الاستعمالات الجنائية للحاسوب.

تعريف الإهانة:

ومن الأمثلة على هذه الثغرات الثغرة المتعلقة بتعريف الإهانة في مثالنا السابق والمنصوص عليها في الفصل 263 من القانون الجنائي المغربي؛ إذ ينص هذا الفصل على ما يلي:

" يعاقب بالحبس من شهر إلى سنة وغرامة من مائتين وخمسين إلى خمسة آلاف درهم، من أهان أحدا من الموظفين العموميين أو من رؤساء أو رجال القوة العامة أثناء قيامهم بوظائفهم أو بسبب قيامهم بها، بأقوال أو إشارات أو تهديدات أو إرسال أشياء أو وضعها أو بكتابة أو رسوم غير علنية وذلك بقصد المساس بشرفهم أو بشعورهم أو الاحترام الواجب لسلطتهم" .

في هذا الفصل (المادة) يشترط في القول الذي ينطبق عليه النموذج القانوني أن يكون بقصد المساس بشرف الموظف أو بشعوره أو الاحترام الواجب لسلطته.ولنفترض أن مواطنا كان يراجع موظفا عموميا للحصول على شهادة رسمية، ولاحظ أن الموظف كان متشاغلا مرة بشرب القهوة ومرة بالحديث مع زميلته، ومرة بالهاتف. ثم قال المواطن للموظف: " يا سيدي، أنت تتهاون في عملك". ويلاحظ هنا أن التهاون والإهانة والهوان (وهو الذل والاحتقار) مشتقة من جذر واحد في اللغة. وكان قصده من ملاحظته الإسراع في الحصول على الشهادة وليس المساس بشعور الموظف أو بشرفه، فهل ينطبق عليه الفصل المذكور؟

إذن نحن هنا في حاجة أولا إلى تعريف لفظ (الإهانة) تعريفا شافيا، أو تعريفا جامعا مانعا كما يقول المناطقة بحيث نخرج منه القول الذي يمكن أن

يُعدّ (ملاحظة) أو (رأيا) وحرية التعبير عن الرأي يكفلها القانون. ونحن بحاجة، ثانيا، إلى دحض وجود قصد الإهانة لدى موكلنا لأن المشرّع المغربي لا يعاقب على الجنايات والجنح، إلا إذا توفر الركن المعنوي، أي إلا إذا توفرت النية الإجرامية. وهذا هو نص الفصل 133 من القانون الجنائي المغربي:" الجنايات والجنح لا يعاقب عليها إلا إذا ارتكبت عمدا."

أركان الجريمة والتعريف:

وبعبارة أخرى فإن محامي الدفاع يسعى إلى هدم أحد أركان الجريمة الثلاثة:

1) الركن القانوني

2) الركن المادي

3) الركن المعنوي

وعلى الرغم من الترابط القائم بين هذه الأركان الثلاثة فإن الركنين الأول والثالث (أي القانوني والمعنوي) يعتمدان إلى حد ما على تعريف عناصرهما اللفظية والنفسية، بعكس الركن المادي الذي يتوقف على فعل إجرامي، إيجابي كالقتل والسرقة والنصب، أو سلبي كالإحجام عن مساعدة شخص في حالة الخطر أو عدم التبليغ عن جريمة. وكثيرا ما يبحث المحامي عن ثغرة في أحد الركنين القانوني والمعنوي.

أنواع التعريف:

ويتأتى كثير من الثغرات في القوانين عادة من التعريفات مناط الاختلاف بين اللغويين والمناطقة والمصطلحيين. فإذا طلبنا من أحدهم تعريف لفظ (العين)، قال اللغوي: ضعه في جملة لأستطيع تعريفه. وقال المنطقي: أرني الشيء أو الذات الذي يدلّ عليه هذا اللفظ لأعرّفه لك. وقال المصطلحي: قل لي لأي حقل علمي ينتمي مفهومه لأتمكن من تعريفه. وبعبارة أخرى، هل نريد معرفة معنى الكلمة في سياقها اللغوي، أم نتوخى معرفة خصائص الشيء الذي تدل عليه تلك الكلمة، أم معرفة خصائص المفهوم الذي تعبر عنه تلك الكلمة.

وهكذا نجد أنفسنا أمام ثلاثة أنواع من التعريفات:

1) التعريف اللغوي، ويسميه بعضهم بالتعريف العلاقي، لأنه يوضح معنى الكلمة في سياقها اللغوي، أي من خلال علاقاتها مع الألفاظ الأخرى المكوّنة، للجملة. فكلمة (العين) يختلف معناها في الجملتين الآتيتين: (نظر إلى حاله بعين العطف) و(شرب من عين جارية)، وذلك بسبب السياق في كل منهما.

2) التعريف المنطقي، ويسميه بعضهم بالتعريف الجوهري، لأنه يسعى إلى تحديد الخصائص الجوهرية للشيء أو الذات، وليس للفظ الذي يدل عليه. وهنا يمكن أن يصاغ العريف المنطقي في واحد من قالبين هما:

أ- التعريف بالحد، أي تحديد نوع الشيء المعرّف وفصله، فعندما نعرّف الإنسان (حيوان ناطق) يدل الشق الأول على النوع الذي ينتمي إليه الإنسان، أما الشق الثاني وهو النطق فبمثابة الفصل الذي يميز الإنسان عن بقية أفراد النوع الحيواني. وهذه هي الخصائص الجوهرية للإنسان.

ب- التعريف بالوصف، وفيه تذكر الخصائص

الجوهرية وغير الجوهرية للشيء المعرّف، فإذا عرّفنا الإنسان بأنه حيوان منتصب يمشي على رجلين ويسمع وينطق، نكون قد استخدمنا تعريفا بالوصف.

3) التعريف المصطلحي، الذي لا يعرّف اللفظ ولا يعرّف الشيء الذي يدل عليه اللفظ وإنما يعرّف المفهوم أو التصور الحاصل في الذهن عن الشيء. ويتكون هذا التصور من الخصائص المنطقية والوجودية لمجموعة من الأشياء. فالتصور الحاصل في أذهاننا للسيارة لا يمثل سيارة مرسيدس أو سيارة فولكس فاكن من نوع الخنفساء ولا سيارة بورش المكشوفة، وإنما تصور للخصائص المشتركة لهذه السيارات المتعددة الأشكال والأنواع والمحركات. وهذا ما يطلق عليه في علم المصطلح بالمفهوم.

الكلمة والمصطلح:

ولا يسمى اللفظ الذي يدل على المفهوم كلمة بل (اصطلاحا) او (مصطلحا). ويمكننا أن نميز بين (الكلمة) و(المصطلح) بعدّة طرق:

الأولى: أن نقول بأن للكلمة معنى في حين أن للمصطلح مفهوما.

الثانية: أن نقول إن الكلمة تنتمي إلى لغة العامة، أما المصطلح فينتمي إلى لغة متخصصة؛ أي اللغة العلمية أو التقنية. فإذا قلنا (شعرت بالعطش فشربت الماء) فلفظ (الماء) هنا كلمة تنتمي إلى لغة العامة. أما إذا قلنا في درس الكيمياء (إن الماء يتكون من ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأوكسجين) فالماء هنا مصطلح ينتمي إلى اللغة العلمية.

ولا نستطيع أن نعرّف المفهوم بدقّة ما لم نحدد موقعه من النظام المفهومي للحقل العلمي الذي ينتمي إليه. فالمفاهيم تنتظم في أنظمة مفهومية تعطيها معناها وتهبها دلالتها. فإذا ذكرنا عبارة (الضوء الأصفر) مجردة فإنها تنتمي إلى اللغة العامة. ولكن إذا أدخلنا الضوء الأصفر في نظام معلوم أصبح رمزا أو مصطلحا لمفهوم معين. فعندما نضع الضوء الأحمر والضوء الأصفر والضوء الأخضر في ترتيب معين وفي إطار معين عند تقاطع الطرق، أصبح لدينا منظومة لإشارات المرور وأصبح لكل ضوء مفهومه الخاص. وتنمي هذه المنظومة إلى نظام مفهومي أوسع أو حقل مفهومي أكبر يمكن أن نطلق عليه اسم نظام المرور أو حقل المواصلات.

النظام المفهومي القانوني:

ويعدّ القانون، بطبيعة الحال، حقلا علميا متخصصا، له نظام مفهومي متكامل. وفي داخل هذا الحقل العلمي هناك منظومات مفهومية مترابطة تشكل بأجمعها النظام المفهومي للقانون. ومن أمثلة هذه المنظومات المفهومية منظومات القانون العام، والقانون الخاص، والقانون الدولي العام، والقانون الدولي الخاص، والقانون الإداري، والقانون الجنائي، وقانون العقوبات، وقانون تحقيق الجنايات (أو كما يسمى أحيانا قانون أصول المحاكمات الجزائية)، والقانون المدني، والقانون المالي، والقانون التجاري، وقانون التجارة البحرية، وقانون المرافعات المدنية والتجارية (أو قانون أصول المحاكمات المدنية)،

والأحوال الشخصية.وكل حقل علمـــي أو نظـــام مفهومي قابل للتوسع فتنضـــاف إليـــه منظومـــات مفهومية جديدة. فالنظام المفهومـــي للمواصـــلات، مثلا، قد يتوسع ليشمل في المستقبل منظومة مفـــاهيم المواصلات بين الكواكب. والنظام المفهومي القانوني قد يضم في المســـتقبل منظومـــة مفـــاهيم قـــانون المواصلات الفضائية، وهكذا تـــتزايد المصطلحـــات بازدياد المفاهيم. ومفاهيم كل منظومة من المنظومات تشترك في خصائص معيّنة تميزهـــا عـــن مفـــاهيم المنظومات الأخرى، على الرغم من التقـــاء جميـــع مفاهيم هذه المنظومات بخصائص عامة مشتركة.

المحامي والتعريف المصطلحي:

ولكي يعرّف المحامي مصطلحا قانونيا ما ينبغـــي عليه أن يحدد المنظومة المفهومية التي ينتمي إليها ذلك المصطلح: هل هي منظومة القانون الجنائي أم منظومة الأحوال الشخصية، مثلا؟ ثم يحد الخصائص الرئيسة للمفهوم الذي يعبّر عنه ذلك المصطلح.ثم يحدد موقع ذلك المفهوم في منظومته المفهومية من خلال علاقاته بالمفاهيم المجاور المتصلة به. ويستطيع المحامي أن يعـــدّ قائمة بالخصائص التي يشترك فيها المفهوم موضـــوع البحث مع المفاهيم الأخرى المجاورة له المتصلة بـــه، وقائمة أخرى بالخصائص التي ينفرد بها دون ســـواه من المفاهيم، لتتضح الصورة.

قِدم المصطلح القانوني وشيوعه في اللغة العربية:

إن صعوبة تحديد العنـــاصر الجوهريـــة المميـــزة للمصطلح القانوني في اللغة العربية نابعة من كونه من أقدم المصطلحات التقنية في بلاد العرب وأوســـعها انتشارا لا بفضل الشريعة الإسلامية فحسب، وإنمـــا كذلك لأن بلادنا مهد التشريعات ومهبط الرسالات السماوية ومنها أخذ العالم كيفية تنظيم العدالـــة في المجتمع. و لم يكن الملك البابلي حمور ابـــي (1792-1750ق.م.) أقدم من سنّ القوانين، وإنما، في حقيقـــة الأمر، أقدم من جمع القوانين في مدونة واحدة سطّرها على مسلة كبيرة وضعت في مدخل مدينـــة بـــابل ليعرف المواطنون حقوقهم وواجباتهم. ولكن الرسم الذي ظهر في أعلى المسلة أعطى الانطباع الخـــاطئ بأن تلك القوانين جديدة كل الجدّة؛ فالرسم يبـــين الملك حمورابي واقفا أمام إلاه الشمس الجالس علـــى العرش وهو يتسلم منه العصا وشريط القياس وهمـــا علامة العدل آنذاك، كما نستعمل اليوم علامة الميزان دلالة على العدل.إن حمورابي جمع القوانـــين الـــتي كانت سارية المفعول في زمانه وأضاف إليها ورتبها في مدونة واحدة، نالت من الشهرة والانتشار ما يسرّ لها التأثير في غيرها من الشرائع التي جاءت بعدهـــا. ولكن حمورابي سُبق في ميدان التشريع من لدن كثير من ملوك السومريين خاصة المشرع العظيـ[illegible] الملك كارنيجا الذي سبق حمورابي بحوالي ألف عام.

إن لتأصّل المصطلح القانوني وشـــيوعه في اللغـــة العربية فوائده بلا شك، بيد أن قِدم المصطلح القانوني وشيوعه يؤديان إلى شحنه بحمولة نفسية واجتماعيـــة تجعل من الواجب التعامل معه بحذر شديد، لئلا يتسرب إلى مفهومه خصائص جوهرية أو عرضية مـــن العـــرف

والعادات الاجتماعية مما لم يقصدها المشرع الوضعي.

التعريف والتفسير:

قد يختار المحامي نوع التعريف الذي يخدم أغراضه؛ فيلجأ إلى التعريف اللغوي تارة، ويختار التعريف المنطقي تارة أخرى، ويفضّل التعريف المصطلحي مرة ثالثة. ولكنه قد يجد في بعض الحالات أن التعريف وحده لا يفي بالغرض، ولا بد من التفسير.

وإذا كان التفسير في معناه الفلسفي يعني محاولة إعطاء تصور لنشأة الوجود أو الكون وموقع الإنسان منه، فإن التفسير في معناه اللغوي يعني إظهار معنى النص وكشف المقصود من الألفاظ. والفرق بين التعريف والتفسير هو أن التعريف يهدف إلى إجلاء معنى لفظ واحد في حين أن التفسير يرمي إلى توضيح معنى نص كامل بجميع ألفاظه. والتفسير القانوني أو تفسير القوانين(Interprétation des lois) يعني تبيين معنى القاعدة القانونية المتضمنة في نص مكتوب.

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسات الإسلامية حازت قصب السبق والإبداع في مجال التفسير. فتفسير القرآن الكريم علم قائم بذاته له أصوله ومبادئه وقواعده. كما تطورت قواعد التفسير كذلك على أيدي الأصوليين أي علماء أصول الفقه، وهو مجموع القواعد التي يتوصل بها العالم المجتهد إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها، وفي مقدمة هذه الأدلة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ويدور أكبر مبحث من مباحث علم الأصول حول تحديد دلالة الظاهر من اللفظ على معناه؛ وهذا هو التفسير.

المدارس الفكرية القانونية في التفسير:

ينقسم علماء القانون الوضعي الحديث إلى مدرستين فكريتين:

الأولى، مدرسة التفسير الضيق، أو تفسير التضييق (Interprétation restrective) التي لا تسمح بمدّ حكم النص إلى ما لم يتناوله.

والثانية، مدرسة التفسير الواسع،أو تفسير التوسع Interprétation extensive التي تدعو إلى استخدام الأدوات المنطقية واللغوية لمدّ حكم النص إلى غير ما جاء فيه.

وغني عن القول أن لهاتين المدرستين الفكريتين جذورهما في المذاهب الفقهية الإسلامية (ونفضل تسميتها بالمدارس الفقهية) التي سبقتها بأكثر من ألف عام. ويكفي التذكير هنا بمذهب الإمام مالك في المدينة، الذي يُسمى أصحابه بأهل الحديث، ومذهب الإمام أبو حنيفة في الكوفة، الذي يُسمى أصحابه بأهل الرأي.

القياس وتفسير القوانين:

وتستخدم المدرسة الفكرية القانونية الثانية، التي تدعو إلى التوسع في تفسير نصوص القانون، مجموعة من الأدوات اللغوية والمنطقية لتحقيق غرضها. ومن أهم هذه الأدوات القياس(Analogie) وهو مد حكم حالة أو واقعة منصوص على حكمها في القانون إلى حالة أو واقعة غير منصوص على حكمها، لاتحادهما في العلة، ويتخذ القياس شكلين أساسين هما:

عليها في القانون إلى واقعة غير منصوص عليها، لاتحاد العلة.

2) مفهوم المخالفة: ويعني إعطـاء واقعـة غـير منصوص عليها خلاف حكم الواقعة المنصوص عليها، لاختلاف العلة.

وقبل أن يتناول المحامي النص القانوني بالتفسـير عليه أن يتأكد من نفاذه وسريانه الزماني؛ فـالقوانين تتعرض للإلغاء والنسخ (Abrogation des loi) وقـد يكون هذا الإلغاء صريحا(Abrogation expresse) بنص يقضي صراحة بتحديد مدة سريان القـانون منـذ البداية، أو إلغاء ضمنيا(Abrogation tacité)نتيجـة لصدور قانون لاحق يتناول الوقائع الـتي ينظمهـا القانون السابق أو يتعارض معه كليا أو جزئيا.

لغة القانون واللغة القانونية:

يفرّق بعضهم بين لغة القانون واللغة القانونيـة، فيستعمل المصطلح الأول للدلالة على صياغة مواد أو فصول القانون، في حين يستعمل المصطلـح الثـاني للإشارة إلى اللغة التي يستعملها القضـاة والمحـامون وكتاب العدل وغيرهم من أبناء المهنة، وتختلف عادة عن اللغة العامة لاشتمالها على عـدد كبـير مـن المصطلحات القانونية التي لا يستعملها عامة الناس في حياتهم اليومية.

وقد تطورت لغة القانون بمرور الأيام، فبعـد أن كانت المواد تبدأ بالعقوبة التي تلحق بالجريمة فيقـال، مثلا، يعاقب بالحبس من فعل كذا، أصبحت تبـدأ بالنموذج القانوني للجريمة ثم تذكر العقوبة.

الخاتمة:

يتضح مما مرّ ذكره أن المحامي يحتاج في ممارسـة مهنته إلى ثقافة واسعة من ضمنها دراية بعلم المصطلح وعلم اللغة. ومن المفيد جـدا أن تتضمـن مناهج كليات الحقوق دروسا في هذين الحقلين. ولعل هذه الحاجة تفسر لنا لماذا تبدأ دراسة القانون في الجامعات البريطانية والأمريكية بعد حصول الطـالب علـى الإجازة (الليسانس أو البكلوريوس) في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وليس كما هو الحـال عندنـا في البلاد العربية حيث يلتحق الطلاب بكليات الحقـوق بعد المدرسة الثانوية مباشرة.

المراجـع

- اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية، مصطلحات قانونية (بغداد: المجمع العلمي العراقي، 1974).
- أحمد سوسة، حضارة العرب ومراحل تطورها عبد العصور (بغداد: وزارة الإعلام، 1979).
- حارث سليمان الفاروقي، المعجـم القـانوني (بيروت : مكتبة لبنان: 1970).
- عبد السلام بنحدو، الوجيز في القانون الجنائي المغربي (مراكش: دار وليلي، 1997).
- علي القاسمي، مقدمة في علم المصطلح (بغداد: الموسوعة الصغيرة، 1985).
- فوزية عبد الستار، مبادئ علم الإجرام وعلـم العقاب (بيروت: دار النهضة العربية، 1985.
- محمد النجار، دروس في المصطلحات القانونية (الرباط: نشر الكرمل، 1991).

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
مكتب تنسيق التعريب

سلسلة المعاجم الموحدة
رقم : ٩

المعجم الموحد

لمصطلحات الجغرافيا

(انجليزي - فرنسي - عربي)

١٩٩٤

المصطلح العلمي ومجاله الاستعمالي
في المعجم العربي المعاصر

د. الجيلالـــي حـــلام (*)

من المعلومات الثقافية التي يحرص المعجم اللغوي المعاصر على توفيرها، تحديد المجالات الاستعمالية للـــدلالات الاصطلاحية.

والاصطلاح كما يعرّفه الشريف الجرجاني (816هـ/1413م) : (إخراج اللفظ من معنى لغوي إلى آخر لمناسبة بينهما. وقيل: الاصطلاح: اتّفاق طائفة على وضع اللفظ بإزاء معنى..)[1].

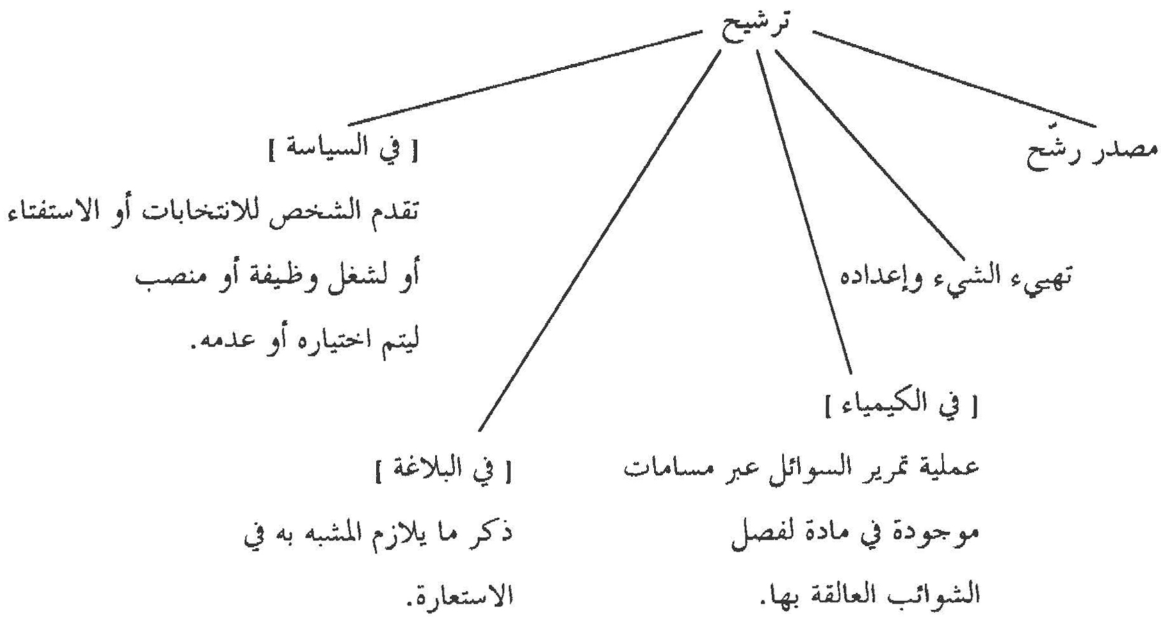
وهذا يعني أن المصطلح: (Le Terme) كلمة اكتسبت دلالة خاصة، في مجال من المجالات العلمية أو الفنيـــة أو الثقافية، لدى طائفة من المتخصّصين في حقل من الحقول، وبذلك يحتاج إلى تعيين وتعريف خاص به، يصفه كمفهوم ويميّزه عن غيره من المفاهيم داخل المجال المستعمل فيه[2].

ويبدو أن المعاجم العربية -اللغوية بخاصة- لم تول أهمية كبيرة لهذه القضية إلا منذ وقت قصير نسبيا، فما زال تصنيف العلوم وضبط مجالات الاستعمال محدودين في المعاجم العربية المعاصرة، كما سيتّضح لنا ذلك في الصفـــات التالية.

لقد ظلّت المعاجم العربية القديمة متحفّظة في هذا الإطار، ولعلّ الفيروزآبادي (817هـ/1414م) في معجمـــه القاموس المحيط، يمثل أول محاولة في تجاوز الدلالات اللغوية وتسجيل نسبة كبيرة من المصطلحات العلمية والفنيـــة. وليس هذا معناه أن المعاجم العربية القديمة عامة لم تكن تدرك أهمية المصطلح، فقـــد نبّـــه الخوارزمـــي الكـــاتب (387هـ/997م)، صاحب مفاتيح العلوم[3] إلى هذه القضية منذ أواخر القرن الرابع الهجري؛ وإنما القصد هـــو أنهـــا كانت تفصّل في معاجم مختصة، ولا تدرج ضمن المعاجم اللغوية. وهذا لا يعني أيضا أنّنا نطالب المعجـــم اللغـــوي بترصّد جميع المصطلحات الأكثر خصوصية، فنحمّله فوق طاقته ونبعده عن هدفه اللغوي، وإنما المطلـــوب هـــو أن يترصّد أهمّها من ذوات التداول الواسع بين الناس، متبوعة بتعاريف موجزة تناسب هدفه، مؤكدا ذلك بـــالتنصيص على المجال أو الحقل المعرفي الذي ينتمي إليه المصطلح.

(*) أستاذ مساعد بجامعة سيدي بلعباس / الجزائر

ويعتبر تحديد مجال الاستعمال في المعاجم اللغوية ضرورة منهجية ويمثل جزءا لا يتجزأ من التعريف، وبخاصة من حيث ترتيب الدلالات وتقريب الفهم وتسهيل عملية الإدراك. ويتجلّى ذلك في المشتركات اللفظية أكثر، كما يتّضح من النموذج التالي:



تحديد المجال في المعاجم العربية المعاصرة:

إن استقراء المعاجم العربية المعاصرة، من حيث تحديد مجالات الاستعمال، وضبط رموزها، يوقفنا على أن هناك تفاوتا واضحا بينها في استثمار هذه التقنية. ويتجلّى هذا التفاوت سواء على مستوى ضبط المجال من خلال التعاريف أو على مستوى صياغة الرموز الخاصة بذلك، والإشارة إليها في مقدمة المعجم.

وتوضيحا لهذه المسألة نقدّم النماذج التالية:

أ) المنجد في اللغة:[4]

- الرّشح: (طب) انصباب مادة مخاطية، تسيل الرقيقة منها من الأنف وتحدث زكاماً.
- النقطة: في الهندسة: ما كانت أطوالها منعدمة.
- الجبر: علم من العلوم الرياضياتية، تستخرج به المجهولات باستخدام حروف وعلامات مشهورة.

ب) الوسيط:(5)

- الرّقابة: (في الاقتصاد السياسي) تدخّل الحكومة أو البنوك المركزية في سعر الصرف، وتسمّى : رقابة الصرف (مج).

- المدبّج: (في مصطلح الحديث) رواية الأقران سنّا وسندا.

جـ) المعجم العربي الحديث:(6)

- الترشيح (بد): التقوية بما لا يلائم المعنى المقصود و هو أنواع، التشبيه والمجاز والاستعارة.

- التكعيب : (ريـ): التربيع (**)

د) القاموس الجديد: (7)

- ضرب : والضرب في الحساب هو تكرار عدد مّا مرات بقدرما في عدد آخر من الوحدات

- تقسيم : عند الموسيقيين هو أن يعزف أحدهم قطعة موسيقية على آلة طرب واحدة.

هـ) المحيط(8)

- السوادية: في علم الزراعة، فطر السواد، وهو جنس نباتات مجهرية طفيلية من فصيلة السواديات ورتبة الفطور...

- السوداء: في الموسيقى، علامة قيمتها ربع قيمة العلامة المستديرة.

و) الأساسي(9):

- تنغيم : [في علم الأصوات] توالي درجات صوتية مختلفة، أثناء النطق مثل اختلاف التنغيم في عبارة " لا يا شيخ ".

- تخارج : [في الفلسفة] علامة منطقية بين كلمتين أو صفتين ليس بينهما عامل مشترك، عكسه تداخل.

وإذا تمعنّا في النماذج المذكورة وغيرها، اتضح لنا أنّ المعاجم العربية المعاصرة تتباين في استثمار مجالات الاستعمال، وأمكننا التمييز بين مجموعتين:

1 - مجموعة تذكر المجال ضمن التعريف، في عبارة محصورة بين قوسين عاديين أو معقوفين، أو تنصّ على ذلك مباشرة، ويمثل هذه المجموعة كلّ من الوسيط والأساسي والمحيط.

2 - مجموعة تنصّ على المجال برموز خاصة كما في المنجد والمعجم العربي الحديث.

ومن الملاحظات التي يمكننا إثباتها في هذا الصدد، أن المعاجم العربية المعاصرة عامة، لا تقوم في توزيعها لهذه المجالات وفق خطّة مدروسة مبنية على أساس منطق تصنيف العلوم والفنون ضمن مجالات معيّنة، مما أدّى إلى إهمال

** هناك فرق بين التكعيب والتربيع في الرياضيات.

الإشارة إلى كثير من المجالات، وعدم الالتزام بالنصّ عليها في كلّ الحالات.

فقد نجد نوعا من الالتزام كما في الوسيط والحديث والأساسي والمحيط، وقد تأتي الإشارة إليها عرضا فقط، أو في حالات خاصة كما في المنجد والقاموس الجديد.

وبموازنة الرموز المستخدمة في كلّ من المنجد والمعجم العربي الحديث، نجد الأول يثبت 20 رمزا والثاني 22 رمزا، علما بأن مجالات العلوم والفنون الأكثر تداولا في المعاجم المعاصرة تتجاوز المائة. وعند مقارنة الرموز والمختصرات المثبة في المعجمين من حيث التوحيد - كما يتّضح من الجدول [ي/1]- نجدهما لا يتّفقان سوى في تسعة مجالات هي: (الطب، الحساب، الفلك، النبات، الكيمياء، الموسيقى، الهندسة، الحيوان، الفيزياء)، بحيث ينفرد المنجد بـ 11 مجالا، والحديث بـ 13 مجالا آخر.

المنجد في اللغة[10]				المعجم العربي الحديث[11]			
مجال	رمز	مجال	رمز	مجال	رمز	مجال	رمز
الطب	طب	فن البناء	ب	طب	ط	تشريح	تش
ع الحساب	ع ح	ع الجبر	ع.ج	ع.الحساب	ح	حشرات	ح
ع.الفلك	فك	تجارة	ت	ع.الفلك	فل	رياضيات	ريـ
نبات	ن	طبخ	ط	نبات	نيـ	صوتية	صو
كيمياء	ك	عسكري	أ ع	كيمياء	كيـ	فقه	فقـ
موسيقى	مو	في جميلة	ف ج	موسيقى	مو	قانون	قا
هندسة	هـ			هندسة	هنـ	ع. كلام	كل
ع.الحيوان	ح			حيوان	حيـ	منطق	منـ
ع.الفزياء	ف			فيزياء	فيـ	ع.النفس	نفـ
صناعة	ص			جغرافيا	جغـ		
ع.حيل	حي			ع اجتماع	إج		
ع.الأرض	ط أ			اقتصاد	إق		
زراعة	ز			بديع	بد		
ع.أعضاء	ع أ						

[جدول ي/1]

أمّا من حيث شكل المختصر، فلا يتّفقان سوى في رمز واحد هو (مو) للدلالة على مجال الموسيقى. ولا يقف الاختلاف عند هذا الحدّ، بل نجد بعض الرموز تتداخل بين المعجمين في الإشارة إلى مجالات مختلفة؛ فالمنجد يرمز للحيوان بالرمز (ح) ويجعله الحديث رمزا لعلم الحساب، و (ط) للطبخ، وفي المعجم الحديث للطبّ، مما يعد الهوة بين المعاجم.

ولا شكّ في أن هذا الحصر المحدود للمجالات، والتباين في أشكال الرموز يعدّ قصورا لا يخدم تطور تقنيات المعاجم العربية المعاصرة، ما لم تتدخل المجامع اللغوية والمنظمات العربية لحصرها وتوحيد رموزها، وفتح المجال أمام المعجميّين لاستثمارها في المعاجم.

وبمقارنة الرموز والمختصرات الواردة في الجدول [ي/1] بما جاء في المعاجم الفرنسية، نجد المجالات المذكورة في المعاجم العربية ضئيلة جدًا؛ فمعجم روبير الصغير[12] يثبت زهاء 150 رمزا لمجالات الاستعمال المختلفة، ويقاربه في ذلك كلّ من لاروس الصغير[13] وكيّي[14]. مما يجعل نسبة استثمار المعاجم العربية من هذه الرموز – أعني المنجد والمعجم العربي الحديث– إلى المعاجم الفرنسية تقدر بـ 1 إلى 6 تقريبا.

وتأكيدا لهذه الثغرة نورد فيما يلي قائمة بأهم مجالات الاستعمال في المعاجم الفرنسية المذكورة آنفا مجتمعة: انظر جدول [ي/2].

(أهم مجالات الاستعمال في المعاجم الفرنسية)

آثار	بستنة	جراحة	سمعبصري	طب إشعاعي
إحاثة	بوظيات	جيولوجيا	سيارات	طيور
إدارة	بترولیات	جغرافيا	سلاح	ظواهرية ع
أجنّة	بصريات	حلي	ساعاتية	عسكرية
أساطير	بناء	حدادة	سكك ح	عراقة
اقتصاد	بلوريات	حيوان	سينما	عرافة
أنثروبولوجيا	بورصة	حذاءة	سلاليات	عمارة
إلكترونات	بنوك	حشرات	سياسة	ع نفس(ع)
أحياء	بيطرة	حصون	سيمائية	ع نفس(ت)
أنسجة	تشريح	حلويات	شعاراتية	ع نفس(م)
ألعاب	تشجير	خطاطة	شعوذة	ع نفس (إج)

أدبيات	تنجيم	خبازة	صيد بحري	عروض
أخلاقيات	تاريخ	خياطة	صناعة	غراسة
إشهار	توجيه ع	خيالة	صقارة	غابيات
أوسمة	تعليمانية	خرائط	صحافة	فقه
اجتماعيات	توثيق	دين	صحة	فلاحة
إحصائيات	تصوير	ديموغرافيا	صيدلية	فنون (ج)
اختزالية	تشريفات	دبلوماسية	صوتيات	فنون
أثاثيات	تلفزة	ذرة ع	صرف	فلك
إذاعة	تعليم	رياضيات	طيران	فضاء
إسلام	تصوف	رسم	طرز	فيزياء
بريد	تكييف	رقص	ع.طباع	فلسفة
بلاغة	جماليات ع	رصد جوي	طبخ	فيزيولوجيا
بكتيريا	جرثوميات	رياضة	طباعة	فروسية
بيئة	جزارة	زراعة	طقوس	قذافة
قانون	معارفية	مقاييس		
قنص	معلوماتية	مسرح	نحليات	
كيمياء	مساحة	مدفعية	نبات	
كهرباء	مشروبات	معادن	نجارة	
كتابة	مالية	موضة	نسيج	
كشافة	مياه	موسيقى	نحو	
لسانيات	مصوغات	مناهجية	نوريات	
لعب	منطق	مسكوكات	نقود	
لاهوت	موانئ	مناجم	هندسة	
مواصلات	ميكانيك	مكتبيات	وراثة	
ملاحة		نحت	وراقة	

جدول [ي/2]

ويتّضح من الجدول السابق أن المعاجم الفرنسية المعاصرة أكثر استخداما لمجالات الاستعمال، فقـــد ضمّـــت القائمة زهاء 160 مجالا، أوردتها المعاجم المذكورة سابقا في شكل مختصرات موحّدة، وهي مجالات لا تثبت المعـــاجم المعاصرة مجتمعة، منها أكثر من 60 مجالا، أي ما يعادل 37٪ فقط مما يؤكّد وجود ثغرة كبيرة في المعاجم العربيـــة في هذا الإطار؛ وهي ثغرة يجب سدّها بتحديد أهمّ هذه المجالات وتوحيد مختصراتها.

المراجع والهوامش:

1 -الجرجاني، السيد الشريف: التعريفات. تونس، الدار التونسية للنشر، 1971، ص16.

2 - Felber.H. Manuel et terminologie, paris. Mouton, 1990, p.136.

3 - الخوارزمي الكاتب، محمد: مفاتيح العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية (د : ت)، ص ص 2،3.

4 - معلوف، لويس: المنجد في اللغة والأعلام، بيروت، دار المشرق، ط 21 / 1973، ص،ص 261، 833، 78.

5 - مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، القاهرة، مطابع دار المعارف بمصر، ط2/1393هـــ 1973م، ص ص 363، 269.

6 - الجرّ، خليل: المعجم العربي الحديث (لاروس): باريس، مكتبة لاروس، 1987، ص ص 288،210.

7 - ابـــن هادية، وآخرون. القاموس الجديد للطلاب، تونس، الشركة التونسية للتوزيع، الجزائر الشركة الوطنية للتوزيـــع 1979، ص ص 584، 210.

8 - اللجمي، أديب: المحيط/ معجم اللغة العربية، باريس، دار المحيط، 1993 ص723.

9 - م.ع.ت.ث.ع/ المعجم العربي الأساسي: باريس، مطبعة لاروس، 1989، ص ص1212، 387.

10 - معلوف، ل: م.س.ص (هــ)، المقدمة.

11 - الجرّ، خليل: م.س.ص (يــه).

12 - -- P. Robert. Dictionnaire de la langue Francaise. paris, 1991 - Le Robert. p. XIII

13 - -- Petit Larousse en couleurs, Paris, Larousse 1980. p. XXII

14 - -- Quillet: Dictionnaire quillet de la langue Francaise Paris, Aristide Quillet, 1975. Preface.

لا اتزان إلا بالأوزان

الأستاذ / إدريس بن الحسن العلمي (*)

مثل لغة الضاد مع أبنائها كمثل أعظم بطل عالمي في السباق، عمد قومه إلى يديه فأوثقوهما من خلف، ثم أنحوا عليه باللائمة لأنه لم يكن مبرزا في المباراة؛ ثمّ قيّدوا يديه مع رجليه وأنّبوه على عدم ولوجه حلبة السباق.

لقد كثر منذ مطلع هذا القرن الذي أشرف على الانصرام - النحيب والتحسر والشكوى من تخلف لغة العروبة، و"قصورها" عن أداء ما استجدّ وما يستجدّ من مفاهيم ومصطلحات علمية، وتقنية، وفنية، وحضارية. وخاض الخائضون في تعليل "القصور" و "الضعف"، وذهبوا في تعليلاتهم كل مذهب، حتّى إنّ بعضهم لم يتردد في اتّهام بنية اللغة العربية نفسها، وندبوا حظّها لكونها "تنقصها" القابلية "للزوائد"(**Les affixes**)"بما فيها"الصدور"(**Les préfixes**) و "الأواسط"(**Les infixes**) و"الكواسع" (**Les suffixes**) جازمين بأن مشكلة لغة الضاد الكبرى هي "افتقارها" لهذه الزوائد مع عدم قابليتها لها "لسوء حظها" وأنّ على أبنائها أن ينكبّوا على معالجة هذا "النقص" إن كانوا يريدون للغتهم مجاراة غيرها من لغات الدول المتقدمة التي ما كانت لتتطور وتساير التقدم العلمي والحضاري لولا اتخاذها تلك "الزوائد".

لكنّ أولئك "الناصحين" جهلوا، أو تجاهلوا، أو على أحسن تقدير، غفلوا عن أنّ الله قد أنعم على لغة القرآن بما لم ينعم به على أي لغة، فحباها ميزة أعظم وأكمل وأشمل وأجمل وأوفى بالتعبير عن الغرض وعن القصد من ميزة "الصدور" و "الأواسط" و "الكواسع" ميزة تتصل ببنية اللغة نفسها: ألا وهي الأوزان اللفظية، الدالّ كل وزن منها على غرض أو أغراض معيّنة. فللدلالة على كل من الآلة ومكان الفعل، ومسبب الفعل، والمرض، والمرة من الفعل، والهيئة، والحرفة، والمحترف، والمبالغة، والفاعلية، والمفعولية، والكثرة، والقلة، والقابلية، والمطاوعة، والاشتراك في الفعل، وأسماء الألوان، وأسماء العاهات والمعايب الخلقية، والنفايات إلخ...فللدلالة على كل غرض من هذه الأغراض وغيرها وزن خاص أو عدد محدود من أوزان معيّنة.

وقد أوصل اللغويون عدد هذه الأوزان إلى ألف ومائتين وعشرة أوزان (**1210**).

وهذه الأوزان هي أشبه ما يكون بقوالب المصانع التي تصب فيها مادة الإنتاج فتصوغ لك منتجات على

(*) الدار البيضاء (خبير سابق بمكتب تنسيق التعريب)

أشكالها وأحجامها. فقوالب الأوزان تصب فيها المادة اللفظية فتعطيك ما أنت راغب فيه من ألفاظ سائغة، جزلة، دقيقة المعنى. وأنت لا تحتاج معها إلى مصنع ولا إلى آلة و لا إلى مجمع لغوي، يكفي أن تكون لديك مادة تتكون من ثلاثة حروف لتحصل على اللفظ الذي ترغب فيه. وهي ميسورة الاستعمال، وفي متناول كل عربي. فكم من لفظ صاغه رجل الشارع العربي بسليقته على صيغة وزن من هذه الأوزان فشاع وذاع وتناولته أقلام الكتّاب وألسنة المذيعين من أمثال "ثلاجة" و "غسّالة" و حصّادة" إلخ...

فالمشكلة الكبرى التي تعترض بنت عدنان هي إعراض كثير من الممارسين عمل التعريب عن توظيف كل الأوزان التي تدعو الحاجة إلى توظيفها. وذلك يتجلى بوضوح في الكثير ممّا عربوه أو ترجموه من مصطلحات في مختلف المجالات.

ففي كل وزن من تلك الأوزان تكمن قوة للدفع باللغة. فعندما نتخلّى عن استعمال هذه الأوزان للأغراض المجعولة لها فإننا نعطّل قوتها ثم نقيم مأتما للبكاء على "ضعفها" و "قصورها" و "تخلفها".

إننا لا ننكر الجهود المبذولة في هذا السبيل من لدن بعض الهيئات من أمثال مكتب تنسيق التعريب في الوطن العربي بالرباط ومجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع العلمي العراقي ببغداد، كما لا ننكر جهود بعض رواد تعريب المصطلحات العلمية من أمثال الدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي(16)، والأمير مصطفى الشهابي والدكتور محمود الجليلي (9)، بيد أن تلك المنجزات وغيرها مما لم نشر إليه – مع نفاستها – ليست سوى بصيص في حالك من ظلمة لن تنقشع إلا بإحداث منهجية اشتقاقية تأليفية دراسية، لنا إلمام بها في ختام هذا البحث.

ونحن في هذه العجالة إنما نريد الإشارة إلى بعض الثغرات التي تحصل في عمل التعريب من جرّاء إعراضنا عن توظيف "الأوزان" تلك الطاقة الخلاّقة في لغة الضاد. فنسوق بعض الأمثلة التي تشخّص تهافت عمل التعريب الذي يتجاهل وجودها.

فمن هذه الأوزان التي تشتدّ الحاجة إليها في تعريب المصطلحات العلمية والحضارية وزن "مَفْعَلَة" بفتح الميم والعين، على وزن "مَرْتَبَة" و "مدرسة".

"مَفْعَلَة"

أكثر ما يستعمل وزن "مَفْعَلَة" لثلاثة أغراض:

1 – لإِفَادَةِ معنى مُسَبِّب الشيء، أو مُكَوِّن الشيء أو مُنْشِئِ الشيء، أو مُوَلِّد الشيء، ونسمي في هذا البحث "مَفْعَلَة" الدالّة على هذا المعنى بِـ "مَفْعَلَة "السَّبَبِيَّة".

2 – لإِفَادَة معنى المكان الذي يكثر فيه الشيء، ونسميها "مَفْعَلَة المكانية".

3 – لإفادة مجرّد المصدر الميمي، ونسمّيها "مَفْعَلَة المصدرية"، وهذه الأخيرة لاتهمنا في هذا البحث.

"مَفْعَلة السَّبَبية":

من أمثال العرب "الوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ" أي يُسَبِّبُ البخل، ويُسَبِّب الجبن لوالديه.

جاء في معجم "لسان العرب"[1] لابنِ منظـــور في مادة "بخل":

"المَبْخَلَةُ: الشيء الذي يحملك على البخـــل. وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "الوَلَــدُ مَجْبَنَــةٌ، مَجْهَلَةٌ، مَبْخَلَةٌ "هو من البخل، ومَظَنّة لأن يحمل أبويه على البخل". هــ.

وأورد نفس المعجم في مادة "هرم" عند كلامه على لفظ "مَهْرَمَة" الحديث النبوي التالي: "تــرك العشــاء مَهْرَمَة" أي مَظَنّةٌ للهرم. قال القتبي: "هــذه الكلمــة جارية على ألسنة الناس قال: ولست أدري أرسول الله ابتدأها أم كانت تقال قبله" هــ.

وروى الترمذي وأحمد والحاكم عن أبــي أمامــة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"عليكم بقيام الليل فإنّه دأب الصــالحين قبلكــم، وهو قربة إلى ربكم ومَكْفَــرَةٌ للسـيئات، ومَنْهَــاةٌ "للإثم" وفي رواية: "ومَطْرَدَة للداءِ عن الجسد"[2].

وروى البخاري والشافعي والنسائي عن عائشــة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

"السواك مَطْهَرَةٌ لِلفَم، مَرْضاة للربّ". وشـــرح مؤلف كتاب"التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول.

(2)" (الذي اقتبسنا منه هــذا الحديــث) كلمــة "مَرْضاة" بقوله: "أي سبب في رضاه". وروي عـــن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "نَوْمَــةُ الصبحــة مَعْجَزَةٌ، مَنْفَخَةٌ، مَكْسَلَةٌ، مَوْرَمَةٌ، مَفْشَلَةٌ، مَنْسَــأَةٌ للحاجة": أي أنّها تسبّب العجز والنفــخ للجســد، وتسبّب الكسل، وتكوّن الورم، وتســـبّب الفشــل، وتسبّب نَسْءَ الحاجة، أي تأخيرها.

فوزن "مَفْعَلَة" بهذه الدلالة، لــــه مجــال واســع للاستعمال في تعريب المصطلحات العلمية وخصوصاً في اصطلاح الطب واصطلاح الكيمياء(أ).

بيد أنّنا لا نجد لوزن "مَفْعَلَة" أثــــراً في "المعجــم الموحد" (الانكليزي-العربــي-الفرنســي. الطبعــة الثالثة)[3] الذي أصدره ''اتّحاد الأطباء العـــرب'' في سنة 1983، بل نجد في مظانّ "مَفْعلة" من المعجم فراغا اصطلاحيا شغلته شروح للمصطلحات الأعجميـــة. فقبالة المصطلح الأعجمي لا نجد مقابلا عربيا يصحّ أن يكون مصطلحا، بل نجد أحد الشروح التالية: "مكوّن كذا" أو مولّد كذا " أو منشئ كـــذا "أو ''محــدث كذا'' فالجمهور العربي ينتظر من المشتغلين بالتعريب أن يمدّوه بمصطلحات، لا بشـــروح للمصطلحـــات. فشروح المصطلحات الأعجمية تتكفل بها المعـــاجم الأعجمية المختصة على نحو أفضل و أوسع وأكمل.

فعندما نبحث -مثلا- في "المعجم الطبي الموحـــد" (3) عن المصطلح "**Adipogène**" نجد قبالته بالعربيـــة: "مكوّن الشحم". فلو أن مؤلفي المعجم أفسحوا المجال لوزن "مَفْعَلَة" لوضعـــوا قبالـــة المصطلـــح كلمـــة ''مَشْحَمَة'' بدلا من ''مكوّن الشحم''، ولوضعـــوا قبالة المصطلح "**Ostéogène**" كلمة "مَعْظَمَة" بدلاً من مكوّن العظم، ولوضعوا قبالـــة "**Neurogène**" كلمـــة "مَعْصَبة" بدلاً من "مكوّن للعصب'' ولوضعوا قبالـــة "**Ovigène**" كلمة "مَبْيَضة" بدلاً من "مكوَن البيضـــة" ولوضعوا قبالة " **Toxicogène** و **Toxogène**" كلمـــة

"مَسَمَّة" بدلا من "مولد السم"، ولوضعوا قبالة "Acidogène" كلمة "مَحْمَضَة" بدلا من "مولّد الحمض" ولوضعوا قبالة "Erythrogène" كلمة "مَحْمَرَة" بدلا من "منشئ الحمر"، ولوضعوا قبالة "Gastrogène" كلمة "مَدْرَقَة" بدلا من "محدث الدراق"، ولوضعوا قبالة "Asthmogène" كلمة "مَرْبَوَة" بدلا من "مولد الربو"، ولوضعوا قبالة "Nephrogène" كلمة "مَكْلَوَة" أو "مَكْلاَة" بدلا من "مكوّن الكلوة"، ولوضعوا قبالة "Thermogène" كلمة "مَحَرَّة" بدلا من "مولد الحرارة" ولوضعوا قبالة "Androgène" كلمة "مَذْكَرَة" بدلا من "أندروجين"، ولوضعوا قبالة "Calorigène" كلمة "مَحْرَرَة" بدلا من "مولد الحرور"، ولوضعوا قبالة "Cétogène" كلمة "مَكْتَنَة"، بدلا من "مولد الكيتون". إن المعجم لم يمتنع عن وضع مصطلحات على وزن "مفعلة" فحسب، بل إنه أوصد دفتيه في وجه المصطلح "مَوْرَمَة" الذي هو على وزن "مفعلة"، والوارد في الحديث النبوي الذي أسلفناه، والذي يعني "مكون الورم". فالمعجم قابل المصطلح الأعجمي "Oncogène" بالعبارتين التاليتين: 1) مكون الورم 2) وَرَمِيُّ المنشأ.

فالمصطلح "مَوْرَمَة" لفظ متأصل في لغة الضاد منذ أن كانت للعرب لغة. ثم هو وارد في كلام أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من وضع مجمع لغوي، ولا هيئة تعريبية حتى يكون لمؤلفي المعجم الخيار في قبوله أو رفضه، بل هو يفرض وجوده في الاصطلاح الطبي قبالة "Oncogène" في معناه "مكون الورم" بنفس القوة التي يفرض بها لفظ "الطب" وجوده قبالة لفظ "La médecine".

"افتعال" للالتهاب

نجد في "مجموعة قرارات مجمع اللغة العربية" بالقاهرة القرار التالي(4):

" لا مانع من أن تكون صيغة "الافتعال" مشتقة من العضو، قياسيا، بمعنى المطاوعة للإصابة بالالتهاب".

جل الأمراض الالتهابية في الاصطلاح الطبي الأعجمي تنتهي بالكاسعة "ite" في اللغة الفرنسية، و "itis" في الإنجليزية. أورد منها "المعجم الطبي الموحد" ثلاثمائة وتسعة (309)، وقابلها كلها بكلمة "التهاب" مضافة إلى اسم العضو المصاب. ولا نجد من بينها مرضا واحدا جاء اسمه العربي على صيغة "افتعال" مشتقة من اسم العضو المصاب طبقا لقرار "مجمع اللغة" الموقر. فما الذي يمنع مؤلفي المعجم أن يطبقوا قرار المجمع فيضعوا -مثلا- قبالة "gastrite" كلمة "اغْتِدَاد" بدلا من "التهاب الغدة"، وقبالة "glossite" كلمة "التِسان" بدلا من "التهاب اللسان"، وقبالة "dermatite" كلمة "اجْتِلاَد" بدلا من "التهاب الجلد" وقبالة "blépharite" كلمة "اجتِفَان" بدلا من "التهاب الجفن" إلخ..

فهذه العبارات التي أثبتها المعجم قبالة المصطلحات الأعجمية المتكونة من مفردات هي كما أسلفنا القول ليست بمصطلحات وإنما هي شروح للمصطلحات.

وهذا الأسلوب في التعريب لا يسمن ولا يغني من

جوع. ثم هو يحكم على اللغة العربية بـــالتخلف في ميدان الاصطلاح العلمي. ولقد سبق لنا أن نشرنا في العدد السادس من مجلة "اللسان العربي" الصـــادر في سنة 1969 مجموعة مما قمنا بتعريبه على وزن "افتعال" من هذه الفئة من المصطلحات الدالة على الالتهـــاب والمنتهية بالكاسعة "ite" طبقا لقرار المجمع الموقر (ب).

وزن "تَفْعَال" قبالة الصدر "Hyper" (4)

من القرارات اللغوية التي اتخذها كذلـــك "مجمـــع اللغة العربية" بالقاهرة جزاه الله خيرا، القراران التاليان:

1) "تصح صياغة "التفعال" للمبالغة والتكثير ممـــا ورد فيه فعل، طوعا لما أقره المجمع في دورته العاشرة، من صوغ مصدر من الفعل على وزن ((التفعـــال)) للدلالة على الكثرة والمبالغة، وكذلك تصح صياغته مما لم يرد فيه فعل طوعا لما أقره المجمع في دورته الأولى، من جواز الاشتقاق من أسماء الأعيان للضرورة في لغة العلوم".

2) في ترجمة المصطلحات الأجنبية المبدوءة بالصدر "Hyper" تستعمل كلمة "فرط" مقابلة له، والمبـــدوءة بالصدر "Hypo" تستعمل في مقابلة كلمة "هبط".

فجرى (المعجم الطبي الموحد) على منوال القـــرار الثاني للمجمع، وجرى الدكتور محمود الجليلـــي(5)، عضو المجمع العلمي العراقي على منوال القرار الأول، فجاءت مصطلحات (المعجم الطبي الموحـــد) بمثابة شروح لمصطلحات الدكتور الجليلي المنشورة في الجزء الثاني من العدد الرابع والثلاثين من"مجلة المجمع العلمي العراقي" كما سيلاحظ القارئ من المقارنة التالية (5):

مصطلح الدكتور الجليلي	مصطلح المعجم الطبي الموحد	المصطلح الأعجمي
1 – تَحْمَاض	فرط الحموضة	1) Hyperacidité
2 – تَنْشَاط	فرط النشاط	2) Hyperactivité
3 – تَأْلاَم	فرط التألم	3) Hyperalgésieé-Hyperalgie
4 – تَقْرَان	فرط التقرن	4) Hyperkératose
5 – تَحْرَاك	فرط الحراك	5) Hypercinésie
6 – تَدْهَان الدم	فرط دهن الدم	6) Hyperlipémie
7 – تَصْبَاغ	فرط التصبغ	7) Hyperpigmentation
8 – تَنْسَاج	فرط التنسج، تزيد	8) Hyperplasie
9 – تَفْرَاز	فرط الإفراز	9) Hypersécrétion
10 – تَحْسَاس	فرط الإحساس	10) Hypersensitivité
11 – تَضْغَاط	فرط ضغط الدم	11) Hypertension
12 – تَهْوَاء	فرط التهوية	12) Hyperventilation

و لم يضع المعجم الطبي الموحد المذكور على وزن "تَفَعَال" سوى لفظ "تَقْيَاء" الذي جعله قبالة المصطلح "Hyperémèse"، وهنا نتساءل ما الذي يمنع إذن مؤلفي المعجم أن يجروا في تعريبهم سائر المصطلحات المبدوءة بالصدر "Hyper" مجراهم في تعريب المصطلح فيجعلوها كلها أو جلها على صيغة "تَفْعال"؟! (ت)

فنحن نهيب بأساتذتنا الأفاضل، أعضاء "اتحاد الأطباء العرب" أن يراجعوا منهجهم هذا الذي يسجل على لغة العروبة عجزا صوريا هي سليمة منه، وقصورا وتقصيرا هي بريئة منهما، ويزكي تخلفا فرضه عليها أبناؤها بمثل هذا السلوك المتحفظ من توظيف الأوزان لصياغة المصطلحات.

"فُعال" للداء(6) و فَعُول" للدواء(6)

جاء في كتاب "فقه اللغة وسر العربية" للعلاّمة اللغوي أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (رحمه الله) ضمن "الباب السادس عشر في صفة الأمراض والأدواء" فصل" في سياق ما جاء منها على "فُعَال" ما يلي:

"أكثر الأدواء والأوجاع في كلام العرب على "فُعَال": كالصُّدَاع، والسُّعال، والزُّكام، والبُحاح، والقُحاب، والخُنان، والدُّوار،والنُّحاز، والصُّدام، والهُلاس، "والسُّلال، والهُيام، والرُّداع، والكُباد، والخُمار، والزُّحار، والصُّفار، والسُّلاق" والكُزاز، والفُوَاق، والخُنَاق"(ث).

"كما أن أكثر أسماء الأدوية على ''فَعُول'': كالوَجُور، واللَّدُود، والسَّعوط، واللَّعُوق، والسَّنُون، والبَرُود، والذَّرُور، والسَّفُوف، والغَسُول، والنَّطُول''

واعتبارا لكثرة مجيء الأدواء في كلام العرب على وزن "فُعَال" وعلى وزن "فَعَل" اتخذ مجمع اللغة العربية بالقاهرة القرار التالي:

"بما أن الضرورة العلمية في وضع المصطلحات تقتضي استعمال صيغة "فَعَل" "للداء يجاز اشتقاق "فُعَال" و"فَعَل" للداء سواء أورد له فعل أو لم يرد".

ونحن قياسا على لفظ "كُبَاد" المذكور أعلاه، والوارد في ''المعجم الطبي الموحد'' قبالة المصطلح الفرنسي "Hépatose" (الذي يعني انخفاض الكبد بسبب ارتخاء معاليقها) نقترح إقرار لفظ ''مُنَاع'' المشتق من "المناعة" على وزن "فُعَال" للداء المعروف الآن بـ "فقد المناعة'' (سيدا SIDA).

ومن الإنصاف أن نقول إن جل أسماء الأدواء المذكورة أعلاه على وزن "فُعَال" موجودة في "المعجم الطبي الموحد'' وكذلك جملة وافرة من أسماء الأدواء على وزن "فُعَال" وعلى وزن "فَعَل".

وزن "أفْعَل" لمعايب خلق الإنسان(6)

جل معايب خلق الإنسان جاءت على "أفْعَل" نسوق منها قليلا من كثير:

أعوَر، أعرَج، أصْلَع، أقْرَع، أقْعَس، أحْدَب، أبْكَم، أخْرَس، أطْرَش، أصَم، أعوَج، ألْثَغ إلخ..

وزن "أفْعَل" للألوان كذلك(6)

"أخْضَر، أحمر، أصفر، أبيض، أسود، أسمر، أزرق، أشهب، أدكن إلخ...

وزن "فُعَالَة" للنُّفايات(6)

على سبيل المثال نقتبس من "فقه اللغة" للثعالبي:

"بُرَاية العود، بُرَادة الحديد، قُرَامة الفرن، حُـــزَازة الوسخ، نُسَالة الوبر والريش، عُصافة السنبل، مُشَاطة الشعر، خُلاَلة الفم، قُرَاطة السراج، خُرَاطة، نُشَارة، نُحَاتة إلخ...

ولا نود أن نسترسل أكثر من هذا القدر في عرض مختلف الأوزان التي قلنا عنها إنها تفوق الألف، والذي نريده بالسرد الذي قمنا به هو التنبيه أو التذكير بعظمة خطورة الأوزان في اللغة العربية. وكيف لا وهي منها تتكون بنيتها، فالأوزان بالنسبة للغة الضاد بمثابة الهيكل العظمي لجسم الإنسان. فكلام العرب كله مــوزون أوزانا وظيفية تجعل لغتهم منظمة، ومقعّدة، ومصنفة تصنيفا منطقيا جماليا دلاليا كأنهم قدروها تقديرا قبل أن يتكلموها، فكأنهم اجتمعوا في أكاديميــة لغويــة اجتماعات عديدة لم ينفضّوا منها حتى اتفقوا علـــى قواعدها وتحديد صيغ أوزانها، وتخصيص كل منهـــا للدلالة على فئة متجانسة من أشـــياء أو أعمـــال أو أحوال أو مفاهيم مادية ومعنوية... الشيء الـــذي لا تستطيع ولن تستطيع أن تفعل مثله ولا قريبـــا منـــه، أكاديميات الدول المتزعمة الحضارة في هذا العصـــر. لكنه صنع الله الذي أتقن كل شيء قد هيأها لتحتضن وحيه ورسالته العالمية الموجهة إلى جميع البشر في جميع العصور على مرّ الدهور، مما جعل المفكر الفرنســـي الحانق على العرب والإســـلام "إرنســـت رينـــان" يتعجب فيقول في كتابه (تاريخ اللغات السامية):

"من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية، وتبلغ درجة الكمال، وسط الصحاري عند أمة مـــن الرحّل، تلك التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها، و لم يعرف لها في كـــل أطوار حياتها طفولة ولاشيخوخة. ولا نكاد نعلم من شأنها إلا فتوحاتها، وانتصاراتها التي لا تبـــارى، ولا نعرف شبيها لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملـــة من غير تدرج، وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة، وهذه ظاهرة عجيبة، لاسيما إذا اعتبرنا مدى مساهمة الفلسفة الإسلامية في تكوين علم الكـــلام، خـــلال القرون الوسطى، والدور الذي قام به في ذلك كل من ابن سينا، وابن رشد، وما كان لهما من تأثـــير علـــى أشهر مفكري المسيحية"(7).

ويصف فيكتور بيرار اللغة العربية في القرن الرابـــع الهجري بأنها أغنى، وأبسط وأقوى، وأرق، وأمـــتن وأكثر اللهجات الإنسانية مرونة وروعة. فهي كـــنز يزخر بالمفاتن، ويفيض بسحر الخيال، وعجيب المجاز، رقيق الحاشية، مهذب الجوانـــب، رائـــع التصويـــر، وأعجب ما في الأمر أن البدو كانوا هم سدنة هـــذه الذخائر، وجهابذة النثر العربي جبلة وطبعا. ومنهـــم استمد كل الشعراء ثراءهم اللغـــوي وعبقريتهـــم في القريض".

ويقول (إغناطيوس كرانشوفســـكي: "أول مـــا نلحظه من أول نظرة نلقيها على هـــذه اللغـــة -أي العربية- الغنى العظيم في الكلمـــات، والإتقـــان في الشكل، والليونة، والتركيب(9).

ويقول (بلاشير) اللغوي المعجمي ''اللغة العربية خلاقة وبناءة" (9) فالكمال الذي بلغته لغة الضاد والذي يتحدث عنه (بلاشير) كل ذلك مرجعه إلى الأوزان، فالأوزان هي اللغة العربية واللغة العربية هي الأوزان.

ولا ينبغي أن يفهم مما تقدم أننا نحصر ملاحظتنا بشأن توظيف "الأوزان" في مجال الطب وحده، أو في ميدان العلوم على العموم، بل إننا لنحجم عن توظيف الأوزان حتى في تعريب المصطلحات الحضارية، والمتصلة منها بحياتنا اليومية.

فنحن -مثلا- عندما نعرب "Cabine téléphonique" بـ "غرفة الهاتف" كما هو في "المنهل"(10) القاموس الفرنسي العربي، تأليف الدكتور جبور عبد النور والدكتور سهيل إدريس، وكما هو في "المنجد" الفرنسي(11) العربي إصدار دار المشرق أو "مخدع الهاتف" كما هو في غيرهما، فإنما نعطّل وظيفة الوزن المخصص للمكان وهو ''مَفْعِل'' فيما كان عين فعله المضارع مكسورة، و"مَفْعَل" فيما عدا ذلك. ولو وظفنا هذا الوزن لأعطانا لفظ ''مَهْتِف'' على وزن ''مَنْزِل" و"مَجْلِس" بمعنى "مكان للهاتف". والمكان هو المقصود بالعبارة الفرنسية لا شكل المكان. ثم إن ترجمة لفظ "cabine" بـ "الغرفة" ترجمة غير صحيحة لأن اللفظ الفرنسي لا يقتضي معنى العلوّ وأكثر ما تكون "cabine" أرضية بينما لفظ "الغرفة" يعني حسب ''المعجم الوسيط'' تأليف مجمع اللغة العربية بالقاهرة وحسب (لسان العرب) لابن منظور "العِلّيّة" وزاد هذا الأخير من معانيها ''السماء السابعة'' في القرآن الكريم: "لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار''. (سورة الزمر الآية 20).

وعندما نعرب ''standard téléphonique" بـ "مَقْسِم هاتفي" كما هو في "المنهل" (10) وفي "المنجد''(11) فإنما نعطّل الأوزان المخصصة للآلة وأكثرها استعمالا "مِفْعَل" و "مِفْعَال" و مِفْعَلَة" ولو استعملنا -مثلا- وزن ''مِفْعَال'' لأعطانا لفظ "مِهْتَاف" ولعرّبنا المصطلح "Standardiste" بـ "مِهْتَافي" بدلا من هذه العبارة الطويلة:

"عامل المقسم التلفوني" التي في "المنهل"(10) وبدلا من ''عامل مقسم هاتفي" التي في "المنجد"(11) الفرنسي العربي. ولو كنا وظفنا ''مَفْعَلَة'' المكانية لأعطتنا "مَهْتَفَة" لنقابل بها "téléboutique" أي المكان الذي تكثر فيه ''المَهَاتِف'' جمع ''مَهْتِف''. فمن القرارات التي اتخذها مجمع اللغة العربية بالقاهرة القرار التالي: ''تصاغ "مَفْعَلَة" قياسا من أسماء الأعيان الثلاثية الأصول للمكان الذي تكثر فيه هذه الأعيان سواء أكانت من الحيوان أم من النبات أم من الجماد''(4).

وعندما نعرف "communication téléphonique" بـ "مخابرة هاتفية" كما في "المنهل"(10) أو "مكالمة هاتفية" كما هو شائع في المغرب فإننا نغفل عن اتخاذ وزن "مُفَاعَلَة" من مادة "هَتَفَ" وإلا لكنا عرّبنا العبارة الفرنسية بلفظ "مُهَاتَفَة"، ولجعلنا لفظ "مُهَاتِف" للمخاطب بالهاتف فنقول مثلا "مَنْ مُهَاتِفِي" أو مَنِ

المُهاتِف؟ " لإفــادة معنى العبارة الفرنسية المتداولــة "qui est à l'appareil".

الأمثلة كثيرة على تقييدنا يدي لغتنا، وامتناعنا من إطلاقهما للعمل، وذلك بعدم اهتمامنا باستغلال كل إمكاناتها التي توفرها الأوزان عندما نهتدي إلى تعريب مصطلح أعجمي، فلا نشتق من مادة المصطلح العربي (الذي وضعناه قبالته) جميع ما يتصل به من اسم الآلة والحرفة والمكان إلخ... مما تدعو الحاجة إلى تعريبه.

ونكتفي هنا بإيراد مثال واحد على سبيل البيان:

لقد استخرج أحد الغوّاصين في بحر اللغة درة ثمينة طالما اشتدت حاجة لغة الضاد إليهـا لتقـابل بهـا المصطلح الأعجمي "Dactylographier" الذي كـان يترجم بـ "ضرب على الآلة الكاتبة". وذلك عندمـا عثر في (المخصص) لابن سيده ضمن فصل الكتابـة على فعل "رَقَنَ" مع شرحه: "رَقَنَ: كتـب كتابـة واضحة" فتقدم به إلى المعهد المغربي "معهد الدراسات والأبحاث للتعريب" بالرباط الذي عمل على نشره في المغرب وفي تونس، ولكن لم يشتق منـه حتـى الآن سوى لفظ "راقنة" ليقابل "Une dactylographe" ولفظ "رِقَانَة" ليقابل dactylographie فلو أننا التفتنا إلى بقية الأوزان لأمدتنا باسم الآلة "مِرْقَنَة" ولأمدتنـا بـوزن "فَعْلَة" للمرة في صيغة "رَقْنَة" ليقابل "une frappe" و لأمدتنا بالوزن المخصص للمكان "مَفْعَل" في صيغـة "مَرْقَن" ليقابل عبارة "Pool de dactylos" ليعني المكان الذي يضم الراقنين والراقنات. وذكر ابن سـيده في نفس الفصل "الرّقان ما يُرْقَنُ به" فيمكن جعله قبالـة "Ruban pour machine à écrire". ثم يمكننا أن نشتق منه على وزن "فَاعُول" أو "فَاعُولة" اللذين تستعملهما العرب للدلالة على الآلة الكبيرة فنصوغ منـه لفـظ "رَاقُون" لنقابل به "Télex". فمما جاء على هذا الوزن في كلام العرب "ناقوس" (ناقوس الكنائس الكبير)، و "ناعورة" ومن المولّد على هذا الوزن "نَافُورَة".

كما يمكننا أن نصوغ منه فعل "رَاقَنَ" لنقابل بـه فعـل "Télexer" ووزن المحترف "رَقَّـان" ليقـابل "Télexiste" وتبقى سائر الأوزان بالمرصاد لما يستجد ويحدث من مصطلحات أعجمية في هذا المضمـار: مضمار الرقانة.

ومن عوامل طمس عبقرية اللغة الخلط بين بعـض أوزانها الناجم عن توهّم الترادف فيما بينها، فنجعـل الواحد مكان الآخر غافلين عن أننا عطّلنـا وظيفـة أحدهما أو كليهما وبذلك أحدثنا التباسا خطـيرا أو فراغا اصطلاحيا فرضناه على اللغة فرضا جائرا.

"فَعَلَ" و "فَعَّلَ"

فقلّما يعني "فَعَّل" المضعف العين ما يعنيه "فَعَـلَ" المخفف العين سواء بسواء. فمن أقـوال الصرفيـين: "الزيادة في المبنى زيادة في المعنى". ففَعَّل المضعف يعني المبالغة في "فَعَل" المخفف. فـ "كَسَّرَ" يعني بـالغ في الكسر ومصدره "التكسير" و "قَطَّعَ" يعني بـالغ في القطع، ومصدره "التّقطيع" بخلاف "كَسَرَ" و "قَطَعَ" المخففين فهما لا يعنيان سوى مجرد الكسر والقطـع بدون مبالغة ولا تكثير. وبشأنهما اتخذ "مجمع اللغـة العربية" بالقاهرة القرار التالي: "فَعَّلَ المضعف مقيـس

للتكثير والمبالغة"(4) ولكن هذا لم يمنع الكثيرين من استعمال أحدهما مكان الآخر فـ "كَسَّرَ" المضعف يقابله في الفرنسية فعل "briser" و "كَسَرَ" المخفف يقابله فعل "casser" و"قَطَعَ" المخفف يقابله "couper" و"قَطَّعَ" المضعف يقابله "Découper" فعندما نستعملهما مترادفين قبالة "couper" مثلا كما هو جار به العمل. فماذا يحدث؟ الذي يحدث هو أننا نفقد مقابل "découper" فنضطر إلى استعمال عبارة كاملة لمقابلته مثل "قطع قطعا صغيرة" ثم نتحسر على "فقر" اللغة العربية التي "لا تملك" مقابلا للفظ "découper" مكونا من لفظ واحد كما في الفرنسية.

ويتحسر مثل هذا التحسر من يشعر كذلك بـ "الفقر" الموهوم من يرادف أو يخلط بين "صَنَعَ" (Fabriquer) و "صَنَّعَ" (industrialiser) أو بين مصدريهما "صُنْع" (Fabrication) و "تَصْنِيع" (Industrialisation) والأمثلة كثيرة.

ولا تنحصر عوامل طمس عبقرية اللغة في تجاهلنا الأوزان والإعراض عن توظيفها أو الخلط فيما بينها، بل عوامل الطمس متعددة ومتنوعة، وأكثر من أن تحصى فتذكر، ونكتفي منها بما يحضرنا عفواً ساعة تحرير هذا البحث.

تعجيم الأسلوب التعبيري

إن شدة حرص المترجمين على التشبث الأعمى بألفاظ العبارات الأعجمية أكثر من تشبثهم بمعانيها كاد أن يحدث خللا خطيرا في فصاحة اللسان العربي بما أدخل على عمل الترجمة من تعابير أعجمية المبنى خلاسية المعنى عربية الألفاظ فكثرت العجمة والرطانة وسرت العدوى إلى المحررين بلغة الضاد حتى أولئك الذين لا يعرفون لغة غيرها. والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصر. نكتفي منها بما يلي:

أ) تزييف كاف التشبيه

نحن نعجّم كاف التشبيه التي لا تعني في اللغة العربية سوى التشبيه عندما نستعملها لغير التشبيه، في مثل هذه العبارة: "عُيّن كوزير في الحكومة" أو "اشتغل كمراسل للصحيفة" وذلك لإفادة معنى العبارة الفرنسية:

"Il a été désigné comme ministre dans le gouvernement"

أو لإفادة معنى العبارة التالية:

"Il travaillait comme correspondant du journal"

نقول: "اشتغل كمراسل للصحيفة".

فعندما نترجم هاتين العبارتين الفرنسيتين ومثيلاتهما على هذا النحو فإننا نأتي بترجمة خاطئة، لا تؤدي معنى العبارات المراد ترجمتها، وترجمة العبارتين الفرنسيتين المذكورتين هي على الأصح: "عيّن وزيرا في الحكومة" و "اشتغل مراسلا للصحيفة".

لأن عبارة "عيّن كوزير" لا تعني في الفصحى أنه عين في منصب وزير بل في منصب شبيه بمنصب وزير. كما أن عبارة "اشتغل كمراسل" لا تعني أنه كان يقوم بعمل مراسل بل بعمل شبيه بعمل مراسل. وترجمة هاتين العبارتين العربيتين إلى الفرنسية هي كما

يلي:

" Il a été désigné pour un poste semblable à celui de ministre"

و " Il exerçait un travail semblable à celui de correspondant du journal"

فالخطأ آت من حرص المترجم على إيجاد لفظ عربي مقابل للفظ الفرنسي "comme" الذي، زيادة على معنى التشبيه، له معان كثيرة جدا في اللغة الفرنسية مذكورة بتفصيل في معاجم (لاروس)(12) و(بول روبير)(13) ومن جملة معانيها إفادة الحال مثلما في العبارتين المذكورتين. والترجمة الصحيحة تقتضي منا أن نترجمها في هاتين العبارتين بما يفيد الحال في العربية وهو جعل لفظي "وزير" و "مراسل" منصوبين على الحال. فلئن كان للفظ "comme" في الفرنسية معان كثيرة فكاف التشبيه في العربية لا تفيد إلا معنى واحدا وهو التشبيه. وفي استعمالها لإفادة الحال تعسف لا تقبله لغة العروبة ولن تستسيغه بتاتا.

تحريف الدلالة

لم يعد في أيامنا على ألسنتنا وجود للفظ "وجود" ولاللفظ "موجود" فلقد حل محلهما اللفظان "تواجد" و"متواجد" اللذان انتزعا انتزاعا من دلالتهما الروحانية الربانية المشرقة التي شرحها مؤلف "عوارف المعارف" بقوله: "الوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا، ويغيره عن هيئته، ويتطلع إلى الله تعالى. وهو فَرْحة يجدها المغلوب عليه بصفات نفسه ينظر منها إلى الله تعالى. والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكر"(14).

ولقد حرنا في تعليل ذلك الاستعمال التعسفي للفظي "تواجد" و "متواجد" إذ لا نجد حاجة تدعو إليه. فهما لم يستعملا لأداء معنى مفهوم جديد محدث لم يكن له وجود من قبل فالمعنى الذي أصبحا يستعملان له قديم موجود منذ أن كان الوجود.

فما الذي تكسبه اللغة العربية من تحريف دلالة اللفظين سوى أنها تخسر معناهما الروحاني الرباني الذي لا يؤديه غيرهما، وتفقد معه لفظي "وجود" و "موجود" والأمثلة على تحريف دلالة الألفاظ كثيرة نكتفي منها الآن بهذا القدر.

تكسير الأوزان

لم نعد نكتفي في أيامنا هذه بإيثاق يدي البطل العالمي في السباق ولا بتقييد يديه مع رجليه بل دخلنا مرحلة القضاء عليه بتكسير يديه ورجليه وبتر أوصاله.

لقد بلغ السكين العظم في جسم بنت عدنان لما شرعنا نصوغ الجمع من مادة غير مادة مفرده، ونصوغ مصدر الفعل على وزن غريب عنه، محطمين بذلك القواعد الصرفية والاشتقاقية التي عليها تقوم بنية لغة الضاد إذ تدخل في تشكيل هيكلها.

أ) "مُدَرَاء"

شاع في المشرق منذ عقود من السنين (ونحن في المغرب على الأثر) استعمال لفظ "مُدَرَاء" جمعا لكلمة "مُدير" بدلا من "مُدِيرين"، فلفظ "مدير" هو اسم الفاعل من "أدار يدير إدارة" ومادته هي "دَوَرَ" و"أدار" هو فعل مزيد رباعي مهموز، وهو على وزن

"أَفْعَلَ" واسم فاعله "مدير" على وزن "مُفْعِل" وهـي الصيغة الوحيدة لاسم الفاعل من الفعل المزيد الرباعي المهموز، ولا يجمع إلا جمعا مذكرا سالما يأتي في حالة الرفع على صيغة "مُفْعِلون" ويأتي في غير حالة الرفـع على صيغة "مُفْعِلين".

ولفظ "مُدَراء" جمع تكسير، مفرده "مَادِرٌ" اسـم الفاعل من فعل "مَدَرَ" بفتح الدال ومن فعل "مَـدِرَ" مكسور الدال وكلا الفعلين مجـرد ثلاثـي. فلفـظ "مُدَرَاء" جمع لـ "مَادِر" مثل "عُقَلاء" جمع "عـاقل" و"علماء" جمع "عالم" و"جهلاء" جمع "جاهل" إلخ...

- فعل "مَدَرَ" بفتح الدال معنـاه كمـا شـرحه "المعجم الوسيط" الذي أخرجه "مجمع اللغة العربيـة" بالقاهرة(15) وكما هو في (لسـان العـرب) لابـن منظور(1) وفي غيره من أمهات المعاجم: "مَدَرَ الحَوضَ يَمْدُرُهُ (بضم الدال) مَدْراً سدّ خلال حجارته بالمَدَرِ" (أي الطين اللّزِج المتماسك) فإذا اعتبرنا لفظ "مُدَرَاء" جمعا لاسم الفاعل من "مَدَرَ (المفتوح الدال" يكـون معنى "مُدَرَاء": "المطيّنون للحوض" وهو معنى بعيـد عن المدير وعن الإدارة.

- وفعل "مَدِرَ" بكسر الـدال شـرحه "المعجـم الوسيط" المذكور كما يلي: "مَدِرَ يَمْدَرُ (علـى وزن "لعب يلعب) ضَخُمَ بطنُه وانتفخ جنباه. ومَدِرَ الصّبيُّ وغيره تَغَوَّطَ في ثيابه. ومَدِرَ: غَلَبَهُ الغَائطُ فَعَجَزَ عـن حَبْسِهِ "ومَدِرِ الضَّبُعُ: اغبَرَّ جَنْباهُ من المدَر فهو أَمْـدَرُ وهي مَدْرَاء"(15).

وهذه كلها معان بعيدة كل البعـد عـن معنـى "المدير" وعن مفهوم الإدارة.

فالجهل بتصريف الأوزان هو الذي أوقع في هـذا الخطإ الفاحش من طلع على الناس لأول مرة بلفـظ "مُدَرَاء" جمعا لـ "مدير" منساقا مع "وزراء" جمـع "وزير" و "أمراء" جمع "أمير" ظنا منه أن وزن "مدير" هو وزن "وزير" و "أمير" غير مفرق بـين "مُفعِـل" و"فَعِيل".

ب) تجربة وتكلفة

لقد شاع في أيامنا هذه استعمال لفظ "تَجْرُبَـة" بضم الراء مصدرا لفعل "جَرَّبَ" بدلا من "تَجْرِبَـة" بكسر الراء، كما شاع استعمال لفظ "تَكْلُفَة" بضـم اللام مصدرا لفعل "كَلَّفَ" بدلا من كسرها، وكمـا شاع لفظ "تَجَارُب" بضم الراء (بدلا من كسـرها) جمعا لـ "تَجْرِبَة".

وهذه كلها أخطاء شنيعة ناجمة عن إهمال دراسة وتدريس قواعد الصرف والنحو وخصوصا الاشتقاق والأوزان في المدارس الابتدائية والثانوية. فإذا تمـادى الحال على هذا النحو فستكون عاقبته وخيمة على لغة العروبة وجناية على لغة القرآن يتحمل كل العـرب مسؤوليتها، وعلى رأسهم وزارات التعليم في جميـع الأقطار العربية بلا استثناء. أجلْ، لست أنكر وجـود حصص في علم الصرف وعلم النحو ضمن الـبرامج الدراسية في كل هذه البلاد ولكن ذلك شيء هزيـل جدا بالنسبة لما ينبغي أن تكون عليه تلـك المنـاهج.

فنحن نهيب بوزراء التعليم العرب أن يعيدوا النظر في مناهج تدريس هذه المواد، وأن يولوها العناية الكاملة

التي تستحقها بجعلها من المواد الأساسية التي لا يمكن للطالب الراسب فيها النجاح في مختلف امتحانات السلكين الابتدائي والثانوي ولا يسمح له بالالتحاق بالجامعة إلا إذا كان متقنا لها الإتقان اللازم.

ومن أجل ذلك نرى أنه يتحتم وضع وإقرار وتطبيق منهجية تقوم على اعتبار الاشتقاق مادة دراسية مستقلة، تؤلف لها كتب تعليمية على ضوء متطلبات الاصطلاح العلمي والتقني والحضاري مع مراعاة حاجات التعريب ومقتضياته.

فلا ينبغي الاقتصار -مثلا- على تعليم الطالب كيفية اشتقاق بعض الأوزان بل يجب التوسع في دراسة استقصائية لأغراض كل وزن والمجالات المتاحة لاستعماله بإيراد أمثلة من تراثنا اللغوي، وأمثلة من المستحدث الموضوع، وأمثلة مما تم تعريبه مع ما يقابله في اللغة الأعجمية المقررة، ثم التعريف بقرارات مجمع اللغة العربية بخصوص الأوزان التي عني ببحثها مع الإلمام بسائر قراراته العلمية(4).

وإلى جانب هذا التعليم الممنهج للسلكين الابتدائي والثانوي ينبغي أن تقرر للسلك الجامعي محاضرات منتظمة لتعريف الطلبة بما استجد بشأن تعريب المصطلحات بصفة عامة وبما يتصل منها بالأوزان على الخصوص وبأهم الكتب المؤلفة حديثا في هذا الموضوع.

وهي كذلك مسؤولية وسائل الإعلام، فيجب على رجالها أن يتجندوا لمحاربة كل تشويه للغة، واستخفاف بقواعدها، وأن يعلموا به قراءهم ومستمعيهم، ويندودا به تنديدا كفيلا بأن يكون زاجرا للجانين على اللغة.

وإننا -ونحن أمة القرآن- لجديرون بأن نعمل باقتراح أحد أعضاء مجلس النواب في إحدى الولايات الامريكية الذي تقدم بطلب فرض عقوبات على كل من يجني على اللغة بالتعسف في استعمال قواعدها ومفرداتها قائلا: "لقد وضعنا قوانين جزائية لمختلف الجنايات ولكننا لم نفكر في وضع قانون واحد لمعاقبة الجانين على اللغة".

نرجو الله ألا تذهب كلمتنا هذه صيحة في واد. وأن تجد استجابة من ذوي العزائم الفعالة والهمم الخلاقة والإرادات الحسنة وأن تكون فيها ذكرى "لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد".

هوامــش

أ – "مفعلة" السببية:

أثبت الدكتور محمد صلاح الدين الكواكــــبي في كتابــه مصطلحات علمية ما يقرب من خمسين مصطلحا كيميائيا مما وضعه على هذا الوزن مــع مقابلاتهــا في اللغــة الفرنســية وشروحها.

وقد وضعنا –نحن– ثلاثين مصطلحا على هـــذا الــوزن لتعريب مصطلحات طبية تنتهي بالكاسعة "**gène**".

ب – "افتعال" و "افتعلال" و "وافْعِلاَل"

إضافة إلى ما كنا نشرناه في العدد الســادس مــن مجلــة "اللسان العربي" مما وضعناه على صيغة "افتعــال" لتعريــب المصطلحات الطبية الدالة على الالتهاب والمنتهية بالكاســعة "**ite**" قمنا بوضع المقابل لما يزيد على مائة وعشرين من هــذه المصطلحات الطبية الالتهابية بمساعدة ولدنا الدكتــور أمــل أصلحه الله وقد نشرت ضمن مقاله "الاصطلاح الطــبي مــن التراث إلى المعاصرة" المنشور في العدد الثالث والأربعين مــن مجلة "اللسان العربي". وقد اضطررنا في تعريب بعــض تلــك المصطلحات الأعجمية المركبة إلى تجاوز "افتعال" التي أقرهــا مجمع اللغة العربية بالقاهرة وإضافــة صيغــتي "افْتِعْــلاَل" و "افْعِلال" من عنديتنا فيما لا يتأتّى تعريبه بصيغة "افتعال".

(ت) – "تفعال":

وضعنا تسعة عشر مصطلحا طبيا على هذا الوزن لتعريب ما يقابله في الفرنسية أثبتناه في كتابنا "مدخل لتعريب الطب" الذي ما زال مخطوطا في طور الإعداد.

(ث) – سرد الدكتور محمد صلاح الدين الكواكــــبي في كتابه "مصطلحات علمية" نحو تسعين مفردة على هذا الوزن مع شروحها تدل كلها على داء أو مرض أو طــارئ غــير طبيعي استخرجها من "القاموس المحيط". ثم أردفها بقائمــة تشتمل على **28** مصطلحا على هذا الوزن وضعها هو لتعريب ما يقابلها بالفرنسية، وعززها بشروحها.

(ج) – "فُعالة":

ذكر الدكتور محمد صلاح الدين الكواكــــبي في كتابــه "مصطلحات علمية تسعين مفردة مما جاء على هذا الوزن من كلام العرب فيه دلالة على بقية شيء أو رديئه أو الرديء من كل شيء" مع شروحها، وأتبعها بستة وثلاثين مفردة على هذا الوزن وضعها لتعريب مصطلحات فرنسية أثبتها قبالتها.

مصادر ومراجع

1) لسان العرب – للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري– طبعة دار صادر بيروت.

2) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) تأليف الشيخ منصور علي ناصف من علماء الأزهر الشريف– الجزء الأول ص326 الطبعة الثالثة– إصدار دار إحياء الكتب العربية.

3) المعجم الطبي الموحد –(الانكليزي – العربي – الفرنسي)– الطبعة الثالثة أصدره "اتحاد الأطباء العرب" في سنة 1983.

4) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما (1932–1962)– كتاب صدر عن مجمع اللغة العربية بالقاهرة ضمنه مجموعة قراراته العلمية التي اتخذها في تلك الحقبة. وقد نشر كله في مجلة (اللسان العربي).

5) مجلة المجمع العلمي العراقي – الجزء الثاني من العدد الرابع والثلاثين.

6) فقه اللغة وسر العربية –تأليف الإمام اللغوي أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي– مطبعة الاستقامة بالقاهرة.

7) اللغة العربية وتحديات العصر – بحث للأستاذ عبد العزيز بنعبدالله المدير السابق لمكتب تنسيق التعريب، الصادر في مجلة اللسان العربي لسنة 1986.

8) بحث للأستاذ عبد العزيز بنعبدالله بعنوان "تقديم" صادر في العدد الثالث من مجلة اللسان العربي في سنة 1965.

9) المعجم اللغوي الحضاري –للدكتور محمود الجليلي– فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي الجزء الأول من المجلد الرابع والثلاثين.

10) المنهل –قاموس فرنسي عربي– تأليف الدكتور جبور عبد النور والدكتور سهيل إدريس (الطبعة التاسعة الصادرة عن دار العلم للملايين بيروت دار الآداب سنة 1986.

11) المنجد الفرنسي العربي – الطبعة الأولى الصادرة عن دار المشرق بيروت

(12Larousse Encyclopédique en couleurs + Le Petit Larousse (Tome 5) édité par France Loisirs-Paris.

(13Le Petit Robert 1 - Dictionnaire de la langue française - alphabétique et analogique Par Paul Bobert - Paris

14) الدرة الخريدة في شرح الياقوتة الفريدة – تأليف العلامة العارف بالله سيدي محمد بن عبد الواحد النظيفي رحمه الله –الجزء الرابع الصفحة 129 الطبعة الثانية سنة 1346هـ. – مطبعة السعادة– تجار محافظة مصر.

15) المعجم الوسيط – تأليف مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي قام بإخراجه الأساتذة إبراهيم مصطفى وأحمد حسن الزيات وحامد عبد القادر ومحمد علي النجار (الطبعة الثانية)– دار الدعوة– إستانبول– تركية.

16) مصطلحات علمية– تأليف الدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.

خصائص العربية المعاصرة
(مظاهر حداثتها في المفردات والتراكيب)

د. محمد حسن عبد العزيز(*)

1- العربية المعاصرة

1-1- تعريف العربية المعاصرة

يستخدم بعض العرب المحدثين من الأدباء والعلماء والخطباء نمطا من العربية الفصحى يطلق عليه (العربية المعاصرة) وهو مصطلح شائع بين اللغويين وصناع المعاجم والمستشرقين، وتستخدم معه مصطلحات أخرى أقل منه شيوعا مثل (العربية الحديثة) و(العربية المشتركة) و (العربية الحديثة المكتوبة) و(العربية الأدبية الحديثة) وهي كلها تؤدي إلى ما يؤديه المصطلح السابق، وإن كان بعضها يبرز عنصراً آخر من عناصر تعريفه.

ومن جملة ما قيل عن (العربية المعاصرة) نستخلص التعريف الآتي:

" لغة فصحى، مكتوبة، تستخدم في التعليم وفي العلم وفي الأدب وفي الصحافة، وهي اللغة الرسمية المشتركة في العالم العربي اليوم".

ونفصل القول في تفسير هذا التعريف:

1- العربية المعاصرة فصحى لأنها تلتزم بقواعد الفصحى المعروفة في كتب النحو، وإن أصابها شيء من التغيير يقع غالباً في النواحي الصرفية والدلالية والأسلوبية.

2- وهي لغة مكتوبة في الأعم الأغلب، وأشكالها المنطوقة في الغالب مصدرها مكتوب.

3- وهي لغة التعليم في معاهده المتعددة، ولغة العلم بفروعه المختلفة، ولغة الأدب بفنونه المتنوعة، ولغة الدولة بمؤسساتها المحلية والدولية، وهي اللغة التي يترجم منها وإليها، وهي لغة الصحف وبعض المواد الإذاعية والمرئية كنشرات الأخبار والتعليق عليها...إلخ.

4- وهي اللغة المشتركة التي يعدها العرب لغتهم القومية، ومظهر شخصيتهم ورمز استقلالهم، ومن ثم فلها مكانة تفضل أي شكل لغوي آخر في المجتمع العربي.

5- اللغة العربية المعاصرة متأثرة باللغات الأجنبية من حيث إنها تقترض منها بعض الألفاظ فتعرّبها أو بعض المفاهيم فتترجمها، ومتأثرة أيضاً بالعامية لأن بينهما رصيداً عربيا مشتركاً من الألفاظ، ومن حيث إنها تقترض منها بعض الألفاظ الشائعة.

(*) أستاذ علم اللغة بجامعتي القاهرة والكويت

6- اللغة العربية المعاصرة شكل لغوي مختار يتعلمه العربي تعلماً، ويتفاوت مستعملوه في إتقانه تفاوتاً ظاهراً، ومن ثم فلا أحد يكتسبها في بيئته أو يستعملها في شؤون الحياة العامة.

1-2 العربية المعاصرة أهي مكتسبة أم متعلمة؟

علماء اللغة البنيويون يقررون أن اللغة نظام عرفي، ومن ثم يفترضون أن ثمة اتفاقا ضمنيا بين المتكلمين على استخدام اللغة بطريقة تكاد تكون متماثلة، ولهذا يفترضون أن لغة أحد أفراد الجماعة اللغوية يمكن أن تمثل العادات اللغوية للمتكلمين الآخرين في الجماعة نفسها.

أما تشومسكي وأتباعه من التوليديين فليس هدفهم وصف اللغة كما يفعل البنيويون بل يهدفون إلى تفسير وتحليل بنية اللغة معتمدين على حدس المتكلم ومعرفته الضمنية بقواعد لغته، ومن ثم فإنهم يعدون متكلم اللغة هو موضوع الدراسة اللغوية من حيث إنه قادر على إنتاج عدد لامتناه من الجمل. ولهذا فإنهم يرجعون إليه فيما يقبل أو ما لا يقبل من الاستعمالات اللغوية.

ومن البين أن من يكتسب لغة معينة يكون قادراً على استعمالها بيسر ودون تكلف بحيث لا يشعر بخصائصها أو يعي قواعدها، لأن الملكة اللغوية أو الكفاية لا شعورية، إنها تتيح للمتكلم الذي لا يعرف معرفة واعية قواعد لغته أن يلم بصورة كافية بنواحي استعمال لغته بحيث لا يقع في الأخطاء، وأن يحكم على متكلم آخر لنفس اللغة بأنه أخطأ أو أصاب، إنها تُعْزَى في النهاية إلى اللاوعي.

هذا هو الشأن عند دراسة اللغات الطبيعية المعاصرة، فما الموقف عند دراسة الفصحى المعاصرة.

1- ليس عند العرب من يتكلم هذه اللغة في شؤون الحياة اليومية، أما العامية منسوبة إلى قطر بعينه فهي اللغة التي يمكن أن يُقال إنها مكتسبة، وأن المتكلم بها يتكلمها بيسر ودون وعي أو شعور بقواعدها.

2- إن العربية المعاصرة بالشروط المحددة سابقاً لغة مختارة متعلمة ومن ثم يشعر مستعملها بقواعدها ويعي خصائصها، ومن دلائل ذلك ما يتعرض له مستعملها من اعتراضات النحاة واللغويين على أخطائه فيها، بل إنه يراقب نفسه في استعمالها ويُجري- بطريقة شعورية- تعديلات عليها، وربما ترك لغيره من المتخصصين في قواعدها أن يصحح استعمالاته.

3- هذا الوضع الفريد للعربية المعاصرة يضع اللغويين في موضع حرج، فهم بين أمرين:

أن يستعملوا المناهج والأساليب التي تستعمل في دراسة اللغات التي يمكن افتراض وجود متكلم- سامع بها، يمثل خصائصها ويعتمد على حدسه فيما يقبل ومالا يقبل من استعمالاتها.

وأن يستعملوا مناهج وأساليب خاصة لدراسة العربية المعاصرة تناسب خصائصها من حيث هي لغة فصحى مكتوبة، ووظائفها من حيث هي لغة للتعليم وللعلوم... إلخ. ومن حيث دورها في الربط بين

شعوب الأمة العربية وفي توحيد فكرها وثقافتها.

ومن هذه الناحية تبرز أهمية الشروط التي ينبغي توافرها فيمن يستعمل هذه اللغة ويعتد باستعماله إياها في الإطار السابق أي من حيث علاقتها بالفصحى ومن حيث أداؤها لوظائفها الخاصة في الاتصال والتوصيل.

1-3 المعايير المستخدمة لتعيين الرواة المُحْدَثين المعتد بلغتهم.

استخلصت هذه المعايير مما انتهى إليه جمهرة المفكرين واللغويين في الاعتداد بلغة المحدثين، ومما قررته المجامع اللغوية والهيئات المعنية باللغة من قرارات بهذا الخصوص، هذا وإن تعدد المعايير ناتج عن طبيعة الفصحى المعاصرة من حيث هي لغة مختارة متعلمة ذات وظائف خاصة.

1- قواعد الفصحى القديمة:

لهذه القواعد سلطان عظيم على العربية المعاصرة لاسيما في النواحي الإعرابية، ولا خلاف بين الباحثين في وجوب الالتزام بهذه القواعد كما صورتها كتب النحو والصرف. بيد أن الباب مفتوح لبعض الاستعمالات التي تخالف القواعد إذا ما وجد له تخريج على لغة من لغات العرب أو على رأي نحوي أو لغير ذلك من التخريجات، وهذا يؤدي بنا إلى المعيار الثاني.

2- المجمع جهة الاختصاص في قبول أو رفض الاستعمالات المحدثة:

يتحفظ مجمع اللغة العربية في جواز القياس على ما لم يقسه العرب من الاستعمالات المحدثة، ويشترط أن يرجع إليه في تخريجها، ومن ثم إقرار استعمالها وتسجيلها في معاجمه، وقد أراد بذلك أن يحدد ضوابط للوضع حتى لا يذهب المحدثون فوضى فيه. وعلى الرغم من أن تلك الهيمنة محلّ اعتراض من بعض المجمعيين أنفسهم فإن الرأي يكاد يجتمع على أهميتها في إحداث التوازن المعقول بين عوامل المحافظة والتجديد.

3- المستوى الأدبي المتميز:

يعتد كثير من المفكرين واللغويين بلغة المحدثين، بيد أن دعواهم في الاعتداد بها تقتصر على آثار كبار الأدباء والشعراء، بشرط سلامة أسلوبهم وصحة عربيتهم، والمشكل في هذا المعيار هو تحديد الأسس التي يعرف بها كبار الكتاب وهل هي فنية أم لغوية؟ كما أنه لا فائدة من آثار هؤلاء مع شرط سلامة الأسلوب وصحة العربية، إذا فهم من ذلك تطبيق قواعد النحو والصرف بصرامة، ومع الاعتداد ببعض استعمالات هذه الطائفة، فإن المعجم الكبير لم يستشهد إلا بشعر البارودي وأحمد شوقي وحافظ مرات معدودات.

ونحن نؤكد أهمية الرجوع إلى تلك الطائفة في تأييد الاستعمالات الحديثة أو في تفسيرها بل وفي ابتداعها، لأن تأثير هؤلاء الكتاب في تسويغ تلك الاستعمالات أعمق بكثير من تأثير المتكلم العادي.

4- شيوع الاستعمال:

ينادى بعض اللغويين باستعمال هذا الأصل،

وعندهم أن الخطأ المشهور أولى من الصواب المهجور، وأن شيوع الاستعمال ناتج عن أن اللفظ المستعمل يحقق الغرض من استعماله في الفهم والإفهام، كما أنه من الصعوبة بمكان فرض استعمال معين أو انتزاع استعمال آخر، لأن استعمال الجمهور هو المحك في القبول والرفض.

بيد أن المشكل في هذا المعيار أن المجتمع اللغوي تتوزع فئاته أفقيا فيما يعرف باللهجات المحلية، ورأسياً فيما يعرف باللهجات الاجتماعية بحيث يتعذر الوصول إلى الاستعمال الشائع.

والمجمع يعتد ببعض الاستعمالات الشائعة على ألسنة الزراع والعمال والصناع وغيرهم من الفئات التي لا تخالف أصول العربية، ويعتد أحياناً ببعض الاستعمالات المخالفة التي يجد عنها مندوحة حين لا يتوافر في موضعها مرادف يؤدي معناها.

ومع ما وُجّه إلى هذا المعيار من نقد فلا ينبغي التقليل من أهميته لأنه يستند إلى قوة العرف العام، وهي قوة لا يمكن ردها إلا إذا وجد المجتمع عرفاً آخر يعتمد عليه الاستعمال الجديد.

5- اللغة العلمية لغة خاصة:

لا شك في أن يكون للعلماء حرية في البحث وفي الوضع، لأن ذلك حقيق بأن يطور العلم وينشره، ولهذا حرص المجمع على أن يتسامح في استعمال العلماء للغة، وكان يجيز لهم مالا يجيزه للشعراء والكتاب، أجاز لهم أن يُعربوا على غير أوزان العرب وأن ينحتوا، بل وأجاز لهم القياس على صيغ لم يكن العرب يقيسون عليها، بيد أن هذه الحرية يقابلها واجب الالتزام بالقواعد والأقيسة العامة التي لاخلاف عليها.

6- العرف اللغوي:

يكاد اللغويون المحدثون يتفقون على أن الصواب اللغوي هو الكلام المتفق مع ما يتطلبه العرف اللغوي للجماعة التي ينتمي إليها المتكلم، ويؤخذ من هذا ضمنا أن الخطأ هو ما يخالف هذا العرف الجماعي.

ولتوضيح أهمية هذا المعيار ينبغي توجيه النظر إلى أمرين:

الأول: أن القول بالصواب والخطإ يستلزم ضمنا وجود قاعدة من نوع خاص تفرضها الجماعة اللغوية، وليست القاعدة أمراً خاصاً بالسلوك اللغوي، فليس في نطق معين ما يجعله صواباً في ذاته أو خطأ في ذاته.

الثاني : السلوك اللغوي كالسلوك الاجتماعي، والقاعدة السلوكية- بشكل عام- هي قبول سلوك معين أو رفضه تبعا لما يقضي به العرف الجماعي.

وقد حددنا من قبل الجماعة التي ينسب إليها الوضع، وهي الجماعة التي تستعمل العربية المعاصرة في الأغراض المحددة التي تستعمل فيها. ولما كانت العربية المعاصرة تلتزم بقواعد العربية الفصحى أصبحت تلك القواعد عرفا ينبغي الالتزام به وعدم الخروج عليه، بيد أن هذه القواعد تسمح ببعض التغيير الذي يعرض لبنية الكلمة أو مدلولها، بيد أن هذا التغيير لا يعتد به إلا إذا حظي بموافقة الجماعة

لسبب من الأسباب التي عرضناها آنفا من شيوعه على الألسنة أو استعمال كبار الكتاب له... إلخ.

ونعود إلى القول بأن العربية المعاصرة لغة مختارة ومتعلمة لا مفروضة ولا مكتسبة، ومن ثم فإن تلك العوامل السابقة تؤثر فيها على نحو من الأنحاء، وهي عوامل تهدف في النهاية إلى إحداث نوع من التوازن المقصود بين دواعي المحافظة التي تتمثل في قواعد الفصحى، ودواعي التجديد التي تتمثل في بعض التغييرات التي يتطلبها الوفاء بحاجات التعبير.

2- اللغة العربية لغة للثقافة والعلوم

2-1 التأثير المتبادل بين الثقافة واللغة

أصبح من المقرر بين اللغويين وعلماء الاجتماع أن اللغة ظاهرة اجتماعية يفرضها المجتمع على أفراده، وأنها وسيلته الكبرى إلى صبغهم في الفكر والسلوك بصبغته، ولهذا كان اكتساب الفرد لغة مجتمع معين اكتسابا لأنماط الثقافة والسلوك المميز لهذا المجتمع، ونعنى بالثقافة هنا أسلوب المجتمع في الحياة ونظرته إليها، وتتمثل في مورثات يتناقلها أفراده جيلا بعد جيل في قوانين وعادات وتقاليد وأنشطة.

واللغة لها ارتباط وثيق بالثقافة، فهي من ناحية تعكس ثقافة المجتمع الذي يستخدمها وتعبر عن مقاصده، ومن ثم تؤثر في سلوك الأفراد ونظرتهم إلى الحياة، وهي من ناحية أخرى أداة على ألسنة الأفراد وعلى أقلامهم قد فرضها المجتمع عليهم، ولكنهم مع ذلك يطوعونها بحسب حاجاتهم، ومن ثم قيل إن العلاقة بين اللغة والثقافة متبادلة، فاللغة تؤثر في المجتمع وثقافة المجتمع تؤثر في لغته.

والعرب اليوم يعدون العربية الفصحى لغتهم القومية، وهي مظهر شخصيتهم ورمز استقلالهم وتميزهم، وهي الأداة المشتركة التي تجمع الناس على ثقافة مشتركة وشعور واحد وهدف واحد. ولهذا كانت - كما أوضحنا سابقا- لغة الدولة بمؤسساتها المختلفة ولغة العلم والفن ولغة التعليم. واللغة هي الوسيلة التي يتخذها المجتمع بمؤسساته التعليمية والتربوية للدعوة إلى ثقافته المميزة وتوجيه السلوك إلى تقاليده وقيمه.

والعربي اليوم يعيش في إطار ثقافة مركبة يمتزج فيها التراث بالمعاصرة، ويقوم أسلوبه في الحياة ونظرته إلى الأمور على وجدان يمتزج فيه فكر الماضي بفكر الحاضر، وهذا التفاعل بين التراث والمعاصرة هو سمة المجتمع العربي الحديث، بل هو قدره ومستقبله.

2-2 لغة العلم محكومة بضوابط لا بقيود

إن حرية الفكر والبحث العلمي تستلزم- كما يقول المجمعي الدكتور إبراهيم مدكور- حرية التعبير عن هذا الفكر، فيكون العالم حرا في اختيار اللفظ الذي يؤدي المعنى المراد. وإن تاريخ العلم يؤكد أن العلماء لم يكشفوا الحقائق وحدها بل قدموا ما استطاعوا، من وسائل التعبير عنها. وهكذا سار تطور العلم وتطور مصطلحاته معا.

ومهما حاول العلماء أن يتخصصوا بلغتهم فهم مضطرون في كثير من الأحيان إلى أن يربطوها باللغة العامة، ومن ثم فإن الأنظار تتجه إلى متن هذه اللغة

و إلى موقف اللغويين في المحافظة عليه بما يقيد حتما تلك الحرية التي يتمسك بها العلماء، والدكتور مذكور يحسم هذه القضية بانحيازه إلى جانب الحرية العلمية في البحث والتعبير، ويقول: إن مبدأ الحرية العلمية يحملنا على أن نسلم بأن قداسة متن اللغة لا يصح أن تقف عثرة في سبيل البحث والتقدم العلمي.

والعالم – ما مدام قد تحرر– فله حقوق وعليه واجبات:

– له أن يستمد مصطلحاته من الفصحى بالطرق المعروفة للوضع، يشتق وينحت ويلجأ إلى المجاز، فيستعير الكلمة من دلالتها اللغوية العامة ليستعملها في دلالة علمية خاصة.

– وله أن يستمد من اللغة العامية إن كان أداؤها للمعنى أدق وأكمل، ويسوّغ هذا أن الصلة بين العامية والفصحى أكيدة، وأن قواميسنا لم تستوعب كل المفردات العربية، وأن الفارق بينهما قد يكون مجرد اللهجة ونطق الحروف.

– وله أن يستمد من لغة أجنبية فيعرّب إن دعا الأمر إلى التعريب، وقد عربت ألفاظ أعجمية في الجاهلية والإسلام. و لم ير العرب غضاضة في أن يضموها إلى ألفاظهم، و لم يكن بلازم آنذاك أن يكون التعريب على أبنية العرب.

– وعليه أن يحرص ما أمكن على أن يؤدي المعنى الواحد بلفظ واحد، لأن في تعدد الألفاظ إسرافا وارتباكا وبلبلة.

– وعليه أن يعرف لغته جيدا وما اشتملت عليه من مصطلحات قديمة وحديثة، ويتمكن منها كل التمكن، وبهذا تتوفر لديه الفرصة في اختيار أوْلَى طريقة للوضع تناسب المعنى المراد تأديته.

ومع هذا وذاك فلا ينبغي أن تترك المصطلحات لهوى المصطلح وحده، بل لابد أن يقره عليها أهل العلم والمختصون، ومن هنا تبدو أهمية الرجوع إلى الجماعات والهيئات العلمية في تكوين المصطلحات واستقرارها.

2–3 اللغة العربية لغة عالمية للعلوم في العصر العباسي.

لم يكن للعرب قبل الإسلام علم بالمعنى الذي نعرفه اليوم، ولكنها، وبشجاعة نادرة وبعقل مفتوح، أنشأت صرحا علميا باذخا. لم تجد حرجا في أن تستخدم كل الوسائل الممكنة آنذاك، وأن تستعين بكل القادرين على العون، أسرعت إسراعا فترجمت علوم اليونان والهند والفرس، و لم تكتف بالنقل، بل استوعبت وأضافت وأبدعت في كل علوم هذا العصر، واحتفظت بهذا العلم لتنفع به الإنسانية طوال حقبة مديدة من الزمن ولتسلمه إلى ورثته من علماء عصرالنهضة الأوربية ليقوم عليه العلم الحديث.

وكان على العربية، لغة الصحراء والشعر، أن توفر لهذه العلوم وسائل التعبير الوافية، اجتهد العلماء والمترجمون أولا في أن يوجدوا لفظا عربيا معروفا، فإن أعياهم ذلك ابتدعوا له صيغا أو مشتقات جديدة، فإن أعياهم هذا أو ذاك عربوا.

وفي تأثير العرب في النهضة العلمية الحديثة يقول

(فيرنيه): إن علماء المسلمين أعطوا العلم الأوربي مادة جديدة أدت إلى إثرائه بدرجة لا نظيرلها بفضل الترجمات العربية عن اليونان، وبفضل الإنتاج العلمي المستقل للمسلمين أنفسهم.

ويؤكد قيام العربية بدورها أن الذين ترجموا هذه العلوم من العربية إلى اللاتينية والعبرية لم يجدوا صعوبة تذكر، فقد كانوا يفهمونها فهما جيدا دون حاجة إلى معرفة عميقة بقواعد النحو المستخرجة أساسا من الشعر القديم، يقول(برجستراشر): إن اللغة العربية قدمت منذ البداية الأداة الكافية للتعبير العلمي الدقيق.

2-4 اللغة العربية لغة للعلوم في النهضة العربية الحديثة

رأى محمد علي أن السبيل القويم لنهضة مصر وبناء دولة حديثة هو الاتجاه إلى الغرب والانتفاع بنظمه ونقل علومه، واتخذ لذلك خطوات متعددة الأنحاء، فأنشئت المدارس العليا، مدرسة الطب 1827م والصيدلة 1830م والمهندسخانة 1834م...الخ. وقد سبقتها بعض المدارس الحربية كمدرسة أركان الحرب 1825 والطبجية 1831م...الخ ولم يكن معلمو هذه المدارس من الأجانب كافين لسداد حاجاتها، ومن ثم بدأ التفكير في ترجمة الكتب العلمية وإرسال البعثات إلى أوربا وإنشاء المدارس الخاصة بتعليم اللغات.

وكان الهدف إعداد جيل من الأساتذة والعلماء المصريين يحل محل الأساتذة والعلماء الأجانب، ويكون أداة صالحة لنقل علوم الغرب وفنونه إلى العربية.وقد اضطلعت مدرسة الألسن التي أنشئت 1835م بالنصيب الأوفى من الكتب المترجمة ومن المترجمين، ففي خمس عشرة سنة من عهد محمد علي وإلى حين إغلاقها في عهد عباس الأول 1849م خرّجت سبعين مترجما وقام أساتذتها وخريجوها بترجمة ما يقرب من ألف كتاب طبع أغلبها.

وقد أفادت العربية من الترجمة فائدتين: مباشرة وغير مباشرة، كانت الفائدة المباشرة نقل العلوم والمعارف والفنون المختلفة إليها، وما انبنى على ذلك من معرفة طرائق التفكير وأنماط الثقافة الأوربية العصرية، أما الفائدة غير المباشرة فكانت العناية بالقواميس الأجنبية والعربية، والاهتمام بالمصطلحات العلمية. وقد كان للمترجمين فضل عظيم في تطويع العربية لمطالب هذه العلوم والفنون وفي إكسابها صبغة علمية وبتخليصها من قيود الصنعة والتكلف.

وقرب نهاية القرن التاسع عشر أغلقت مدرسة الألسن وأهمل إيفاد البعثات وألغي التعليم المجاني، وقلت العناية باللغة العربية، وزاد الاهتمام بالإنجليزية، وظهرت آثار تلك السياسة واضحة في مدرسة الطب، إذ اشترط على من يريد الالتحاق بها إجادة الإنجليزية وكان معظم أساتذتها من الإنجليز، وكانت المحاضرات بالإنجليزية دون سواها. وكان لهذه الخطوة الأخيرة آثارها السيئة في مستقبل اللغة العربية، فقد نُحّيت العربية حتى لا تكون لغة للعلوم، وأصبحت الإنجليزية حتى اليوم هي لغة التعليم الطبي والهندسي في مصر، وبذلك قضى على أعظم المحاولات في

تعريب التعليم العالي في مصر الحديثة، وأصبحت في عالم النسيان تلك الآثار العلمية التي ترجمها أو ألفها بالعربية أساتذة العلوم بالمدارس العليا وخريجو مدرسة الألسن.

3- المؤثرات

تتعرض الفصحى المعاصرة لعدد من المؤثرات التي تكسبها صفاتها النطقية والتركيبية، فهي من ناحية تخضع- بعامة- لقواعد الفصحى القديمة التي نتعلمها في معاهد العلم المختلفة، ومن ناحية أخرى تتأثر في أصواتها خاصة لتأثير اللهجات المحلية، كما أن اللغات الأجنبية - من خلال الترجمة- تؤثر في طريقة بناء الجملة وفي بعض مناحي التعبير.

3-1 الفصحى والعامية

تأثير العامية في بنية الجملة في الفصحى مختلف في تقديره، ولست من القائلين بتأثيرها البالغ في هذا الخصوص، ودليلي على ما أقول:

- أن الفصحى - وهي لغة مكتوبة غالبا- تعد معبّرا عن الوحدة السياسية للعالم العربي بل هي أيضاً المقوم الأساسي للوحدة في كل قطر. وهي تحظى بمكانة خاصة أقرب إلى التقديس عند الناس جميعاً. فهي لغة الدولة والعلوم والتعليم، وهي اللغة التي نعلمها لمن يريد تعلمها من الأجانب، ومن ثم فإننا نعدها قرينا للغات الأخرى ومعبرا عن شخصية الأمة. أما العامية وهي لغة منطوقة فحسب- فتختلف باختلاف الأقطار بل تختلف باختلاف المناطق في القطر الواحد- وهي ترتبط بالأمية وبأداء الحاجات العملية البسيطة، ومن ثم فإنها لا تمثل أداة كافية للفكر الراقي وللعلم.

- الفصحى لغة مُعْرَبة، تعتمد على العلامة في بيان مواقع الكلمات وفي تحديد وظائفها، أما العامية فترتيب الكلمات فيها يقوم بهذا الدور على حين يمثل الترتيب دورا ثانويا في الفصحى، ولهذا نعد الذي يخطىء في الإعراب- وإن استخدم المفردات الفصيحة- لا يتكلم بالفصحى، وكذا الذي يسكن أواخر الكلمات في الوصل.

المعول عليه في القول بتأثير لغة في لغة أو لهجة من حيث البنية والتركيب أن ينفذ إلى بناء اللغة أو تركيبها بانتظام واطراد، وإلا عد تأثيرا معجميا أشبه ما يكون بالكلمة المقترضة أو بالعبارة السائرة مسير المثل، وهذا هو المجال الغالب الذي يقع فيه تأثير العامية.

3-2 الفصحى واللغات الأجنبية

طرأت على العالم العربي منذ بداية اتصاله بالحضارة الغربية تغيرات كثيرة شملت عديدا من أنماط الحياة. إن ادخال النظم الغربية في الحكم والإدارة واستخدام الوسائل الحديثة في الزراعة والصناعة، وإقامة المدارس والمعاهد العلمية على النمط الأوربي، وإرسال البعثات العلمية وإنشاء الصحف والمطابع... الخ كان له تأثيره البالغ على العقل العربي من غير شك. وكان على العربية أن تواجه هذه التغيرات الجديدة وأن تساير مطالب التعبير عنها، وكان هذا يتطلب منها هي نفسها أن تتغير وتنفض عنها غبار

ماضٍ متخلفٍ استمر قرونا.

وقد كانت العربية تواجه هذا التحدي الجديد، وأمرها يختلف كثيرا عما كانت عليه في تاريخها الطويل حين استوعبت حضارة الفرس والروم وبقيت مع ذلك عربية خالصة لم تشبها شائبة، أما اليوم فإنها تواجه حضارة غربية، عليها أن تتصدى دون أن يدعمها سلطان من سيادة أهلها كما حدث من قبل، فالعرب اليوم غير العرب بالأمس البعيد، إنهم ينظرون إلى الحضارة الغربية نظرات متباينة يمتزج فيها الإعجاب بالنفور والإكبار بالاستهانة والإحباط بالتحدي.

إن تطور اللغة بمعزل عن أي تأثير خارجي يعد أمرا مثاليا لا يكاد يتحقق في أية لغة، وتاريخ اللغات يشهد بخلافه، بل يؤكد أن تأثير لغة أخرى كثيرا ما يؤدي دورا هاما في تطورها.

وليست اللغة العربية في ذلك بدعا بين اللغات، فقد تطورت تطوراً كبيراً حين ترجمت إليها علوم اليونان والفرس وحين أصبحت لغة عالمية لهذه العلوم، بل أصبحت لغة للحضارة السائدة آنذاك.

وعلماء اللغة يرون أن معجم اللغة هو أول جانب يتأثر باختلاطها بغيرها نتيجة اقتراضها الكلمات والمصطلحات من هذه اللغات، بيد أن اقتراض الكلمات واستيعابها- مهما اشتد أثره- لا يحدث تغيرات ذات شأن في بنية اللغة.

وهؤلاء اللغويون يشيرون إلى نوع آخر من الاقتراض يستلزم وجود توغل داخلي بين النظامين اللغويين، ومن هذا النوع ما يؤثر في الطريقة التي تبنى بها الجمل وهذا النوع الذي يتعلق باقتراض الأساليب، وما يترتب عليه من تأثير في النظام اللغوي يستغرق وقتا طويلا، وإذا ما وقع كان علامة للانتصار الثقافي لإحدى اللغتين على الأخرى.

هذا الجانب من التطور اللغوي يمكن توزيع أشكاله في نمطين، أولهما ليس له تأثير في نظام الجملة، والثاني له تأثير متفاوت في نظامها.

وقد كتب عن النمط الأول المجمعي الشيخ عبد القادر المغربي بعنوان (تعريب الأساليب)، وكان يريد به إدخال العرب في أساليبها أسلوبا أعجميا، وهو يرى أنه قديم في العربية بيد أنه نشط في العهد الإسلامي ثم تكاثر ونما في العصر العباسي حتى نهضتنا الحديثة فرجح ميزانه وطغى طوفانه.ولا يرى المغربي خطرا على اللغة منه، إذ ليس في هذه الأساليب كلمة أعجمية ولا تركيب أعجمي، وإنما هي كلمات عربية محضة ركبت تركيبا عربيا محضا، لكنها تفيد معنى لم يسبق لأهل اللسان أن أفادوه بتلك الكلمات، فقولهم (طلب يد فلانة) كلمات عربية مركبة تركيبا عربيا، لكننا إذا خاطبنا العربي القح بها لم يفهم منها المغزى الأعجمي، وهو خطبة الفتاة، وإنما هو اعتاد أن يفهم خطبتها بمثل (خطب فلان فلانه).

بيد أن مقدار التوغل ربما يتجاوز هذا الحد المتسامح فيه فيؤدي إلى مخالفة ما لنظام الجملة العربية في ترتيب مفرداتها أو أدواتها أو في خصائص

تركيبها. وقد يتسامح كبار الكتاب والعلماء والصحافيون- لسبب أو لآخر- في استعمالها، وقد يجد المجمع لها مسوغا وفقا لمعاييره التي يعتد بها في قبول الاستعمالات المحدثة. ومن أمثلة ذلك:

- يأتي الفعل (لعب) في الفصحى لازما فيقال: لعب محمد أو متعديا بالباء فيقال: لعب محمد بالكرة، ولكنه يجيء في فصحى اليوم متعديا بنفسه فيقال: لعب الكرة، ولعب دورا هاما. ولعل هذا يذكرنا بقولهم في الإنجليزية (He played an important part) وقد سوغ المجمع هذا الاستعمال، واحتج لذلك في (كتاب الألفاظ والأساليب ج2 ص94).

بيد أن المحدثين ربما يقودهم الأسلوب الأجنبي إلى ما يخالف النظم العربي مخالفة مرفوضة لا مسوغ لها. وعلى سبيل المثال:

- يكثر في الكتابات المحدثة قولهم (كان الشاعر ليعبر أصدق تعبير) قياسا على القول الفصيح (إن الشاعر ليعبر أصدق التعبير) فيلتبس الأمر، لأن القارئ لا يعلم أهي لام التوكيد التي تجيء بعد (إنْ) أم لام الجحود التي تجيء بعد كون ماض منفي نحو قوله تعالى (وماكان الله ليضيع إيمانكم)؟

- ويكثر أيضا قولهم (بمقدار صدق تعبيره بمقدار قوة تأثيره) وليس لـ (بمقدار) الثانية موضع ولا مسوغ إلا التأثر غير الواعي بالأسلوب الأجنبي.

3-3 التراث العربي

واكبت نهضة مصر الحديثة في احتذاء النظم الغربية والانتفاع بالعلوم الحديثة وما انبنى عليهما من تأثيرات أجنبية في اللغة العربية نهضة أخرى في إحياء التراث العربي والإسلامي والاعتصام بهما في مواجهة الغرب، وقد انبنى على ذلك آثار حميدة في اللغة العربية. وكان لمطبعة بولاق 1822م قصب السبق في نشر أمهات هذا التراث مثل لسان العرب لابن منظور والمخصص لابن سيده وخزانة الأدب للبغدادي والأغاني للأصفهاني . الخ. كما كان لإنشاء الجمعيات العلمية أثر لا يقل عن إنشاء المطابع وانتشار الصحف، وكان لكثير منها مطابع تقوم بنشر التراث مثل جمعية المعارف 1868 التي نشرت تاج العروس والبيان والتبيين وأسد الغابة... ألخ.

وفي هذه الحركة يقول (فك) : قد أدت كثرة الألفاظ الدخيلة من اللغات الأوروبية إلى قيام حركة مضادة تدعو إلى استحضار الماضي العظيم وإحياء تليد الحضارة والثقافة من التراث القديم، وقد أعلنت تلك الحركة عن نفسها ببعث لغوي جديد، فطبع منذ ذلك العهد مالا يحصى من كتب الأدب العربي في جميع العصور بالقاهرة وغيرها، وأدى الاشتغال بالآثار الأدبية من مخلفات العصور الغابرة إلىبعث حركة (التقنية اللغوية) مرة أخرى. و لم يقف الأمر عند نشر المؤلفات الكبيرة في النحو العربي وما إليه من المعاجم العديدة الأجزاء، بل اشتدت العناية أيضاً بالبحث في مسائل الاستعمال اللغوي وصواب التعبير، وقد استعيض فعلا عن كثير من الكلمات الأجنبية بألفاظ عربية حديثة، ومن أعمال المجمعين العلميين في القاهرة ودمشق إيجاد ألفاظ مناسبة للعدد

الوفير من المدلولات لاسيما في دائرة الشؤون الهندسية والآلية والطبية. الخ. وغيرها مما جلبته الحضارة الغربية الحديثة. وهذا الكفاح في وجه (الغريب اللغوي) يدور في الأعم الأغلب حول مشكلة استعمال الكلمة، واستخدام المادة اللغوية المولدة وتيسير النقل بالمجاز والوضع.

4- مظاهر تحديث العربية الفصحى

4-1 في مجال المفردات

تغلغلت الثقافة الغربية في كثير من مجالات الحياة العربية كما تغلغت من قبل وسائل الحضارة الغربية ومظاهرها في كل مكان وكل بيت، بل ظهر ذلك أيضاً في الأدب العربي الذي يحاكي- في كثير من أشكاله- الأدب الغربي كالقصة والمسرحية، وفي مضمونه الفكري أيضاً وهذا أمر واضح لا تنكر آثاره.

ولقد كان هذا التغلغل أشبه ما يكون بالهجوم الكاسح الشامل، وفيه يقول (ستتكيفتش): إن هجوم الحضارة الغربية المتطورة والمتعددة الجوانب لم يترك للعرب فرصة حتى تكون عملية الاستيعاب بطيئة وطبيعية، إن التحدي الشامل كان ينبغي أن يقابل برد فعل مباشر، وكانت العربية لحسن الحظ بثرائها المعجمي وبمرونتها الصرفية مهيأة لمجابهة هذا التحدي بطرق متنوعة واعدة.

إن حركة تحديث العربية الفصحى التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر، وما تزال قائمة حتى اليوم نهض بها اللغويون والعلماء والأدباء والصحافيون، وحين أنشئ مجمع اللغة العربية بالقاهرة وضع جهود رواد التحديث في اعتباره واستخلص من منجزاتهم مبادئ عامة تحافظ على التوازن المطلوب بين دواعي المحافظة على الفصحى ودواعي التعبير المحدث.

اعتمد المجمع مبادئ ثلاثة لتنمية ثروة العربية من المفردات لتكون وافية بمطالب الثقافة والعلم.

أ- الاشتقاق من جذور لغوية موجودة.

ب-إلحاق مدلول جديد بمدلول قديم من خلال (الوضع بالمجاز) أو (غريب اللغة).

ج- صياغة مفردات جديدة بوساطة ما يعرف بالاشتقاق المعنوي أو الاشتقاق بالترجمة.

وهذه أمثلة موضحة لهذه المبادئ:

المبدأ الأول: الاشتقاق من جذور موجودة

أولا : الأسماء:

(فعالة) (للدلالة على الحرفة أو نوع النشاط) كطباعة وسفارة وجراحة.

(فَعَلان) (للدلالة على تقلب واضطراب) كموجان وسيلان وطيران.

(فُعال) (للدلالة على المرض) كزكام وسعال ونكاف.

(فعّال) (للدلالة على الحرفة أو ملازمة الشيء) كجراح وطيار، وسواق.

(مِفعَل) كمجهر مصعد.

(مِفعَلة) كمروحة.

(مِفعال) : كمذياع

(فَعّالة) كنفاثة وحراقة.

(فاعول) كحاسوب

(مَفْعَل) كمسرح ومجمع

(مفعل) كموقف

(فَعول) اسما لما يتعاطى من دواء ونحوه: كسفوف، ذرور.

(فُعْلَة) اسما للطائفة المجتمعة من الشيء، ولما يتوسط الشئ ، ولموضع الفعل، وللشيء القليل، كالحزمة، الشعبة، الوصلة ، البقعة، والثلمة، والغرفة والكثبة... الخ.

ثانيا: الأفعال

(فَعَّل) صَوَّت (أبان عن رأيه) وحلّل (رجع الشيء إلى عناصره).

(فاعل) هاتف (كلم شخصا بالهاتف) وواعد (ضرب موعدا).

(أفعل) أضرب (انصرف عن العمل حتى تجاب المطالب)، أخطره بكذا (أخبره به).

(تفعّل) تحمس للأمر (اشتدت رغبته فيه ودعوة الناس إليه) تسمّر (ثبت في مكانه).

(تفاعل) تضامن وتماسك وتكافل (المشاركة) ترامق (نظر كل منهما إلى الآخر).

(تفاعل) تعاطى، تساقط، تكاثف وتزايد (للتكرار والموالاة، أو لوقوع الفعل في مهلة أو تدرج).

(انفعل)انسحب(رحل عن) انسجم، (اتسق وانتظم)

(افتعل) ابتكر (ابتدع الشيء غير مسبوق إليه) انتحر (قتل نفسه).

(استفعل)استعمر (فرض على المكان سيادته واستغله).

استقال (طلب إعفاءه من عمله).

و لم يكن اجتهاد العلماء والأدباء والصحافيين موجها فحسب إلى الاشتقاق من الجذور المستعملة، بل أحيوا بعض الصيغ المهجورة واشتقوا منها ونسبوا إليها بعض المفاهيم العلمية ومن ذلك:

(فعلن) علمن (جرد العلم من صفته الدينية،عَضْوَن (جعل الشيء عضوا) عَقْلَن (جعل الشيء عقلانيا..) الخ.

(فَوْعَل) حَوْسَب (استخدم الحاسوب أو الكمبيوتر) عَوْلَمَ (جعل الشيء عالميا).

هذا و لم يكن دور المجمع مقتصرا على قبول هذه المفردات وتسجيلها في معجماته فحسب بل أراد أن يتيح لكل محتاج أداة طيعة يولد بها ماشاء من الألفاظ، لقد أصبح الاشتقاق في أعمال المجمع مبدأ توليديا لا معياريا.

نظر المجمع في كثير من القواعد والأقيسة التي صاغها النحاة فترخص في كثير منها، وأباح القياس فيما أصله السماع، وسعى إلى إباحة بعض ما منعه النحاة، وتوسيع ماضيقوه، وكان هدفه من ذلك تنمية العربية بحيث تكون وافية بمطالب العلوم والفنون وشؤون المعاش.

المبدأ الثاني: إلحاق مدلول جديد بمدلول قديم.

أ- الوضع بالمجاز

وأمثلته كثيرة تكاد لا تنحصر مثل: أدب،

وجريدة، وبيئة، وقطار، وملحمة، وبسيط الخ.

وقد توسع المجمع في استعمال هذا المبدأ ما دامت الكلمات المولدة به جارية على قواعد الصياغة العربية، واتخذ قرارات نافعة في تيسير الوضع ومنها على سبيل التمثيل: السماع من المحدثين وإطلاق السماع من قيود الزمان والمكان، وجواز التوليد فيما جرى على أقيسة العرب من مجاز واشتقاق..الخ.

ب- غريب اللغة

وأمثلته قليلة، وما استعمل منها أقل، مثل : صَرْح (Skyscroper) ودراجة (Bicycle).

وقد لجأ بعض المجمعيين إلى هذا المبدأ (ب)في صياغة المصطلح العلمي وآثروا إحياء بعض الألفاظ المهجورة لتعبر عن مفاهيم علمية جديدة، وقد كان في اعتبارهم آنذاك، صنيع العلماء الغربيين بالألفاظ اليونانية واللاتينية لبناء منظومة المصطلحات الخاصة بالعلوم.

فقد اقترح المجمعي الشيخ أحمد الإسكندري ألفاظا عربية مهجورة مثل:

المصدئ والقلاّء والشذام... الخ ليشير بها إلى العناصر الكيميائية المشهورة، بيد أن محاولته لم تحقق نجاحا يذكر.

المبدأ الثالث: الاشتقاق المعنوي (الاشتقاق بالترجمة).

وقد نتج عن استخدام هذا المبدأ ما لا ينحصر من المفردات الجديدة التي هي في الغالب إعادة صياغة لمفردات أجنبية.

إن حركة الترجمة المكثفة في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين وانتشار الصحف أترعتا العربية ولا تزالان بطوفان من المفردات أو العبارات التي صيغت على عجل وهي في الغالب مرادفة لمفاهيم منقولة عن الغرب، ولا تخلو صفحة من كتاب ولا من جريدة من عشرات من هذه المفردات أو العبارات، وهذه أمثلة فحسب في فقرة واحدة من مقال نقدي في إحدى الصحف: مشاكلة الواقع، الرؤية الشعرية، تكثيفُ التعبير... الخ.

2-4 في مجال الجملة

ليس الغرض من هذه الفقرات عرض التطورات الأسلوبية التي ظهرت في العربية المعاصرة ومصادرها والتي أكسبتها مرونة ظاهرة ومواءمة لمتطلبات التعبير العصري عن الثقافة والعلوم، بل الغرض فحسب عرض نماذج لها تحدد مجالها وأنماطها الأشيع.

وثمة دراسات حديثة منهجية في هذا الشأن من أهمها:رسالتي للماجستير عن (الخصائص التركيبية للجملة في لغة الصحافة المعاصرة)1975،ورسالتي للدكتوراة عن (الربط بين التراكيب في العربية المعاصرة)1978،وكتاب (ستتكيفتش) الذي ترجمته بعنوان(العربية الفصحى الحديثة: بحوث في تطور الألفاظ والأساليب، 1985). وأعمال مجمع اللغة العربية بالقاهرة(كتاب في أصول اللغة ج1،1969، ج2 1975 وج3، 1983)و(كتاب الألفاظ والأساليب ج1،1977، ج2، 1985)ومع ذلك فما زال تاريخ العربية المعاصرة حقلا لم يستغل كما ينبغي حتى اليوم.

وسوف يرى القارئ أنني لم أعرض لظواهر الإعراب، واكتفيت ببعض ظواهر التركيب من حيث التقديم والتأخير والفصل والوصل، والحذف، والمطابقة.. الخ لأمرين أحدهما أن العربية المعاصرة فصحى مُعْرَبة، ولا يزال المجتمع اللغوي يعد مخالفة الإعراب خطأ ينبغي التحرز منه، والثاني أن التغيرات التي لحقت العربية المعاصرة تكاد تتركز في ظواهر التركيب السالفة.

وثمة طرق متعددة لتصنيف هذه الظواهر، بحسب تأثيرها في بنية التركيب العربي أو عدم تأثيرها، وبحسب وفائها بالمراد أو بعبارة أخرى ألها مرادف عربي قديم ملائم أم لا؟. وبحسب مصدرها، أهي ناتجة عن تأثير أجنبي أم لا ؟. وهذه كلها تصنيفات نافعة، ولكنها توزع المادة توزيعا غير منتظم، ومن ثم آثرت تَصْنيفا شكليا يجمعها في صنفين، الأول: ما يلحق الجملة الصغرى أو النواة التي تتألف من مسند إليه ومسند وتكملة، والثاني : ما يلحق الجملة الكبرى المؤلفة من جملتين صغريين. وفي أثناء عرض الأمثلة نقدم المعلومات التي تهتم بها التصنيفات السابقة، على أن اعتبارات التصنيف قائمة عندي على تقديري الخاص، إذ كثير منها يختلف صنفه وفقا لاعتبار أو آخر، ولا تتحمل هذه الأوراق تفصيل القول في معتقدات هذا التقدير.

3-2-1 ظواهر الجملة الصغرى

أ- اقتران الأسماء

* يشيع في مُحْدَث الاستعمال أسماء يقترن بعضها ببعض على نحو غير معروف في الفصحى نحو (قطار القاهرة- الإسكندرية، ومشكلة الجزائر- المغرب) وهو أسلوب شائع أيضاً في المصطلحات العلمية، فالاسم الأول يقترن بالثاني وكأنهما كلمة واحدة مركبة، وهو أسلوب وافد من اللغات الأجنبية. وقد جوزه المجمع على تقدير حرف عطف أو على أن الاسمين المقترنين متضايفان على معنى اللام أو إلى (في أصول اللغة ج3 ص161).

** وقريب مما سبق قولهم (صاروخ أرض أرض، أو جو أرض) وهو أسلوب من الاقتران وافد من اللغات الأجنبية(earth to earth, air to earth)وإن كان يشبه التركيب المزجي في قول العرب: صباح مساء، وحيص بيص. الخ ولهذا يخفى وجه ضبطه أو تخريجه، وقد درسه المجمع وأجاز استعماله على الإضافة، (كتاب الألفاظ والأساليب ج2 ص66).

ب- المطابقة بين الصفة والموصوف

* الأصل أن تجيء تاء التأنيث لتمييز المؤنث من المذكر نحو: مسلمة ومسلم، على أن النحاة يُخرجون من هذا الأصل صيغا خاصة لا تأتي فيها التاء فارقة بين المؤنث والمذكر، وهي (فعول) فيقال رجل صبور وامرأة صبور، وفعيل: رجل قتيل وامرأة قتيل، ومفعيل كرجل مسكين وامرأة مسكين، و(مفعال) كرجل مهذار.. الخ فإن جاء شيء من ذلك بالتاء عده بعضهم شاذا، وعده بعضهم على غير الغالب.

والعربية المعاصرة تميل إلى استخدام التاء في التفريق طردا للباب على وتيرة واحدة ورعاية للأصل، فيقال

رجل صبور وامرأة صبورة... الخ. وقد أجاز المجمع إلحاق التاء بهذه الأوزان رعاية لما شاع، ورعاية للأصل. (في أصول اللغة ج3 ص50-56).

** كما يشيع في العربية المعاصرة تأنيث (فَعْلان) بالتاء فيقال : سكرانة ومن ثم يجمع جمع مؤنث فيقال : سكرانات، والنحاة يوجبون تأنيثه على (فعلى) نحو سكرى ويجمعونه على سكارى، وقد أجاز المجمع هذا الاستعمال رعاية لشيوعه ولأن له أصلا في العربية.(في أصول اللغة ج1، ص80).

*** من أعقد مسائل النحو على الناشئة والمعلمين مسائل اسم التفضيل وبخاصة ما يتصل بمطابقته لموصوفه، ومن أكثرها وعورة وأحوجها إلى التعبيد والتيسير مسألة التفضيل المقترن بأل، والنحاة يرون أنه يجب أن يطابق موصوفه في الإفراد والتذكير وغيرهما.

أما في العربية المعاصرة فيقولون: هي الأذكى والأقوى والأظرف والأشرف ويقولون في الجمع: هن الأذكى والأجمل والأظرف.. الخ فلا يطابقون في شئ من هذا، ويجدون صعوبة في المطابقة التي تفرض عليهم أن يقولوا الذكيا والقويا والجملى.. وأن يقولوا في الجمع مؤنثا: الذكييات والقوييات والجمليات.. وفي جواز المطابقة وعدمها تيسير ومراعاة للذوق لا سيما فيما يسمع. وقد وافق المجمع على هذا الاستعمال (الوضع اللغوي، للمؤلف ص 212-214).

ج- الفصل بين المتضامين

* يشيع في الفصحى المعاصرة الفصل بلا النافية فيقال (كان عملا لا أخلاقيا) و(هذا تصرف لا شعوري) و(يتحلى بصبر لانهائي) فلا هنا مقحمة بين الموصوف والصفة، وهي غير عاملة، ومن ثم فما بعدها يعرب بحسب ماقبلها، وهو استعمال محدث وإن كان يمكن رجعه إلى أمثلة قديمة، وقد أجاز المجمع استعماله. (في أصول اللغة ج2، ص144) و (الوضع اللغوي في الفصحى المعاصرة للمؤلف ص176-183).

** ويشيع كذلك الفصل بربما، والنحاة يقررون أن (رب) إذا زيدت (ما) بعدها فالغالب أن تكفها عن العمل وأن تهيئها للدخول على الجملة الفعلية، ولكنها تجئ في العربية المعاصرة في نحو (لو نجح لاستطاع ربما تخفيف الأمر عليها) و (كانت المباحثات صعبة وربما مستحيلة).. وهي في هذا تخالف المعروف في القديم بدخولها على مفرد لا جملة وأثر الترجمة في الأسلوب واضحة، فهو ترجمة لجملة إنجليزية تجيء فيها (perhaps)أو ما يماثلها، وهي في تقديري مقحمة، وما بعدها يتعلق إعرابيا بما قبلها كما في المثال الأول، وإذا جاءت معها الواو، فالواو عاطفة، وهي مقحمة بين حرف العطف والمعطوف، وقد جوز المجمع هذا الأسلوب.(الوضع اللغوي، للمؤلف ص198-200).

*** وكذا يشيع الفصل بليس في أسلوب لا تخفى أصوله الأجنبية فيقال (تفرضه ليس مصالح مصر فقط بل مصالح الوطن أيضاً) و (يهدد ليس موازين الأمن القومي فحسب بل موازين الأمن

العالمي كذلك)..الخ وهو يحاكي الأسلوب الإنجليزي الذي يستخدم فيه (not...only...but...also)وكلمة (مصالح) فاعل وكلمة (موازين) مفعول به، و(ليس) في تقديري أداة للنفي فحسب، وما بعدها يعرب بحسب ما قبلها، وقد أجاز المجمع هذا الاستعمال. (الوضع اللغوي للمؤلف ص206).

د- الحذف

* ومما يفسر على الحذف قولهم : (مدن وقرى مصر) والتركيب الأصلي هو مدن مصر وقرى مصر، ثم حذف المضاف إليه. وليس هذا الاستعمال جديدا تماما وكثرته فحسب سمة من سمات العربية المحدثة (العربية الفصحى الحديثة ترجمة المؤلف ص200).

** ومن ذلك أيضا قولهم: (سوف يجد وسيلة أو أخرى) والمراد أو وسيلة من الوسائل ، وهو قريب مما يقال في الفصحى: رأيت رجلا ورجلا آخر. أي غيره. ومن ثم فالمنعوت محذوف أي (وسيلة أخرى)، ومع ذلك فالأسلوب أجنبي He will find one means or onother.

هـ- استعمالات خاصة لبعض الأسماء أو الأدوات

ولمثل هذه الاستعمالات تفسيرات عدة، على الحذف أو إلغاء العمل أو الفصل، ومن ذلك.

* نص النحاة على أن (أي) قد تكون شرطية نحو قوله تعالى (أيّا ما تدعو فله الأسماء الحسنى) أو استفهامية نحو (أيكم زادته هذه إيمانا) أو موصولة نحو (ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد) أو دالة على الكمال فتقع صفة للنكرة نحو(زيد رجل أي رجل) ولكنها تجئ في اللغة المعاصرة على نحو لا يستقيم رده إلى معنى من معانيها السابقة، مثل : (لم يصدر عنهم أي تصريح) (اشتر أي كتاب) (لم تسفر وساطته عن أي نتائج).

ويعجبني تعليق العقاد على رافضي هذا الاستعمال، قال: إن (أي) هنا تقابل في الإنجليزية كلمة (any) وإن الصحفيين قد أضافوا معنى هذه الكلمة إليها، ولو لم يفعلوا لبقي مقابلها ناقصا في العربية، وليس من واجبنا أن نترك لغتنا عاجزة عما تدل عليه اللغات الحية.

وقد تبارى المجمعيون في تسويغ هذا الاستعمال وفي تقريبه من الفصحى حتى نال رضا مؤتمر المجمع وأقر استعماله(كتاب في أصول اللغة ج2ص199-208).

** لحتى في العربية الفصحى مواقع، فقد تكون جارة مثل (حتى مطلع الفجر) وعاطفة (يموت الناس حتى الأنبياء) وابتدائية نحو (فواعجباً حتى كليب تسبني)، ولكنها تجئ في العربية المعاصرة في موقع جديد لم تذكره كتب النحو، ومن أمثلتها: (لم يحضر المؤتمر حتى المنظمون) و(لم يقرأ حتى الصحيفة) و(لم يسافر في الإجازة حتى إلى القرية).

ففي الأمثلة السابقة تجئ (حتى) وبعدها ما يصلح أن يكون فاعلا كالمثال الأول، وأن يكون مفعولا كالمثال الثاني، وأن يكون مجرورا كالمثال الثالث، وليس في الكلام ما يردها إلى موقع من مواقعها في

الفصحى،فليست جارة أو عاطفة أو ابتدائية إلا بتأويلات بعيدة.

وفي تقديري أن هذا الاستعمال أثر من آثار الترجمة، فهي تشبه استعمال even، ففي الإنجليزية يقال: He never open even letter وهو ما ترجمته: لم يفتح حتى الخطاب. وقد رأيت في تسويغ هذا الاستعمال الشائع أن تكون (حتى) حرفا للغاية لا ينبني على وجوده أثر إعرابي فيما بعده، ومن ثم يتعلق ما بعدها بما قبلها.

وقد لقي تجويز هذا الاستعمال معارضة شديدة من بعض المجمعين، بيد أن المجمع في النهاية جوزه على أن تكون (حتى) عاطفة والمعطوف عليه محذوف مفهوم من المقام.(في أصول اللغة ج3 ص146، 148).

4-2-2 ظواهر الجملة الكبرى

نعني بالجملة الكبرى الجملة التي تتألف من جملتين صغريين، ولها شكلان الأول يتألف من تركيب مستقل وآخر مستقل كقولهم: الهدم سهل والبناء صعب، ويربط التركيبين ما يعرف بحروف العطف.

والثاني يتألف من تركيب مستقل وآخر غير مستقل نحو: جلس الرجل وهو يغالب النوم، ويربط التركيبين روابط عدة منها واو الحال وقد وأدوات الشرط، والفاء واللام، والضمير، وقد يكون الرابط سياقيا فحسب.

وفي العربية المعاصرة استعمالات كثيرة، بعضها يخالف المشهور من أقوال النحاة في قواعد التركيب والربط، وبعضها يعد تجديدا في بناء الجملة وفي طريقة الربط بين عناصرها.

أ-الشكل الأول:تركيب مستقل+تركيب مستقل

الاتجاه العام في العربية المعاصرة في العطف بين التراكيب المستقلة هو عطف التراكيب المتماثلة في الشكل والجهة والزمن، وثمة أحوال تخالف ذلك، ولكنها محكومة بضوابط، ولا تتحمل هذه الأوراق تفصيل القول في هذه الأحوال، ونكتفي ببعض صور العطف التي استحدثتها العربية المعاصرة.

* تجئ واو العطف متوسطة بين (لم) و(لن) نحو: (الصورة لم ولن تفارق الذهن). وبعطف (لن) على (لم) يعبر عن الزمن المستمر من الماضي إلى المستقبل، وهي الدلالة التي تتحقق بالجمع بين (لم) وهي لنفى الماضي و(لن) وهي لنفي المستقبل.

وتجئ أيضاً متوسطة بين (لا) و(لن) نحو: الموقف لا ولن يغير الرأي، وبعطف (لن) على (لا) يعبر عن الزمن المستمر من الحال إلى المستقبل، وهي الدلالة التي تتحقق بالجمع بين (لا) و(لن).

ومبلغ علمي أن الجمع بين (لم) و(لن) وبين (لا) و(لن) على النحو السابق من المحدثات فلم أعهده فيما قرأت، وهو فيما يبدو لي من آثار اللغات الأجنبية، ففي الإنجليزية مثلا يقال:

I don't and will not write to him

ويقال في ترجمته: لا ولن أكتب إليه.

ويقال أيضاً: **He does n't and will not write to him**

ويقال في ترجمته: لا ولن يكتب إليه.

وعطف الحرف على حرف ليس معروفا في العربية، وفي تقديري أن العطف في المثالين المتقدمين من عطف جملة على جملة، فالجملة الأولى (الصورة لم ولن تفارق الذهن) مختزلة من جملة أخرى هي (الصورة لم تفارق الذهن والصورة لن تفارق الذهن) ثم حذف من الجملة الثانية العناصر الموجودة في الجملة الأولى، ويبقى بعد الحذف العاطف وحرف النفي (لن).

وقد سوغ المجمع هاتين الصورتين على أنهما من تنازع العاملين معمولا واحدا مع السعة في تطبيق القاعدة على الحروف.(في أصول اللغة ج3، ص156، والوضع اللغوي للمؤلف ص183-185).

ب- الشكل الثاني: تركيب مستقبل+ تركيب غير مستقل

1- الواقع حالا

يرتبط التركيب غير المستقل بأحد العناصر اللغوية التي يتألف منها التركيب المستقل، ولهذا فهو تركيب متضمن، بمعنى أنه جزء من تركيب أكبر، وعلى سبيل التوضيح يشغل التركيب غير المستقل في مثالنا السابق (وهو يغالب النوم) موقع الحال من الكلمة (الرجل) في التركيب المستقل (دخل الرجل) وهو ما يعرف بصاحب الحال في النحو العربي. والرابط بينهما هو: واو الحال والضمير.

ومن الصور التي تشيع في العربية المعاصرة ويعدها بعض النقاد مخالفة للمشهور من أقوال النحاة:

* مجيء واو الحال مقترنة بالفعل المضارع المنفي بـ(لا) أو(ما) أو(ليس) نحو (تمر الأيام ولا تشيب له شعرة) والمشهور أن يجئ ذلك بغير الواو.

** مجيء الواو مقترنة بالفعل الماضي التالي لـ(إلا) نحو: (مالقيته إلا وأكرمني) والمشهور أن يجئ ذلك بغير الواو.

ومن الأنماط التركيبية الشائعة التي استحدثتها العربية المعاصرة:

* النمط الذي يتقدم فيه التركيب الحالي نحو: (وهو يغادر المكان قرأ الفاتحة).

وهو تركيب محول- في تقديري- عن التركيب الأصل (قرأ الفاتحة وهو يغادر المكان).

** النمط الذي يجئ فيه التركيب الحالي تاليا (لاسيما) نحو: سأقبل الدعوة لا سيما والموعد مناسب.

*** النط الذي يأتي فيه التركيب الحالي متقدما مسبوقا بالأداة(أمّا) نحو (أما وقد قبلت دعوتي فأرجو أن تحضر مبكرا) وفي تقديري أن هذه الصورة محولة عن الشكل المألوف: (أرجو أن تحضر مبكرا وقد قبلت دعوتي).

2- الواقع مفعولا به

ولهذا التركيب أنماط عديدة من أهمها بالنسبة لهدفنا من هذا الأوراق:

النمط الأول: فعل من أفعال القلوب+ أداة من أدوات الاستفهام.

ومن أمثلته:

لا أدري أأنا فرحانة أم حزينة.

لست أعلم كيف أبدأ الحديث.

كيف تعرف من يكون أبوها.

إنني لأعجب ما الدور الذي قام به.

وأمثلة هذا النمط تجئ على المشهور من كلام العرب.

النمط الثاني: فعل من أفعال القلوب+إن الشرطية أو إذا الظرفية المحولة إلى الشرط.

ومن أمثلته:

لا تعرف إن كان القارب يتحرك أم لا

لا أدري إذا كانت لدينا خطة محددة في معالجة المشكلة

وقد تجئ (ما) قبل إذا نحو:

سوف نرى ما إذا كان الحصار سيجدي أم لا

وقد تسبق (ما) بحرف جر نحو:

يتساءل عما إذا كان قد اشترك في المسابقة.

وهذا النمط يشيع في العربية المعاصرة، وقد تعرض له كثير من النقاد ووسموه بالعجمة، ثم جاء المجمع فأعاد البحث فيه مؤخراً، ورأت لجنة الألفاظ أنه جائز ولا حرج من استعماله، ولكن قرارها لم يحظ بموافقة مؤتمر المجمع (كتاب الألفاظ والأساليب ج1، ص123،124).

وهذا النمط من الاستعمال من آثار الترجمة وكأن الكتاب جاءوا بإن أو إذا لتكون مرادفة لـ Whether، (العربية الفصحى الحديثة ص248-250).

3- الواقع مجرورا بالحرف

وله أنماط متعددة يعنينا منها هنا التراكيب التي تتميز بها العربية الفصحى عن الفصحى القديمة، ومن ذلك التراكيب التي يجئ فيها التركيب غير المستقل مجرورا باللام أو حتى أو كي ومتصدرا الجملة الكبرى مثل:

لأن الكاتب صديقي فأنا أصدقه.

حتى نرى من القادم فلنختبئ خلف هذه الأشجار.

كي تعرف سرعة الأرض فلا بد أن تنسبها إلى شيء يتحرك.

وهذه التراكيب هي تحوير لتراكيب مماثلة في الفصحى القديمة يتأخر فيها الجار والمجرور، فالمعروف في العربية أن يقال: (أنا أصدقه لأن الكاتب صديقي)، (لنختبئ خلف هذه الأشجار حتى نرى من القادم) و (لابد أن ننسب الأرض إلى شيء يتحرك كي نعرف سرعتها). وشبيه بهذا أيضا قولهم:

بما أن البترول عصب الطاقة فعلينا أن نحسن استخدامه.

على الرغم من أن العالم الثالث يضم أغلبية سكان العالم فإنه لا يملك الثروة الحقيقية.

على الرغم من أن الهدوء يسود منطقة الشرق الأوسط إلا أن الموقف قد يصبح خطيراً.

وهي أيضاً تراكيب معدولة عن (علينا أن نحسن استخدام البترول لأنه عصب الطاقة) و (إن العالم الثالث لا يملك الثروة الحقيقية على الرغم من أنه يضم أغلبية سكان العالم) و (إن الموقف قد يصبح خطيرا على الرغم من أن الهدوء يسود منطقة الشرق

الأوسط).

وهذه التراكيب الجديدة تكسب العربية المعاصرة مرونة في التعبير وملاءمة لما يناظرها في اللغات الأجنبية.

4- الواقع شرطاً

تتألف الجملة الشرطية من نمطين:

الأول: أداة الشرط+تركيب الشرط+تركيب الجواب.

إن ارتاب فسيأخذ بالأحوط

الثاني: تركيب الجواب+أداة الشرط +تركيب الشرط

سوف تكون الخسائر موجعة إن تدهور الموقف عسكريا.

وأدوات الشرط قسمان، الأول: أدوات الشرط الأصلية وهي إن ولو ولولا، والثاني: أدوات الشرط المحولة، وهي أيضا قسمان الأول: أدوات الشرط المحولة عن الظرفيّة الزمانية مثل: إذا وعندما وحينما ولما وكلما، أو المكانية مثل: حيثما وأينما وأنّى، والثاني: أدوات الشرط المحولة عن غير الظرفية مثل (من) و (ما).

وقد تنوع استخدام الجملة الشرطية تنوعا كبيراً، وتنوع معها استخدام أدوات الشرط والروابط التي تربط الشرط بالجواب، ومن أهم التطورات التي حدثت في العربية المعاصرة.

1- اقتران جواب (إن)و(إذا)و(مهما) باللام و(إلا).

2- اقتران جواب الشرط بلو بـ (الفاء).

3- اقتران ما يمكن أن يكون جوابا لـ (عندما) و(حينما) و(كلما) بالفاء وقد تطور استخدام هذه الظروف تطورا مثيرا، فأشبه استخدام الظروف المحولة إلى الشرطية مثل (إذا) وتنوعت جملة الشرط معها فجاء معها الماضي والمضارع، وتنوعت جملة الجواب معها مقترنة بالفاء في أحوالها المعروفة أو بغيرها فثريت من ثم الجملة الشرطية بعديد من الأشكال الملائمة للأزمنة المتعددة.

4- استخدام (فيما) في جملة تشبه الجملة التي تستخدم فيها (بينما) شكلا ومعنى.

5- استخدام (مادام) كما تستخدم (إذا) الشرطية.

6- استخدام (طالما) كما تستخدم (مادام) شكلا ومعنى.

5- الواقع مجرورا بالإضافة

ولهذا التركيب أنماط عديدة يعنينا منها هنا النمط الذي يكون فيه التركيب غير المستقل في موقع المضاف إليه من كلمة ظرفية في التركيب المستقل نحو (لم يجد أحداً في البيت حين استيقظ) ومن أهم ظواهر الاستعمال المحدث لهذه الظروف.

1- التوسع في استخدام (إذ) للتعليل. نحو (نحن سعداء إذ نعاصر هذا الحدث).

2- التوسع في استخدام (حيث) للتعليل نحو (ما كان ينبغي تعيينه في هذه الوظيفة حيث لا يصلح لها) وللزمان نحو (ينتهي عمله عند الفجر حيث يصلي وينام إلى الضحى).

3- استخدام (حين) للتعليق دون (ما) ومجيئها في صدر جملتها نحو (حين يشيخ منهم جيل يحل محله جيل جديد).

4- مجيء (يوم) متصدرة جملتها واقتران جوابها بالفاء أحيانا، نحو (يوم احتل الإنجليز مصر اختل ميزان القوى).

5- مجيء (مذ) أو (منذ) في صدر الجملة واقتران التركيب المستقل بالواو، نحو (مذ تزوج فاطمة لم يهدأ له بال) و(منذ بدأت الحرب والقتال دائر).

ومن الأساليب الشائعة في العربية المعاصرة التي تثري التركيب العربي بألوان متعددة من المعاني الأساليب الآتية:

1- مثلما، نحو (مثلما لانجاح لخطة بغير زمن فلا نجاح لها بغير تمويل).

2- كما أن، نحو (كما أن الطيبات للطيبين فإن مسرح العبث للعبثيين).

3- مع أن (مع أنني غير واثق منه إلا أنني تعاقدت معه).

4- بمجرد أن (بمجرد أن رد باب حجرته ضمني إلى صدره).

5- بقدر ما (بقدر ما كان غنيا بأمواله كان فقيرا في نفسه وعقله)

وبعد، فليس القصد من هذا العرض أن تستوفى أشكال التعبير الجملي المحدث في العربية المعاصرة بل كان القصد فحسب التمثيل بما يكفي على تقدير ما حدث فيها من تغيير جعلها وافية بمطالب التعبير عن ثقافة العصر وعلومه وشهد لها بمرونه واضحة وتوسع محمود.

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
مكتب تنسيق التعريب

سلسلة المعاجم الموحدة
رقم : ٨

المعجم الموحد

لمصطلحات علم الأحياء

(انجليزي - فرنسي - عربي)

١٩٩٣

فهرسة المخطوطات العربية في المغرب

د. أحمد شوقي بينبين (*)

الحديث عن فهرسة المخطوطات في المغرب يستوجب الحديث أولا عن مصادر هذه المخطوطات وعن الطرق المختلفة التي عملت على تجميعها نسخا واستنساخا وتأليفا وترجمة واقتناء إلى أن أصبحت هذا الرصيد الغني الذي تزخر به مكتباتنا والذي جعل المغرب الأقصى قبلة الباحثين من جميع الأصقاع بحثا عن نوادر المخطوطات التي قد يعز نظيرها في جهات أخرى.

إن هذا التراث المحفوظ اليوم في المغرب في مختلف خزاناته يعتبر شاهدا صريحا على اندماج بلد البرابر في الحضارة العربية منذ القرون الإسلامية الأولى. و لم يكن من المصادفة في شيء العثور في مسجد خزانة بزو وهي مدينة صغيرة على جبال الأطلس على النسخة الوحيدة في العالم لكتاب "البرصان والعرجان والعميان والحولان" لعالم البصرة الكبير أبي عثمان الجاحظ[1]. وعلى الرغم من قلة الأخبار والمعلومات عن خزانات الكتب في مصادر التاريخ والتراث بالمغرب فإنه كان للكتاب مكانته في هذا البلد.

إن المسافة الجغرافية والثقافية التي تفصل بين المغاربة والشرق الذي يعتبر منبع حضارة الكتابة تحث هؤلاء المغاربة على إعطاء الكتب وكل شيء مكتوب عناية ومكانة شبه مقدسة تتجلى من خلال حركة الشيوخ الذين ينحدرون لجمع ورقة مطبوعة أو مخطوطة تعترضهم في طريقهم وحفظها في حفرة أو ثقبة حائطية حتى لا تدوسها أقدام المارة.

نلاحظ أن اهتمام المغاربة بالكتاب قديم وتقديسهم للورقة المكتوبة عريق. فلا غرابة إذن في كون المغرب يحتضن خزانات تضم أهم الأرصدة المحفوظة في مختلف بلدان الغرب الإسلامي بأكمله.

وإذا أردنا أن نعطي فكرة عن رصيد التراث العربي المخطوط في المغرب في الوقت الراهن فلا بد من الحديث ولو باختصار عن حالة هذا الرصيد في العصور السابقة. إن طبيعة المخطوطات في المغرب في العصور الأولى وحتى العهد المرابطي لا تكاد تختلف عن طبيعة المخطوطات في المشرق.

كل المعلومات التي أمكن استقاؤها - على ضآلتها - تنبئ بأن معظم الكتب كانت عبارة عن

(*) تقدم د.أحمد شوقي بينبين، وهو محافظ الخزانة الملكية بالرباط بهذا البحث ضمن أعمال ندوة حول المخطوطات العربية، أقامتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بالقاهرة.

مصاحف قرآنية وكتب فقه وحديث، ويدلنا على هذا تلكم الأخبار المتعلقة باهتمام أمراء الدولة المرابطية بالفقه المالكي، ودعوة الفقهاء إلى وضع كتب الفروع المتعلقة بهذا المذهب.

و لم يكن لكتب المعارف الأخرى، خاصة كتب الفلسفة والتصوف، مكان في الخزانة المغربية، بل يعاقب عقابا صارما من وجدت عنده هذه الكتب.

يقول المراكشي في "المعجب": "و لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها... و دان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام. وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين... فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه"(2).

لم تعرف الخزانة المغربية إذن تغييرا في محتوياتها حتى بداية القرن السادس الهجري الذي عرف نهاية المرابطين. ولكن مع بداية الموحدين الذين كانوا أكثر تفتحا من سابقيهم بدأت كتب الفلسفة والتصوف تجاوز كتب الفقه والحديث والتفسير في الخزانات الخاصة والعامة، وليس أدل على هذا من ظهور أكبر صوفية المغرب في هذا العهد ووضع أكبر التآليف وأشهر شروح كتب فلسفة الإغريق. بإيعاز من عبد المؤمن، وضع أبو مروان عبد الملك بن زهر كتاب "الأغذية". وبدعوة من أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن الموحدي، وضع الفيلسوف ابن رشد شروحه لمؤلفات أرسطو. وفي هذا العهد كذلك ألف ابن الزيات التادلي كتاب "التشوف إلى رجال التصوف" الذي يعتبر أكبر مؤلف عن صوفية المغرب في العصر الوسيط(3).

أما في العهد المريني، فإن كل علوم العصر قد درست وألف فيها. ففي جامع القرويين يدرس – إلى جانب الفقه والتفسير – علوم الرياضيات وعلم الفلك وعلوم أخرى مشابهة. وقد جلبت أو نسخت كل المؤلفات التي تعالج هذه العلوم مما زاد رصيد المخطوطات في المغرب تنوعا وغنى وحفز العلماء والوجهاء والملوك إلى البحث عن المخطوطات واقتنائها مهما كان الثمن. إنه العهد الذي عرف خلاله المغرب أكبر العقول وأهم الكتب في التاريخ والحضارة. و لم تكن عهود الشرفاء السعديين والعلويين بأقل اهتماما من هؤلاء بجمع الكتب ونسخها واستنساخها وجلبها من جميع الجهات.

كان المنصور الذهبي السعدي -مثلا- يأتي بالكتب من إصطنبول والقاهرة وشبه الجزيرة العربية وغيرها من البلدان، وكانت أكبر وأفخر هدية يتلقاها من سفرائه وأقربائه ووزرائه، تلكم التي تكون عبارة عن كتاب مخطوط أو كتاب نادر أو مصحف يحتفظ به في خزانته.

ومما يدل على اهتمام الملوك العلويين بهذا الجانب هو كون جلهم علماء شاركوا في البحث والتأليف والترجمة[4] وقد أسسوا الخزانات التي لعبت أكبر الأدوار في الحفاظ على هذا التراث ووضعوا على رأسها عالما أو قاضيا أو ربما وزيرا، كما صنع المولى إسماعيل حين عين على رأس خزانته الخاصة الوزير اليحمدي. هذا الاهتمام هو الذي جعل الخزانة المغربية في الوقت الحاضر من أهم خزانات العالم غنى بالمخطوطات وحفاظا على أصولها ونفائسها.

وبالإضافة إلى ذلك، يعتقد الباحثون في مجال المخطوطات أن المغرب يحتفظ في بعض الخزانات العامة، وربما ضمن الأرصدة التي لم تفهرس بعد وكذلك في خزانات أخرى خاصة، كتب الإغريق واللاتين التي نقل بعضها إلى العربية والتي لا توجد في أي بلد عربي آخر. ومما يدل على هذا هو اهتمام الباحثين الأوروبيين بهذه الكتب وبحثهم عنها في بلاد المغرب. لقد أصبح المغرب في نهاية القرن التاسع عشر تقريبا البلد العربي الوحيد الذي لم تطأ أرضه بعد أقدام المستعمر، فاعتبارا لهذه الوضعية السياسية ونظرا لاهتمام المغاربة بالكتاب أصبح المغرب كعبة الباحثين الذين يسعون إلى الحصول على ما تعذر العثور عليه من مخطوطات عربية ومترجمة.

إن عددا من الوثائق التاريخية التي نشر بعضها هنرى دو كستري في كتابه: "المصادر الدفينة لتاريخ المغرب"، تؤكد ما ذكرناه سلفا، وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن الباحث الشرقي "باي العباسي"[5] قد قدم إلى المغرب وقضى وقتا طويلا في خزانة جامع القرويين يبحث عن عشريات تيتوس ليفوس (Tite live) الذي يعتبر محفوظا في إحدى خزانات هذا البلد، وعلى الرغم من عدم العثور عليه في ذلك الوقت فإن المستشرق ليفي بروفنسال الفرنسي[6] الذي بحث بدوره عن عشريات المؤرخ اللاتيني أكد من جهته أن المؤرخ ابن خلدون قد قرأ هذا الكتاب في ترجمته الكلية أو الجزئية إلى العربية واستقى منه الأخبار المتعلقة بواقعة "كان" (Cannes)، التي جرت سنة 216 قبل الميلاد وهزم خلالها القرطاجنيون بزعامة "هانيبال" عساكر الرومان برئاسة "فارون".

وإذا خلت اليوم المكتبات العمومية المغربية من هذه المخطوطات، فهذا لا يعنى أنها غير موجودة أو أنها فقدت إلى الأبد، بل إنه من شبه المؤكد أنها آلت إلى خزانة من خزاناتنا الخاصة العديدة التي لا تزال مجهولة[7] والتي تضم بلا شك في خباياها أرصدة هائلة من المخطوطات تكاد تفوق ما هو محفوظ ومفهرس ومتداول في مختلف الخزانات العامة.

إن هذا التراث الغزير الذي تجمع لدى المغاربة منذ العصور الإسلامية الأولى قد حفظته وصانته مكتبات مختلفة يمكن حصرها في أنواع ثلاثة: المكتبة الملكية، والمكتبات الخاصة، والمكتبات العامة. وقد لعبت كلها دورا بارزا في حفظ وتنظيم هذه الحصيلة

الحضارية التي أفادت الباحثين مستشرقين وعربا في الوقوف على معالم الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في المغرب.

إن الخزانة الملكية التي تعتبر أول مؤسسة تفصح عنها كتب التاريخ والحضارة قد عملت على نسخ المخطوطات واستنساخها وترجمتها إلى لغة الضاد فتجمع لديها ذلك الرصيد الذي جعل منها، كما قلنا سابقا، أهم خزانة في الغرب الإسلامي بأكمله. فبصدد حديثه عن الحركة الثقافية على عهد الأدارسة يخبرنا أبو عبيد البكري في المسالك والممالك أن عددا كبيرا من العلماء والأدباء، أندلسيين ومغاربة، قصدوا بلاط الخليفة الإدريسي يحيى الرابع وأن كثيرا من الوراقين كانوا يعملون بخزانة القصر ينسخون الكتب. "... إنه كان ينسخ له عدد من الوراقين"[8].

وقد بلغت هذه الخزانة مكانة مرموقة على عهد المرابطين والموحدين وعرفت نموا وازدهارا على عهد المرينيين والسعديين والعلويين. يحدثنا المراكشي في "المعجب" عن الخليفة الموحدي يوسف بن عبد المؤمن الذي كان عالما محبا للفلسفة أنه أمر بجمع كتبها، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي[9]. "و لم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ويبحث عن العلماء، وخاصة أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك من قبله ممن ملك المغرب"[10]. و لم يكن يكتفي هذا الخليفة بما يقتنيه من كتب، وبما يهدى له منها من طرف السفراء والعلماء والوجهاء، بل كان يلجأ إلى القوة لاحتكار أي خزانة خاصة جاء إلى سمعه أنها تضم مجموعة من كتب الفلسفة التي كان يعشقها. وقصة السيطرة على خزانة العالم "المراني" التي حدثنا عنها المراكشي في كتابه "المعجب" أكبر دليل على هذه الظاهرة[11].

وقد بلغت هذه الخزانة أوجها ابتداء من القرن الثامن الهجري حيث كان معظم ملوك المغرب علماء محبين للكتب، لا يدخرون وسعا في اقتنائها واستنساخها وترجمتها، للاستفادة منها وإفادة الباحثين من العلماء والمؤلفين الذين كانت تعج بهم بلاطاتهم على مر العصور، ولا تزال المكتبة الملكية المغربية تحتفظ بالكثير من المخطوطات عليها حواشي الملوك وتعليقاتهم وتملكاتهم أو إشارات إلى أوامرهم بتأليفها برسم خزاناتهم الخاصة. وقد جعلوا على رأس هذه المكتبات قضاة و وزراء وحجابا، إيمانا منهم بدور هذه المؤسسات في تطوير المجتمع وترقيته.

وإذا كانت الخزانة الملكية خزانة خاصة، فإن الوضع الذي تتميز به، من حيث محتوياتها وغناها واقتناؤها لنفائس المخطوطات ونوادرها ودورها العلمي الكبير الذي أناطت به نفسها منذ ظهور الملكية في المغرب، جعلها تتبوأ مكانة تميزها عن المكتبات الخاصة التي تميزت بها البيوتات المغربية منذ القديم.

إن كتب التاريخ والحضارة المغربية تعج بالأخبار عن هذه الخزانات التي تزين بيوت الأمراء والوزراء والوجهاء والعلماء والتجار والأغنياء الذين لم يكن جهل بعضهم ليثنيهم عن البحث عن الكتب

الجميلة الأنيقة والمزخرفة، وإذا غفل المؤرخون عن ذكر بعض هذه الخزائن فإننا نعرفها اليوم ونقيمها من خلال التملكات التي لا تزال ماثلة على ظهر الكثير من المخطوطات المحفوظة في مختلف الخزانات.

وللتدليل على ذلك يحدثنا الإفراني في "نزهة الحادي" أن الوزير السعدي عبد العزيز الوزكيطي وحاجب السلطان أحمد المنصور الذهبي كانت له خزانة خاصة تضم خمسين ألف مخطوط، على الرغم من مستواه العلمي المتوسط، وتدلنا خاتمة كتاب "الدر المنظم في مولد النبي المعظم" أن هذا الكتاب ألف برسم خزانة أمير سبتة أبي القاسم بن أبي العباس العزفي. ومن مميزات هذه الخزانات أنها كانت مفتوحة في وجه الباحثين من العلماء للقراءة والنسخ وأنها كانت تسمح بإعارة الكتب.

أما المكتبات العامة فإنها بدأت في المغرب على غرار البلاد المشرقية داخل المساجد، وتتلخص هذه المكتبات في أربعة أنواع: مكتبات المساجد، مكتبات المساجد الجامعة، مكتبات المدارس العتيقة، ومكتبات الزوايا.

مكتبات المساجد ظهرت مع ظهور المسجد في المغرب، وما سميته بمكتبات المساجد الجامعة فإنها تلكم المكتبات التي أسست بإزاء بعض الجوامع الكبرى التي كانت تقوم بدور الجامعة في العصر القديم، وأخص منها بالذكر خزانة جامع القرويين الذي يعتبر أقدم جامعة عربية إسلامية، وخزانة جامع ابن يوسف بمراكش الذي أسسه علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي في مطلع القرن السادس الهجري، وقد كان للخزانتين، مع ما يماثلهما من مؤسسات، دور كبير في تطوير الثقافة وفي الحفاظ على المخطوطات، ولا تزالان إلى اليوم تؤديان هذا الدور.

وبإزاء هذه المكتبات توجد مدارس عتيقة، خصوصا في المدن القديمة كفاس ومراكش، لإيواء الطلاب الآفاقيين. إن هذه المؤسسات التي كان يقطن فيها الطلبة كانت مزودة بمكتبات للمطالعة والقراءة، و لم تكن مقتصرة على القاطنين وحدهم بل كانت تتجاوزهم إلى غير القاطنين من طلبة المساجد والمعاهد الأخرى[12].

وبالإضافة إلى ذلك بدأت تظهر في المغرب، خصوصا ابتداء من القرن العاشر الهجري، زوايا قامت بأدوار بارزة سواء في تطوير الثقافة أو في سبيل الحفاظ على التراث المخطوط. وعلى الرغم من كون السبب الرئيسي في إنشاء هذه المؤسسات سياسيا وذلك لمواجهة الغزو المسيحي للمغرب منذ القرن التاسع، فإنها قد أعطت أكبر العقول وأعظم المؤلفات وأهم الخزانات التي عرفها تاريخ المغرب، بدءا من عصر السعديين، ولا تزال خزانة زاوية تامجروت الناصرية بالجنوب المغربي تشهد على ذلك. أما خزانة الزاوية الدلائية التي كاد يتم لزعمائها الاستيلاء على المغرب بأكمله في القرن الحادي عشر الهجري فإنها كانت حسب المؤرخين في مستوى

خزانة الحكم المستنصر الأموي التي كانت تضم أربعمائة ألف كتاب. يحدثنا الشيخ عبد الحي الكتاني أن الكثير من كتب هذه الخزانة قد آل إلى خزانة السلطان العلوي المولى الرشيد الذي حبس بعضا منها على خزانة المسجد الكبير بمكناس[13].

كما آل رصيد منها إلى خزانات أخرى كخزانة الزاوية العياشية وخزانة مسجد مدينة "بزو" التي عثر فيها على النسخة الوحيدة لكتاب "البرصان والعرجان والعميان والحولان" للجاحظ ت255هـ.

بعد هذا العرض المختصر عن العوامل والظروف التي عملت على إنشاء المكتبات وتجميع أرصدة المخطوطات في المغرب، نرى الآن كيف تم تنظيمها وفهرستها قديما وحديثا.

إن كتب التراث والحضارة التي تشير إلى خزانات الكتب إشارات عابرة لا تحدثنا عن أنظمة هذه الخزانات إلا نادرا وعندما تتعرض لذلك فإنها تقتصر على ذكر اسم القيم عليها وذكر بعض محتوياتها من غير أن تتجاوزهما إلى الحديث عن عملية الفهرسة التي هي موضوع البحث.

وعلى الرغم من جهود المغاربة القدماء في محاولة فهرسة المخطوطات فإنها لا تعدو أن تكون قوائم و لوائح لا تخضع لأي نظام أو ترتيب، والواقع فإن الفهرسة بدأت مع بداية الخزانة المنظمة في المجتمع المغربي في العصر الحديث. وأول فهرس من هذا الصنف، جدير بالإشارة إليه، هو الفهرس الذي وضعه المستشرق الفرنسي (ألفرد بل **Alfred Bel**) لمجموعة خزانة القرويين في مطلع هذا القرن.

وسنتتبع الآن الفهارس التي وضعت حتى الآن لمختلف الخزانات المغربية، حسب التقسيم الثلاثي الذي اقترحناه في مقدمة هذا البحث ثم نتبعه الحديث عن المناهج المتبعة في الفهرسة وتقييمنا لها ثم نختم بموقفنا من الفهرسة وبعرض بعض المقترحات، لتقويم هذه العملية التقنية والعلمية في آن واحد.

1 – الخزانة الملكية:

أشرنا آنفا إلى أن المصادر لم تفصح عن ذكر فهارس الخزانة الملكية إلا ما أشارت إليه من لوائح تفتقر إلى كل المواصفات التي تتميز بها الفهرسة الحديثة، ويبقى أن أول محاولة وضعت لترتيب مخطوطات الخزانة الملكية[14] وفهرستها تلكم التي قام بها العلامة محمد الفاسي، من خلال البحث الذي نشره عام **1964** بمجلة البحث العلمي بعنوان: "الخزانة السلطانية وبعض نفائسها": بعد مقدمة موجزة عن تاريخ المكتبات المغربية عموما و المكتبات الملكية خصوصا.

أشار المؤلف إلى الدور الرئيسي الذي لعبته هذه المؤسسات في حفظ التراث، مع عرض لعدد من نوادر الخزانة محيلا على بروكلمان وليفي بروفنسال وحاجي خليفة.

وقد كان الترتيب الذي وضعه محمد الفاسي لهذه الخزانة على الشكل التالي:

-وصف بعض النوادر والنفائس.

-السيرة النبوية.

-الجغرافية.

-الرحلات.

-الأنساب.

-تاريخ المغرب العربي.

-التراجم.

-القرآن الكريم.

-القراءات.

-التجويد.

-علوم القرآن.

-التفسير.

-الطب.

-علم الفلك.

-الفقه.

-اللغة.

-النحو والصرف.

-العلوم الطبيعية.

-الموسيقى.

وقد نشر محمد الفاسي عددا من المقالات في نفس المجلة وصف خلالها هذه المخطوطات ورتبها حسب الفنون المشار إليها أعلاه[15].

وقد تلا هذه الأبحاث كتاب محمد المنوني بعنوان: منتخبات من نوادر المخطوطات، نشر عام 1978 بتقديم مدير الخزانة عبد الرحمن الفاسي. حاول الفقيه المنوني أن يختار من نوادر المكتبة، بعض مؤلفات الملوك والسلاطين، وما كتبه الأندلسيون والسودانيون والمشارقة، وما كتب بالخط الكوفي، وقد ذكر بعض المخطوطات التي لها قيمة بيليوغرافية مع عرض موجز لمحتوى المخطوط. وتشكل الكتب المختارة الفنون التالية:

المصاحف، التفسير، الحديث، السيرة، الفقه وملحقاته، الكلام، اللغة والنحو، الأدب، التاريخ، الأنساب، التراجم، الجغرافية والرحلات، السياسة، الرياضيات، الطبيعيات، الفلاحة، الكيمياء، الفلك والتنجيم، الطب، الموسيقى، علوم متنوعة.

وقد استهل المنوني هذا الكشاف بمقدمة تناول فيها مجموعة من الوثائق، وهي عبارة عن بيعات سلطانية، وظهائر ملكية أصلية، ومكاتبات ورسائل وتقاييد، ثم تناول الحديث عن الوثائق التي توجد في الكنانيش[16].

وقبل هذا العمل المتعلق بالمنتخبات كان الفقيه المنوني قد شرع في وضع فهرس شامل لمخطوطات الخزانة الحسنية حسب أرقامها على الرفوف[17] عالج فيه 438 مخطوطا.

بعد مقدمة عن المكتبات الملكية بالمغرب، يبدأ المنوني فهرسه الطوبوغرافي للمكتبة الحسنية، حيث يذكر عنوان الكتاب، رقمه، اسم المؤلف، عدد أوراقه وشكله، وصف الخط، اسم الناسخ إذا وجد، تاريخ النسخ، يشير كذلك أحيانا إلى كتب التراجم التي ترجمت المؤلف والفهارس، والكتب البيليوغرافية التي ذكر فيها الكتاب، وكذلك إلى بعض الخزائن المغربية التي توجد فيها نسخة من المخطوط، كالمكتبة

العامة وخزانة القرويين. ولم يحتو الفهرس على مسارد أو كشافات لأن صاحبه لم يتمه، وآخر كتاب ذكره هو شرح الرسالة السمرقندية في آداب البحث.

وفي سنة 1980 نشر محمد عبد الله عنان ت 1985 أول فهرسة للمخطوطات التاريخية[18] المحفوظة بالخزانة الحسنية.

بعد مقدمة تعرض فيها المؤلف إلى حرص ملوك المغرب على جمع نفائس الكتب ونوادرها، أشار إلى أن عدد كتب التاريخ نحو الألف وأنها تعالج الموضوعات التالية: التاريخ العام، تاريخ الشرق العربي، تاريخ المغرب العربي، السيرة والأنساب، التراجم والمناقب، الرحلات، وأخيرا مجموعة الوثائق وهي عبارة عن رسائل سلطانية وإجازات العلماء وظهائر ملكية.

ويضم هذا الفهرس ما جاء كذلك من مؤلفات تاريخية ضمن ما يسمى بالمجاميع. وقد عرف المؤلف هذه المخطوطات، وذلك بوصفها وذكر وفاة مؤلفيها واستعراض محتوياتها وذكر ما يمكن ذكره من نظائرها الموجودة في المكتبات الأخرى، مع إحالتها على أمكنتها في معاجم الفهارس العلمية، مثل بروكلمان والغزيري (الإسكوريال) والمتحف البريطاني والفاتيكان وغيرها، ثم يختم بذكر تاريخ ومكان النشر، هذا إن كان الكتاب قد نشر. وقد سلك المفهرس، في الترتيب الفهرسي لأسماء الكتب على حروف المعجم، الطريقة المغربية التي تقدم الكاف واللام والنون على الصاد والضاد والعين والسين والشين، جريا على ما سار عليه الكتاب المغاربة منذ القديم في تصنيف فهارسهم الأبجدية[19].

وابتداء من سنة 1982 بدأت الخزانة الحسنية بإشراف محافظها آنذاك محمد العربي الخطابي، تصدر فهارس المخطوطات، اقتداء بفهرس عبد الله عنان الذي يعتبر المجلد الأول لهذه الفهارس. وهكذا نشر الخطابي عام 1982 فهرس الطب والصيدلة والبيطرة والحيوان والنبات[20].

بعد مقدمة تاريخية على غرار مقدمة المجلد الأول، تعرض المفهرس للحديث عن العلوم عند المسلمين ثم ذكر السبب الذي دعاه إلى تناول مخطوطاتها بالفهرسة وهو، حسب ما جاء في المقدمة، تلبية لرغبة أكاديمية المملكة المغربية، ومقررات مؤتمر الطب[21] الإسلامي الذي انعقد في الكويت في شهر يناير 1981، التي أوصت في نهاية هذا المؤتمر بتشجيع دراسة الطب الإسلامي ونشر كتبه وإنشاء منظمة إسلامية تعنى بإحياء العلوم الطبية الإسلامية في مجال التراث والبحث العلمي.

يضم مجموع الفهرس 288 كتابا يمكن حصرها في ثلاثة مواضيع:

1 - كتب الطب والصيدلة والأغذية وحفظ الصحة.

2- أراجيز ومنظومات في الطب والصيدلة.

3- البيطرة والحيوان والنبات.

من بين كتب الطب: هيولى علاج الطب[22]

لحنين ابن إسحاق، وهو ترجمة من السريانية إلى العربية لكتاب المادة الطبية **Materia Medica** للطبيب اليوناني **Dias Coridas**. وتقوم الأدوية[23] ليوحنا ابن بختيشوع وكتاب الأغذية لأبي مروان ابن زهر وغيرها. ومن بين الأراجيز أرجوزة في الطب[24] لابن سينا وأرجوزة ابن عزرون في الحميات والأورام وأرجوزة الفشتالي في الطب. أما ما يخص البيطرة والفلاحة، فنذكر منها ديوان الحيوان للسيوطي (911هـ) وكتاب الفلاحة لابن بصال (ت499هـ)[25].

وفيما يخص وصف المخطوط، فقد سلك المفهرس الطريقة الشرقية في ترتيب الحروف، فيذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب وكل ما يدخل فيما يسمى بالعنوان الببليوغرافي، ثم يذكر بداية ونهاية المخطوط، على غرار كشف الظنون لحاجي خليفة، ثم الزخرفة والتفسير واسم الناسخ وتاريخ النسخ، إن ذكر، ثم المسطرة والقياس وعدد الأجزاء. وختم الفهرس بأربعة كشافات:

1 – كشاف عناوين المؤلفات.

2 – كشاف الأراجيز.

3 – كشاف أسماء المؤلفين.

4 – كشاف الناسخين.

وكلها مرتبة ترتيبا ألفبائيا. ويمكن اعتبار هذا الفهرس كتابا في تاريخ الطب، لأن الخزانة الملكية تضم عددا من النصوص الطبية نقلت في العصر الوسيط من العربية إلى اللاتينية والعبرية ودرست في جامعات أوربا، مثل مونبوليي بفرنسا وأكسفورد بإنجلترا وليدن بهولندة. وفي نفس السنة أي عام **1983** ظهر المجلد الثالث من فهارس الخزانة الحسنية وهو الفهرس الوصفي لمخطوطات الرياضيات والفلك وأحكام النجوم والجغرافيا[26].

أكد المفهرس في مقدمته أنه لم يخرج عن الطريقة التي اتبعها في ترتيب هذا الفهرس عن النهج الذي اتبعه في فهرسة الطب. وتمتد عصور مخطوطات هذا الفهرس من القرن الثالث إلى أوائل القرن الرابع عشر الهجري. وينتسب مؤلفوها إلى مختلف آفاق العالم الإسلامي، ومنهم عدد من المشاهير الأعلام الذين أسهموا بعلمهم ومصنفاتهم إسهاما نافعا كان له أبعد الأثر في تطور العلوم، وتقدم الحضارة البشرية. ويؤكد المفهرس كذلك أن المجموعة التي يضمها هذا الفهرس تحتوي على عدد كبير من النوادر تنفرد بها الخزانة الحسنية أو يعز نظيرها في خزانات الكتب الشهيرة الأخرى، ومن هذه النوادر مصنفات علماء ينتسبون إلى أقطار الغرب الإسلامي برزوا في الحساب والجبر والمساحة والهيئة والتوقيت وآلات الرصد المختلفة[27].

فهرس المؤلف **589** مخطوطا: يذكر عنوان الكتاب، اسم المؤلف، أول النسخة، نهايتها ثم ملخصا لمحتوى المخطوط، نوع الخط، لون المداد وأخيرا اسم الناسخ وتاريخ النسخ إن وجد في حَرْد المتن (**colophon**). وقد ذيّل المفهرس كتابه بكشافات ثلاثة: أولها خاص بأسماء المخطوطات:

الرياضيات وعلم الفلك ثم الجغرافيا، والثاني خاص بأسماء المؤلفين، وآخرها خاص بأسماء النساخ، وكلها مرتبة ترتيبا ألفبائيا.

أما المجلد الرابع من فهارس الخزانة الحسنية، فقد خص به المفهرس مخطوطات المنطق وآداب البحث والموسيقى ونظم الدولة والفنون الحربية وجوامع العلوم[28]، مشيراً في المقدمة إلى موضوعات المخطوطات المفهرسة ثم إلى مشاريع الخزانة المستقبلية، مع تأكيد الحفاظ على النهج الذي سار عليه في الفهارس السابقة، وذيّله بالكشافات التالية:

- كشاف المخطوطات التي اشتمل عليها المجلد الرابع.
- كشاف المستدرك على المجلدين الثاني والثالث.
- كشاف بأسماء المؤلفين الواردة في المجلد الرابع.
- كشاف بأسماء مؤلفي المستدرك.
- كشاف بأسماء الناسخين بالمجلد الرابع.
- كشاف بأسماء الناسخين بالمستدرك.

وقد خص الخامس من فهارس الخزانة الحسنية بمخطوطات الكيمياء وتعبير الرؤيا والعلوم الخفية[29]، واعتبره المفهرس آخر فهرس للعلوم العقلية المحفوظة مخطوطاتها بالخزانة، وقد وصف فيه المؤلف 567 مجلدا فيها العديد من النوادر الفريدة أو التي يعز نظيرها وكذلك ما تم استخراجه من المجاميع. ويدل الوصف على أن مجموعة كبيرة من كتب الكيمياء نسخت برسم خزانة السلطان الحسن الأول الذي كان مولعا بعلم الكيمياء. وتضم هذه المجموعة مؤلفات جابر بن حيان (196هـ) وابن وحشية (296هـ) و منظومات الطغرائي (513هـ) وأرجوزة المنبهي (1164هـ)[30] وغيرها. وختم المؤلف فهرسه بمسارد خاصة بكل فن وهي كالتالي:

مسرد مخطوطات الكيمياء، مسرد الأوقاف وأسرار الحروف والتنجيم والزايرجة وما شابه ذلك، مسرد بأسماء المؤلفين الذين اشتمل عليهم الفهرس وأخيرا مسرد بأسماء الناسخين حسب الرقم الترتيبي للمخطوطات. وكل هذه الفهارس مرتبة ترتيبا ألفبائيا.

وآخر فهرس يخرجه العربي الخطابي هو ذلك الذي فهرس فيه مخطوطات علوم القرآن والذي كان يريد له أن يكون القسم الأول من فهارس العلوم الشرعية[31]، وقد قسمه إلى أقسام ثلاثة:

1 – التجويد والقراءات والرسم القرآني.

2 – التفسير.

3 – مباحث خاصة أو عامة شاملة لعلوم القرآن (الأحكام، الإعراب، شرح الغريب، آداب حمل القرآن، أسباب النزول، الناسخ والمنسوخ، خواص القرآن...)

ويضم الفهرس نوادر ونفائس معظمها نصوص وأخرى عبارة عن أراجيز كانت أجوبة عن أسئلة الفقهاء المتعلقة بقراءة القرآن وتجويده ورسمه. وقد خص هذه الأقسام بمسارد بأسماء المؤلفين وختمها بمسرد للنساخ، على غرار ما صنعه فيما سبق من

فهارس، وكل ذلك حسب الترتيب الألفبائي[32].

هذه جملة ما ظهر من فهارس المخطوطات المحفوظة بالخزانة الحسنية. أما ما يخص الوثائق بما في ذلك الكنانيش، فقد نشرت الخزانة فهرسين، خص المجلد الأول منهما بالكنانيش (السجلات الرسمية) واهتم الثاني بالمراسلات الملكية وغيرها، وضعهما موظفون بالمكتبة الملكية تحت إشراف مديرها آنذاك.

_ فهرس الكنانيش[33].

الكناش[34] مثل التذكرة أو الفهرسة هو تقييد يسجل فيه صاحبه شؤونه الخاصة كالإشارة إلى الكتب التي قرأها أو درسها أو ألفها أو إلى بعض الأحداث التي ربما لا نعثر عليها في كتب التاريخ. ويبدو أن هذا النوع من التأليف بدأ يظهر عند المغاربة منذ القرن الرابع عشر الميلادي[35]. الكناشات كثيرة في المغرب وقد لعبت دورا مهما في الحفاظ على كثير من الأخبار وعلى العديد من عناوين الكتب وبعض محتوياتها مما جعل بعض العلماء والمؤلفين يضعونها ضمن مصادرهم على غرار ما صنعه أحمد بابا التنبكتي في مقدمة كتابه "نيل الابتهاج"[36]. ويعتبر هذا الفهرس أول فهرس للكناشات المغربية الخاصة بالدولة العلوية الشريفة والتي هي عبارة عن السجلات الإدارية الرسمية لهذه الدولة وعددها خمسة وعشرون وثمانمائة كناش، أقدمها يرجع إلى عهد السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل (1141م – 1171م). أما مواضيعها فمتنوعة ويمكن تقسيمها كما يلي:

- قسم يشتمل على البيانات المالية المتعلقة:

أولا : بالموانئ (الصادرات والواردات).

ثانيا : بالجبايات والرسوم وخرص الغلال.

ثالثا: بمداخيل وصوائر بيت المال والأملاك المخزنية.

- قسم يحتوي على نسخ المراسلات الحكومية الصادرة والواردة.

- قسم يضم نسخ بعض المعاهدات الدولية التي أبرمتها المملكة المغربية مع الدول الأجنبية. هذا فضلا عن كنانيش أخرى متعلقة بالشؤون الخاصة بالبيت الملكي وبالأمور العسكرية.

وقد رتب هذا المجلد على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خاص بالمواضيع مع بيان رقم الكناش وتواريخه واسم السلطان الذي تم التسجيل في عهده.

القسم الثاني: يتضمن كشفا بأسماء الأعلام البشرية الواردة في الكنانيش.

القسم الثالث: وهو كشف بأسماء الأماكن المذكورة في السجلات[37].

ويلي فهرس الكنانيش فهرس الوثائق الذي صنفت مواضيعه على الشكل التالي:

1 – الشؤون الدينية (الأحباس – الحج).

2 – الشؤون الخاصة بالبيت الملكي.

3 – التعيينات والإعفاءات.

4 – الأمن الداخلي والخارجي.

5 – أمور الجيش والسلاح.

6 – الجبايات والرسوم والمكس.

7 – الموانئ والملاحة.

8 – الشؤون المالية والاقتصادية والأملاك المخزنية والجماعية.

9 – التجارة الداخلية والخارجية.

10 – الأجانب والحمايات القنصلية.

11 – السفارات.

12 – أهل الذمة.

13 – مراسيم التوقير والاحترام.

14 – الهدايا والهبات.

15 – مواضيع متنوعة.

يضم هذا المجلد الوثائق المتعلقة بالشؤون الدينية والشؤون الخاصة بالقصر الملكي والتعيينات والإعفاءات على عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام (1822–1859). وقد صنفت تصنيفا زمنيا مع رقم كل وثيقة وتاريخها وموضوعها الخاص، وأضيف إلى ذلك مسرد بأسماء الأعلام البشرية ومسرد آخر بأسماء المدن والقبائل والأماكن التي ورد ذكرها في الوثائق المفهرسة.

وقد خصت أمينة النايرالقسم الثاني[39] للمراسلات المتعلقة بالأمن الداخلي والخارجي على عهد السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام وهو مرتب كسابقه بحسب المواضيع العامة التي بني عليها تصنيف وثائق الخزانة مع مسرد للأعلام ومسرد للأماكن التي ورد ذكرها في المراسلات.

أما الخزانات الخاصة فإنها متعددة ولكنها غير مفهرسة. فالمفهرسة منها لا يفوق عددها عدد أصابع اليد. وقبل عرض الفهارس المطبوعة المعروفة والمتعلقة بالمكتبات الخاصة يجب الاعتراف بأن أعظم خزانة خاصة مغربية عرفها العصر الحديث تلكم التي جمعها العلامة عبد الحي الكتاني والتي حوت ما لم تحوه مكتبة معاصرة سواء في الشرق أو في الغرب، غير أن هذه الخزانة العظيمة قد ذهبت بذهاب صاحبها وآل معظمها إلى الخزانة العامة[40] وانتقل جزء منها إلى الخزانة الملكية. وقد قدر بعض المحدثين قيمتها بعدة ملايين من الدراهم المغربية[41] وأول الخزائن الخاصة المعاصرة التي تمت فهرسة جزء منها خزانة الأسرة الصبيحية بمدينة سلا[42].

بعد تقديم لمدير معهد المخطوطات العربية حينئذ، يعرض محمد حجي، واضع الفهرس، نبذة عن تاريخ هذه الخزانة من تأسيسها إلى وضعيتها الحالية، متحدثا عن محتوياتها وطبيعة مخطوطاتها وصيانتها وغير ذلك. وقد أكد المؤلف أنه اقتصر على وصف الكتب المخطوطة المجلدة، وقد أجل الخروم والوثائق والكناشات إلى مرحلة ثانية. أما منهج الفهرسة فقد ركز المؤلف على ذكر اسم المؤلف وسنة وفاته ومصدر الترجمة واسم الناسخ وتاريخ النسخ أو مكانه. وقد صنف المخطوطات المفهرسة في عشرة مواضيع:

1 – القرآن وعلومه.

2 – الحديث وعلومه.

3 – التوحيد والمنطق – والفقه وأصوله.

4 – التصوف.

5 – اللغة – النحو والصرف والبلاغة والعروض والأدب.

6 – التاريخ، والتراجم والمناقب والأنساب، الرحلات الخ...

7 – الحساب، الهندسة...

8 – الطب – الأعشاب – الحيوان – الموسيقى.

9 – الكيمياء – سر الحرف – الخط – الأوفاق – الزايرجات.

10 – متنوعات منها: مبادئ العلوم – التعليم – السياسة...

وقد ذيل محمد حجي هذا الفهرس بكشافات ألفبائية عامة: كشاف للكتب وآخر خاص بالمؤلفين وجعل الفهرس الثالث خاصا بأسماء الناسخين. والجدير بالذكر أن هذه الخزانة هي من بين الخزائن الخاصة القلائل المفتوحة في وجه الباحثين بدءا بتلامذة الابتدائي إلى مستوى التعليم العالي.

أما الخزانة الخاصة الثانية التي تمت فهرستها هي خزانة العلامة عبد الله كنون رئيس رابطة علماء المغرب والتي يوجد مقرها بمدينة طنجة حيث عاش صاحبها وجامعها رحمه الله[43].

لقد تجمع لدى هذا العالم طوال حياته العلمية، مئات من المخطوطات والمطبوعات الحجرية وأضاف إليها عددا من المصورات التي استخرجها من دور الكتب بمصر واسبانيا[44]، وقد تم تصنيفها حسب العلوم والفنون، ابتداء من نسخ مصاحف القرآن حسب القراءات، فكتب الدراسات القرآنية والتفسير والحديث والفقه والتصوف والتاريخ والأنساب والطبقات والتراجم والسياسة والرحلات والدواوين والأدب والعروض والبلاغة والتوحيد والنحو واللغة والمنطق والفلسفة والفلك والتوقيت والحساب وعلم الجداول والأوفاق والفلاحة وغيرها. وتتلخص طريقة المفهرس في الخطوات التالية:

- عنوان المخطوط واسم مؤلفه وتاريخ وفاته.
- ذكر أوله وذكر آخره وتاريخ التأليف وتاريخ النسخ إن وجدا.
- وصف المخطوط والإشارة إلى طبعه، إن طبع، وتاريخ ومكان الطبع.
- وصف المخطوطات داخل المجاميع.
- تخصيص كل نسخة من نسخ الكتاب الواحد برقم خاص.

وينبغي الإشارة إلى أن هذا الفهرس يضم كذلك لائحة خاصة بالمطبوعات الحجرية التي يعتبرها المؤلف لندرتها في حكم المخطوط.

وقد ذيل المفهرس فهرسه هذا بلوائح المخطوطات، مرتبة حسب التصنيف السابق، مع كشاف عام لعناوين المخطوطات وفهرس للأعلام كلاهما مرتب ترتيبا ألفبائيا ولائحة بالمراجع والمصادر التي رجع إليها في تهيئة العمل "ككشف الظنون" وفهارس المخطوطات.

ومن بين الفهارس المطبوعة المتعلقة

بمخطوطات الخزانات الخاصة الفهرس الموجز لمخطوطات مؤسسة علال الفاسي (ت1974م)[45].

يقول المؤلف في مقدمة الفهرس: "تعتبر خزانة كتب مؤسسة علال الفاسي من أغنى الخزانات الخاصة بالمغرب". وإن قسم المخطوطات منها بالخصوص ليزخر بكثير من النفائس والنوادر. لقد كان المرحوم الزعيم علال الفاسي يبذل من وقته وماله في سبيل اقتناء الكتب، والمخطوط منها على الأخص، ما يمكن الاطلاع عليه بإلقاء نظرة على فهرس خزانته العامرة[46]. "بالإضافة إلى المخطوطات، تشمل الخزانة مؤلفات المرحوم علال الفاسي العديدة، مخطوطة ومطبوعة، ثم المطبوعات الحجرية فالمطبوعات الجديدة، وأخيرا المجلات والدوريات.

وقد خصص المؤلف كل جزء من الأجزاء الأربعة لمجموعة من الفنون، وهكذا عالج في الجزء الأول: السيرة النبوية، الأنساب، المناقب، التراجم، الفهارس والإجازات والأسانيد، التاريخ والجغرافية، الرحلات، الوفيات، الرياضيات، الفلك، التوقيت، الأوفاق والجدل، الطب والصيدلة، الفلاحة، السياسة وكنانيش العلماء.

وعالج في الجزء الثاني: المصاحف، القراءات، التفسير، الحديث، التوحيد، الفلسفة والكيمياء والمنطق.

وقد فهرس في الجزء الثالث كتب الفقه والنحو والصرف والبلاغة والعروض واللغة. وقد خصص المجلد الأخير للتصوف والآداب وعلوم مختلفة.

وضع المؤلف لكل مخطوطين رقمين بارزين: يشير أولهما إلى الرقم الترتيبي لهذا الفهرس ويشير ثانيهما إلى رقم المجلد الذي يوجد به المخطوط بالخزانة.

أما طريقة الفهرسة التي سلكها المؤلف في هذا الكتاب فجاءت على الشكل التالي:

1 – عنوان المخطوط.

2 – اسم المؤلف ولقبه وعام وفاته.

3 – أول ما افتتح به المؤلف كتابه.

4 – عدد صفحات المخطوط ومقياسها ومسطرتها.

5 – تاريخ التأليف وتاريخ النسخ واسم الناسخ إن أمكن.

6 – نوع الخط.

7 – الإشارة إلى المراجع التي ذكرت الكتاب أو ترجمت مؤلفه.

وقد ألحق في الأخير فهرسين مرتبين على حروف المعجم: الأول بأسماء الكتب والثاني بأسماء المؤلفين. وقد سطر في المقدمة – على غرار القدماء في مقدمات كتبهم – المصادر والمراجع التي استعان بها ولجأ إليها في وضع الفهرس "ككشف الظنون" و"المعسول" للمختار السوسي و"فهرس الفهارس" للكتاني و "دائرة المعارف الإسلامية الغربية" و"أعلام الزركلي" وغيرها[47].

ويضم إلى هذه الخزائن الخاصة خزانة عالم وسياسي آخر معروف بمواقفه السياسية وآرائه الفكرية ومساهماته الثقافية التي تتمثل في العديد من

المؤلفات والأبحاث تأليفا وتحقيقا ونشرا. إنه المرحوم محمد الفاسي (ت1993م) الذي كان أول وزير للتعليم بعد استقلال المغرب. وإذا كانت خزانته قد بلغت ستة عشر ألف كتاب، فإن عدد المخطوطات لا يتجاوز **361** مخطوطا. وقد آلت هذه الخزانة بأكملها إلى القصر الملكي حيث أصبحت جزءا من خزانته[48].

وقد وضع لهذه المجموعة كشاف متواضع بعنوان: "الرصيد الوثائقي للفقيد محمد الفاسي": مجموعة المخطوطات. طبع على الحاسوب في ثلاثة وعشرين صفحة[23].

لا مؤلف للكشاف الذي يبدو أنه من صنع مختص بالحاسوب، ربما يكون أحد أفراد العائلة. يضع العنوان وأمامه قيمته المادية[49]. ويختم بالملاحظات إن كان هناك ما يلاحظ. ومعظم الكشاف خال من الملاحظات باستثناء ثلاثة مخطوطات ثبت أنها محبسة على جامع القرويين ووضع عليها طابع إدارة هذه المؤسسة. و لم يخضع الكشاف لأي ترتيب أو تصنيف بحيث إنه رتب حسب الصناديق التي جمعت فيها المخطوطات والتي بلغ عددها ثلاثة عشر صندوقا.

ومن بين المكتبات الخاصة التي وضعت لها قوائم ولوائح، خزائن بعض الوجهاء التي آلت إلى القصر الملكي بمراكش وهي على التوالي: مجموعة عبد الحي الكتاني[50]. وخزانة الصديق الفاسي ومكتبة محمد بن عبد السلام بناني وخزانة عبد الكبير الفاسي ومخطوطات عبد السلام الفاسي وخزانة مولاي الحسن بن المهدي ومجموعة محمد الفاسي وأخيرا خزانة أحمد بنمسعود[51]. وقد كلفت لجنة ملكية عام **1982**، برئاسة الفقيه محمد المنوني، بفحصها وفهرستها فوضعت لها لائحة[52] مرقونة محفوظة بالقصر الملكي.

وتضم هذه الخزانة نوادر ونفائس عز نظيرها في باقي الخزانات و لم تفتح بعد في وجه الباحثين.

ومن بين الخزانات الخاصة المفتوحة في وجه العلماء، و لم تفهرس بعد أو هي في طريق الفهرسة، خزانة الفقيه محمد داود بتطوان والخزانة السودية بفاس التي أسسها سليل هذه العائلة العريقة وأحد علمائها السيد أحمد بنسودة[53]. وليست هاتان الخزانتان ومثيلاتهما في مغرب اليوم إلا امتدادا لما كانت عليه الخزانات الخاصة عبر تاريخ المغرب الطويل.

والصنف الثالث والأخير من المكتبات المغربية هو الذي نعتناه في بداية هذا البحث بالمكتبات العامة[54]. وقسمناه أربعة أقسام: مكتبات المساجد، مكتبات المساجد الجامعة[55]، مكتبات المدارس العتيقة، مكتبات الزوايا. فباستثناء بعض اللوائح والقوائم المتعلقة بمجموعات بعض المساجد[56]، والتي لا تخضع لأي تصنيف منهجي أو موضوعي والتي وضعها الفقهاء والشيوخ والطلبة، فإننا لم نقف على أي فهرس منهجي تتوفر فيه شروط ومواصفات الفهرسة الحديثة.

إن الفهارس المنهجية الحديثة لم تر النور عندنا

إلا مع الحماية الفرنسية التي ارتأت بعد استقرارها بالمغرب ووقوفها على حالة خزانات الكتب أن تعيد تنظيمها وتعالج مخطوطاتها وتفهرسها على غرار ما حدث في الخزانات الأوروبية[57] وقد وقع الاهتمام أول الأمر بخزانات المساجد الجامعة وعلى الأخص خزانة جامع القرويين التي يشهد التاريخ بما قامت به من تكوين وتثقيف للعلماء والأدباء والفقهاء والفلاسفة عبر التاريخ، من جهة، ولأنها كانت تضم أهم مجموعة خطية في المغرب، من جهة ثانية. وهكذا، وبأمر من وزير العدل آنذاك العالم أبي شعيب الدكالي تكونت لجنة من الشيخ عبد الحي الكتاني والفقيه عبد الواحد الفاسي والعالم إدريس بنطلحة، بمساعدة وتنسيق المستشرق الفرنسي ألفردبل (**Alfred Bel**) مندوب الكتابة العامة للحكومة الشريفة للتعليم الإسلامي بفاس[58]، وكلفت بالبحث في ما بقي من مخطوطات الخزانة وجمع شتاتها وترميم ما ينبغي ترميمه وتكميل الناقص منها من مجموعات مختلف خزانات المغرب ثم تنظيمها وفهرستها مع وضع الكشافات لتيسير استعمالها.

وبعد سنتين من التنقيب والعمل الجاد رأى النور أول فهرس منهجي لمخطوطات خزانة في المغرب[59].

بعد مقدمة لهذا العمل التقني الجاد بسط فيها عبد الحي الكتاني القول عن الوضعية المزرية التي آلت إليها هذه الخزانة، يقدم لنا الفهرس **1542** مخطوطا و**98** مطبوعا حجريا مرتبة حسب الفنون التالية: التفسير – القراءات – الحديث – الفقه – النحو – اللغة – الأدب – الطب – الهندسة – التوقيت والمنطق – الأصول – المجاميع – التصوف – التوحيد وأخيرا الملحقات. وقد خص المفهرس كل مخطوط باسم مؤلفه وعنوانه، وعدد أجزائه، وحالته بالخزانة. ووعاءه (جلد أو ورق) ورقمه بالفهرس، وذكر أول سطر من المخطوط. وانتهى الفهرس بمسردين مرتبين ترتيبا ألفبائيا: أحدهما خاص بالعناوين وثانيهما خاص بأسماء المؤلفين.

أما الفهرس الشامل والأخير الذي وصف جميع محتويات هذه الخزانة الكبيرة التاريخية هو الذي وضعه القيم على الخزانة محمد العابد الفاسي (ت**1975**م) ونشره ابنه في أربعة مجلدات[60].

قدم ابن المؤلف الفهرس بمقدمة ضافية تحدث فيها عن والده مصنف الكتاب وأعطى نبذة تاريخية موجزة عن خزانة القرويين ثم تناول الحديث عن المحافظين الذين توالوا على رأس الخزانة بأمر من الملوك وأخيرا أشار إلى مصادر محتويات هذه الخزانة.

وإذا كان جمع هذا الفهرس قد تم بطريقة عشوائية و لم يخضع تأليفه لأي تصنيف أو ترتيب، فإن الجزء الأول منه قد اشتمل معظمه على مخطوطات القرآن وعلومه والحديث والسنة والفقه، واشتملت الأجزاء الثلاثة الأخرى على باقي الفنون، من أدب وبلاغة وفلسفة وطب وفلك وغيرها[61].

ويمتاز الفهرس بتلكم التراجم الضافية التي

خص بها المؤلف العلماء والفقهاء والمفكرين وما نسب إليهم من أخبار ونوادر وما خلفوه من مؤلفات، الشيء الذي جعل صاحب التقديم يقول في الأخير: "فإن كتاب أبي عبد الله محمد العابد الفاسي ليس فهرسا للمخطوطات فحسب، بل هو كذلك معجم للأدباء"[62]. أما فيما يخص وصف المخطوطات فإن المفهرس يذكر عنوان المخطوط ثم أجزاءه الأصلية وما هو موجود منها بالخزانة ثم اسم المؤلف الكامل ثم يشير إلى ما يعرفه من نسخ المخطوط المحفوظة في مختلف الخزانات الوطنية والدولية ثم يصف حالة المخطوط فيقول: " هو صحيح أو مبتور، ثم يصف نوع الخط، ثم الوقف إذا كان عليه تحبيس، ثم يشير إلى ما يحمله من هوامش وطرر وتعليقات وشروح ويختم وصفه بعدد الأوراق أو الصفحات، فعدد السطور، المقياس، فالناسخ، فالوعاء (جلد أو ورق)، وإذا كان جلدا فمن أي أنواع الجلد، ثم التسفير وأخيرا يذكر اسم الناسخ إن ذكر. وقد أنهى محمد الفاسي هذا الكتاب بفهرس خاص بأسماء المؤلفين في مجموع الأجزاء الأربعة باعتبارها حسب قوله المدخل الرئيسي لدى الباحث، وقد أخذ بعين الاعتبار الاسم العائلي نظرا لشيوعه ورسوخه في الحافظة أكثر من غيره وأتبعه باسم العلم واسم الأب تفاديا للخلط. وقبل وضع هذا الكشاف قال: "إن هذا الفهرس قصة مشوقة تملك الذهن وتحكم الوجدان"، إن قصة المخطوط العربي بالمغرب وعلى الخصوص بمركز إشعاعه، طوال قرون، بجامعة القرويين بفاس[63].

أما مسجد الجامعة الثاني فإن أول فهرس وضع له كان ذلكم الذي أنجز بأمر من الخليفة السلطاني المولى عبد الحفيظ عام 1329هـ. يقول مؤلفه إنه سطر الكُنّاشة على خمسة أضلاع: الضلع الأول لاسم المؤلف واسم الكتاب وتاريخ وفاة المؤلف. والثاني للنسخ الموجودة من قلم أو طبع. والثالث لعدد الأجزاء، والرابع لصفتها من صحيح أو متلاش، والخامس لنمرتها الخصوصية المرموز بحروف ن.خ. والعمومية ن.ع.

وقد قسم المفهرس فهرسه الذي سماه "كناشة" إلى 18 بابا: المصاحف – القراءات – التعبير – الحديث – الصلاة على النبي – التوحيد – التصوف – الوعظ – الأصول – الفقه – التاريخ – اللغة – المنطق – الطب – النحو والصرف – الأدب – البلاغة – متنوعات.

وقد ختم هذه الكناشة التي وصف فيها 470 مخطوطا بالمصادر التي اعتمد عليها في عمله "ككشف الظنون" وابن خلكان وابن خلدون وآخرين.

أما الفهرس الأحدث الذي وضع لهذه الخزانة هو فهرس العالم الصديق بلعربي المسمى "فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف" بمراكش وهو أكبر حجما من الأول حيث وصف فيه صاحبه ما يقارب 2000 مخطوط. يبدو من خلال معاينة هذا الفهرس أن صاحبه حاول وضع فهرس دقيق للتعريف بالمخطوطات حسب الطرق الحديثة المتبعة في وضع

الفهارس ولهذا أخذ بعين الاعتبار المواصفات التالية: رقم المخطوط – عنوانه – مؤلفه – أوله – فرغ من التأليف الناسخ – تاريخ النسخ – مكان النسخ – التملك – التحبيس – مكان التحبيس – نوع الخط – مسطرته – مقياسه – ملاحظات مختلفة – وقد وجه عناية كبرى إلى الصفحات الأولى والأخيرة من كل مخطوط لتسجيل ما يحمله من تحبيسات أو تملكات أو إجازات أو سماعات أو تقاريظ وتوقيعات وخطوط وأسماء الموقعين على الوثائق المختلفة من قضاة وعدول وقيمين وطوابع رسمية وغير ذلك[65]. وأنهى المؤلف فهرسه بكشافات أربعة: كشاف المؤلفين وكشاف الكتب، وكشاف المحبسين، وكشاف الموضوعات. إنه فهرس يختلف عما سبق وصفه من فهارس من حيث مواصفات المخطوط كذكره للتحبيس والإجازات والسماعات وغير ذلك[66].

أما خزانات الجامعات الحديثة فإن كل محتوياتها مطبوعات باستثناء كلية آداب الرباط التي تحتفظ بمجموعة مهمة من المخطوطات تجمعت لديها بسبب الأدوار الثقافية التي لعبتها منذ أن كانت مدرسة للغة العربية واللهجات البربرية عند تأسيسها مع بداية الحماية الفرنسية إلى أن أصبحت أول كلية للآداب بعد استقلال المغرب. وقد وضعت هذه القائمة الأستاذة حليمة فرحات وصفت فيها أكثر من 300 مخطوط تعالج العديد من الفنون والمعارف بدءا بالقرآن الكريم وانتهاء بكتب الطب والمنطق[67]. وقد اعتمدت المؤلفة في وصفها للمخطوط عنوانه، مؤلفه، أوله وآخره، نوع الخط، تاريخ النسخ، مسطرته ثم الإشارة إلى مصدر أو مرجع له علاقة بالكتاب. وقد يلاحظ لأول وهلة أن نوعا من الاضطراب يسود هذه القائمة التي تفتقر إلى الكشافات أو المسارد الخاصة بعناوين الكتب أو أسماء المؤلفين.

ويدخل في صنف المكتبات العامة مكتبتان احتفظتا حتى الآن بأضخم وأهم المجموعات الخطية المحفوظة بالخزانات العمومية هما المكتبة العامة بالرباط والمكتبة العامة بتطوان. إن خزانة الرباط التي أسست على عهد الحماية، والتي كان لها وما زال دور القيام بشؤون المكتبة الوطنية، قد حظيت بقصب السبق من حيث التنظيم والفهرسة[68].

خضعت أول مجموعة منها للفهرسة منذ سنة 1921 على يد المستشرق الفرنسي الكبير ليفي بروفنصال الذي حاول جاهدا أن يضع فهرسا[69] حديثا يحترم كل مواصفات الفهرسة الحديثة. إنه أول فهرس يستشير تاريخ الأدب العربي لبروكلمان بحثا عن نسخ أخرى ومظانها للمخطوط المفهرس. إن المخطوطات المفهرسة تعالج معظم علوم العربية بدءا بالقرآن وانتهاء بالموسيقى والمجاميع. صدر ليفي بروفنصال فهرسه بمقدمة تاريخية عن المجموعة الخطية التي ينوي فهرستها ثم أنهاه بكشافات ثلاثة مرتبة ترتيبا ألفائيا أحدها خاص بالمؤلفين بالفرنسية وثانيها خاص بعناوين الكتب باللغة العربية وخصّص الثالث لمطابقة الأرقام الترتيبية في السجل العام لأرقام الكتب

في الفهرس[70].

وقد فهرس مجموعات أخرى بعد ليفي بروفنصال كل من ر.بلاشير وروبو وغيرهما. وفي سنة 1954 أصدر الرجراجي وعلوش القسم الثاني من فهارس الخزانة العامة سائرين على خطى ليفي بروفنصال في فهرسة المخطوطات[71]. وفي عام 1973 ظهر القسم الثالث من فهارس المكتبة العامة تم فيه وصف 1056 مخطوطا مشيا على نسق الفهارس السابقة[72]. وقد انتهت هذه السلسلة بالقائمة التي وضعها الفقيه المنوني لمجموعة خطية بعنوان: "فهرس المخطوطات المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط": فهرس فيه المؤلف أكثر من 400 مخطوط[73]. أما المكتبة العامة بتطوان التي تشتمل على 2407 مخطوطات فإنها لم تفهرس هي كذلك بأكملها. والفهرس الحديث الذي نشر[74] يقتصر على القرآن وعلومه كالتجويد والقراءات والتفسير. وقد حاول المفهرسان أن يكونا أكثر تفصيلا وتدقيقا من غيرهما في وضع هذا الفهرس كأن يبحثا في تاريخ ميلاد ووفاة المؤلف بالتاريخين الهجري والميلادي، كما يذكران بداية ونهاية المخطوط والإشارة إلى نوع الخط (نسخي أو شرقي أو جبلي) وعن حالته (رديء، جميل، دقيق، واضح) وعن الألوان ثم تاريخ النسخ واسم الناسخ. وختم الفهرس بكشافات ثلاثة ألفبائية: كشاف العناوين، كشاف الناسخين، كشاف المصادر والمراجع المعتمدة في الفهرسة. وقد أصدر المؤلفان القسم الثاني، نشرته وزارة الثقافة سنة 1984، وصفا فيه مخطوطات الحديث والسيرة النبوية وسيصدر قريبا القسم الثالث الذي فهرست فيه كتب الفقه، و لم يختلف القسم الثاني من حيث التنظيم والفهرسة عن القسم الأول.

وتختم فهارس المكتبات العمومية بما صدر من قوائم للمجموعات المحفوظة بمختلف مكتبات الزوايا المغربية. إن هذه الزوايا التي أسست لمقاومة المستعمر منذ القرن العاشر الهجري قد لعبت أدوارا ثقافية كبرى بإزاء دورها السياسي، وعلى الرغم من أهمية المخطوطات الكثيرة التي لا تزال تحتفظ بها إلى اليوم فإنها للأسف لم تخضع لفهرسة علمية حديثة. كل ما هنالك أنه قد وضعت لبعضها قوائم ولوائح مبعثرة، نشير إليها بإيجاز، وبقيت الأخريات[75] عبارة عن غابات كثيفة يصعب دخولها بل يتعب من يحاول استشارة محتوياتها، وبما أن الزوايا تشرف عليها وزارة الأوقاف فقد قامت هذه الوزارة بوضع قوائم أولية لبعض هذه الخزائن، وهكذا وضع الفقيه محمد المنوني لائحة في جزئين لمجموعة خزانة زاوية تمكروت "الزاوية الناصرية" التي تبلغ 4200 مخطوط[76]. ثم نشر عام 1985 دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت[77] مضيفا إليه ما لم يسجل في اللائحتين المذكورتين واحتفظ المفهرس بالطريقة التي سلكها في وصفه للمخطوطات حيث يذكر الرقم الترتيبي ثم رقم الكتاب، ثم عنوانه واسم مؤلفه وعدد الأجزاء وتاريخ النسخ، دون مراعاة أو ترتيب معين، مما يجعل الدليل صعب الاستعمال.

والزاوية الثانية التي تضم مكتبة عظيمة بسبب مخطوطاتها النادرة هي الزاوية الحمزية العياشية بالرشيدية. بدأت توضع لها القوائم منذ القرن التاسع عشر. ففي سنة 1852 وضع لها دليل بعنوان: "فهرسة خزانة أبي سالم" وأحفاده[78]. وفي سنة 1962 صورت بعثة لمنظمة اليونسكو 259 مخطوطا. وفي سنة 1963 نشر محمد المنوني في مجلة تطوان بحثا بعنوان: "مكتبة الزاوية الحمزاوية" صفحات من تاريخها[79]: صدر المؤلف بحثه بمقدمة تاريخية عن الزاوية ثم وصف مجموعة من المخطوطات بما فيها المجاميع ذاكرا العنوان، اسم المؤلف، اسم الناسخ، تاريخ النسخ ورقم الكتاب في الخزانة. وأحيانا يذكر إما بداية المخطوط أو نهايته. أما المحتوى، فإنه لا يختلف عن الكتب المتداولة في الزوايا المغربية. أما مكتبة زاوية تنغملت التي يرجع تأسيسها إلى العصر السعدي فإنها تحتوي على 738 مخطوطا حسب اللائحة التي وضعتها لها الأوقاف عام 1973 والتي اقتصر فيها على اسم المؤلف وعنوان المخطوط وتاريخ النسخ[80]. ولا تخضع لأي ترتيب أو تنسيق.

وبعد فهذه فهارس وقوائم[81] المخطوطات العربية الإسلامية المحفوظة في مختلف خزانات المغرب، فما هي طبيعتها وما هي الطرق التي اتبعت في وضعها والقيام بها؟ ومن هم هؤلاء الذين أنيطت بهم هذه المهمة العلمية؟ وهل يمكن القيام أخيرا باقتراح بطاقة نموذجية لفهرسة المخطوط العربي دون محاولة القيام مسبقا بتحديد مفهوم الفهرسة تحديدا علميا باعتبارها عنصرا من عناصر علم المخطوطات الحديث المعبر عنه في الغرب بالكوديكولوجيا (Codicologie).

إن اختلاف التسميات التي أطلقت على فهارسنا المغربية، كدليل وفهرس وقائمة ولائحة وكشف ومسرد وكشاف وكناش أو كناشة وغيرها، يوحي بالاضطراب وبالحاجة إلى تحديد المصطلح الذي نريده للمؤلف الذي تم فيه وصف مخطوطات خزانة معينة. وللتذكير فإن أطروحة الترادف غير موجودة في اللغات، وإن كل كلمة لها معنى خاص تدل عليه، ومرادفها لا يعني معناها بالضبط بقدر ما يقصد به تقريب معنى الكلمة المرادفة. إن كلمة دليل لا تعني قائمة، والكشاف ليس هو الفهرس، وللسرد ليس هو الكناشة أو الدليل.

فالكلمات الفرنسية المقابلة لهذه المصطلحات والمستعملة في إطار الفهرسة (Repertoire-index Catalogue) تفيد في الاستعمال معاني مختلفة للتعبير عن عملية وصف المخطوطات (L'Index) هو الكشاف الذي يقتصر فيه صاحبه على اسم المؤلف وعنوان الكتاب ورقمه في الخزانة وكشاف[82] المستشرق فاجدا (Vajda) (ت1981) الذي وضعه لمخطوطات باريز خير مثال على ذلك. (Le Catalogue)[83] هو الفهرس الذي يتناول فيه صاحبه وصف المخطوطات وصفا تفصيليا كما جاء في فهرس مخطوطات المكتبة الوطنية الفرنسية الذي بدأه فاجدا (Vajda) بمساعدة سوفان (I.Sauvan)

والسيدة كيدون (Guesdon)[84]. أما كلمة (Repertoire) التي تعني الدليل فإنها لا تستعمل للمخطوطات بقدر ما تستعمل للتدليل على المطبوعات أو لإحصاء الجمعيات والمنظمات والأشخاص مع شيئ من التفصيل. إنها في منزلة بين الكشاف والفهرس.

ماذا عن استعمال واصفي المخطوطات للمصطلحات السالفة الذكر في المغرب؟

إن إلقاء نظرة سريعة على ما سبق وصفه من فهارس وقوائم وأدلة توحي بالعشوائية التي تسود استعمال هذه المصطلحات التي يرسلها المؤلفون على عواهنها دون التركيز على ما تعنيه بالضبط كعناوين لمؤلفاتهم. إنها في رأيهم كلمات مترادفة لا تفاوت كبيرا بينها ينوب بعضها عن بعض على الرغم من الاختلاف الحاصل في محتوى هذه الكتب التي كان وصف المخطوطات موضوعا لها.

هذا من حيث المصطلح. أما من حيث طبيعتها فإنها مضطربة أشد ما يكون الاضطراب، إن معظم القوائم رتبت مخطوطاتها بحسب ترتيبها على رفوف الخزانة ولا يعدو هذا الترتيب أن يكون مطابقا لسجل قسم دخول الكتب للمكتبة. وهذا ما حصل مثلا في دليل خزانة الزاوية الناصرية بتامكروت ولائحة مخطوطات الزاوية الحمزاوية. وقد روعي في قوائم أخرى أحجام الكتب في الترتيب دون الأخذ بالاعتبار أي نوع من التنسيق والتصنيف. وكثير من هذه القوائم يفتقر إلى كشافات، بعناوين المؤلفات وأسماء المؤلفين، من شأنها أن تيسر العمل للباحث عن مخطوط معين أو مؤلف من المؤلفين. إن طبيعة هذه القوائم تذكرنا بفهارس المكتبات القديمة الموقوفة على المؤسسات الدينية والتي كانت عبارة عن لوائح للكتب لا تخضع لأي ترتيب، تكون عادة ضمن كتاب الوقف الذي يشرف على القيام به القاضي أو الناظر أو كل من سمحت له مؤهلاته القانونية والشرعية بحيازة الوقف واستلامه. وعلى الرغم من محاولة بعض الفهارس القليلة القيام بوصف للمخطوطات وصفا تتوافر فيه بعض شروط الفهرسة الحديثة فإنها تبقى مفتقرة إلى الكثير من العناصر والمواصفات التي تفرضها أساليب هذه العملية العلمية. إن المائة فهرس التي وقفت عليها لم أجد واحدا منها يشير إلى ظاهرة التعقيبة هذه التقنية التي هي عبارة عن نوع من الترقيم استعمله القدماء لترتيب المؤلفات من جهة، ولمساعدة المختصين في صناعة المخطوط، كالمسفرين، في ترتيب ملازم الكتاب من جهة أخرى. باستثناء فهرس واحد أشار إشارات عابرة إلى التسفير في وصف المخطوط، فإن كل الفهارس قد أهملت هذه الظاهرة التي تعتبر وضعا استراتيجيا لتأريخ المخطوط العربي. إن تجليد الكتاب المخطوط من المواطن التي يستهدفها كل من الكوديكولوجي أي عالم المخطوطات والمفهرس حينما يكونان بحاجة إلى توثيق نسخة من مخطوط معين. باستثناء القلة القليلة، لا نجد ضمن هذه الفهارس من اهتم بالسماعات والإجازات

والتملكات التي لها هي بدورها أهمية بالغة بالنسبة لمن يؤرخون للمخطوط العربي. وهل الاهتمام بهذه الظواهر ضروري في فهرسة المخطوط أم يدخل في اختصاص عالم المخطوطات؟

وإذا كانت هذه طبيعة ما ظهر حتى الآن مما سمي بفهارس المخطوطات التي قلنا إنها تفتقر في مجملها إلى أبسط قواعد الفهرسة العلمية، فمن هو ذلك الذي أنيطت به هذه المهمة؟ إن معظم الذين وضعوا القوائم التي تم وصفها سابقا لا يختلفون في تكوينهم وتعليمهم وتجربتهم عن فقهاء المساجد وشيوخ الزوايا وطلبة المدارس العتيقة والمحبسين الذين كانوا يضعون قوائم للكتب دون مراعاة أي تنسيق منهجي أو تصنيف موضوعي تيسيرا للعثور عليها والاستفادة منها في الدراسة والبحث. إن الذين وضعوا هذه القوائم لا تنقصهم الكفاءة العلمية ولا التجربة في ميدان المؤلفات بل يفتقرون في ممارساتهم لعملية الفهرسة إلى التقنيات الحديثة وإلى التمكن من أساليب علم الببليوغرافيا الحديث. لا بد للمفهرس من أن يكون ببليوغرافيا لأن مجموعة التساؤلات التي يطرحها العنوان الببليوغرافي **(L'adresse bibliographique)** لمخطوط معين تقتضي وجود مفهرس ملم بقواعد الببليوغرافيا وأساليبها الحديثة. إن هذا الإلمام هو الذي يمكنه من الإجابة عن الأسئلة التقنية والعلمية التي تطرحها عملية الفهرسة من جهة ويقتضيها الوصف التاريخي والكوديكولوجي للمخطوطات من جهة أخرى.

وبالإضافة إلى الإلمام بالببليوغرافيا، على المفهرس أن يكون باليوغرافيا يستطيع التمييز بين أنواع الخطوط القديمة. معظم أدلة المخطوطات في المغرب تشير إلى نوعية الخط الذي كتبت به المخطوطة فتقول: خط شرقي أو خط مغربي، ولكننا لا نعثر إلا قليلا على الأدلة التي تحدد بالتدقيق هذا الخط. فإذا كان الخط مغربيا مثلا فهو إما أندلسي أو مغربي أو موريتاني أو غير ذلك، وإذا كان مغربيا فهو فاسي أو صحراوي أو سوسي أو بدوي أو غير ذلك.

وإذا كان بعض العلماء الذين اهتموا بالمخطوطات واشتغلوا بها عقودا من الزمن يستطيعون التمييز بين هذه الخطوط فإن المغرب يبقى بحاجة إلى باليوغرافيين مختصين بعلم الخطوط القديمة.

هذه بعض المواصفات التي ينبغي توافرها في المفهرس وهي التي تجعله قمينا بممارسة هذا الميدان الذي يقتضي حدا أدنى من علم المخطوطات والباليوغرافيا أو علم الخطوط، بالإضافة إلى ثقافة مخطوطية وتجربة كافية وتكوين عام.

ولنتساءل أخيرا: هل يمكن اقتراح بطاقة نموذجية لفهرسة المخطوط العربي تأخذ في الاعتبار كل المعطيات العلمية والتقنية الحديثة قبل أن نحدد مفهوم الفهرسة تحديدا نهائيا يجمع عليه العلماء والمختصون ويحظى بقبول كل المهتمين بالمخطوطات في جميع المراكز والمكتبات العربية؟

إن الفهرسة كما هو معلوم جزء من علم

المخطوطات وهذا الأخير عبارة عن عـــدة علـــوم كالبحث في تاريخ المكتبات وحيـــاة النســـاخ وفي تأريخ المخطوطات، وفي مصـــادر المجموعـــات وفي وضع الكشافات والفهارس وما إلى ذلـــك. وقـــد يلاحظ المتتبع لفهارس المخطوطات في العالم العربي أن بعض الفهارس ذات الاتجاه التفصيلي قد ضمنها أصحابها بعض المواصفات التي قد تبتعد عن الفهرسة التي تقصد إلى التعريف بالمخطوط تعريفا علميا نسبيا يفيد الباحثين والمحققين منهم على وجه الخصـــوص. فالإشارة إلى مصدر المخطوط مثلا هي من اختصاص الباحث في تاريخ المخطوطات الذي يهتـــم بـــه في المعاهد العلمية الخاصة بالتراث المخطوط. وعمليـــة المقابلة بين النسخ الخطية لا تدخل في مهمة المفهرس بقدر ما تدخل في اختصاص مؤرخ النصوص والمحقق العلمي على السواء. فلا ينبغي للمفهرس الذي يضع فهرسا مفصلا للمخطوط أن يحـــل محـــل علمـــاء المخطوطـــات والمهتمـــين بتـــاريخ النصـــــوص والفيلولوجيين على السواء. أعتقد أن هذه أشياء لا محل لها في أي عمل علمي يهدف بالدرجة الأولى إلى الضبط البيليوغرافي للمخطوطات وإلى التعريف بها وتوثيق وجودها.

إن عدم تحديد مفهوم الفهرسة تحديدا علميـــا هو الذي دعا إلى الاختلاف الكبير الذي نلاحظه في الفهارس التي وضعت حتى الآن سواء من طـــرف العرب أو من طرف المستشرقين. إن الممارسين لهذه العملية في إطار المخطوطات العربية، بدءا بالشـــوام الذين مارسوها في أوروبا منذ القرن السابع عشر إلى المحدثين من العرب والمستشـــرقين، قـــد فهرســـوا المخطوطات حسب اجتهاداتهم الشخصية، وآرائهم الفردية، فمنهم من وضـــع الكشـــافات (Index) واعتقد أنه وضع فهارس، ومنهم من بالغ في تصوره لعملية الفهرسة فاقتحم، دون شعور، مجـــال علـــم المخطوطات أو الكوديكولوجيا (Codicologie) أو مجال التحقيق العلمي ظنا منه أنه مارس الفهرســـة العلمية. كما نعتقد جازمين أنه لا مجـــال لاقـــتراح بطاقة وسطا لفهرسة المخطوط، بدعوى أنها لا هي مفصلة ولا هي مختصرة، على غـــرار مـــا صنعـــه أصحاب القوائم والأدلة. كما أنه لا مجـــال لقبـــول نوعين من الفهرسة، فهرسة مطولة خاصة بالمعـــاهد العلمية، وأخـــرى مختصـــرة يمارســـها المكتبيـــون والمفهرسون للمخطوطات في المكتبات الوطنية.

بهذا الاعتبار، لا يمكن اقـــتراح أي نمـــوذج للبطاقة الفهرسية قبل تحديد مفهوم الفهرسة تحديـــدا علميا يتم في حدوده، وفقـــا لشـــروطه، وصـــف المخطوط العربي.

وبعد فهذه فهارس خزانات الكتب المغربية التي اكتظت بتراث العروبة وزخرت بآثار الإسلام والتي تشرف على أمجاد وعظمة هـــذه الدولـــة العربيـــة الإسلامية وتحكي للأجيال الحاضرة والمقبلـــة قصـــة أسلافنا الخالدين، مشارقة ومغاربـــة، وتنقـــل لهـــم بصدق وأمانة جهود الأسلاف وعبقريتهم وذلك بما تحويه اليوم من مخطوطات وبما تحتفظ به من وثائق وسجلات.

الهوامش

1 - حققه اعتمادا على هذه النسخة اليتيمة الدكتور محمد مرسي الخولي ونشره عام 1972، ط.ثانية 1981. والنسخة الوحيدة محفوظة بخزانة جامع القرويين.

2 - المعجب للمراكشي، ط1978. ص254-255.

3 - حققه أولا أدولف فور (A. Faure) عام 1958 وأعاد تحقيقه أحمد التوفيق عام 1984.

4 - وضع محمد بن عبد الله العلوي مجموعة من المؤلفات طبع جلها بالمغرب كما اهتم محمد بن عبد الرحمن بالترجمة حيث أشرف على ترجمة كتاب للاند (Lalande) في علم الفلك.

5 - Voyages 1802.

6 - أكبر المستشرقين اهتماما بالمخطوطات المغربية

7 - يقدر الباحثون أن الخزانات الخاصة بمنطقة سوس بالجنوب المغربي تشمل ما يزيد على مائة ألف مخطوط.

8 - البكري كتاب المغرب ط الجزائر، ص:132

9 - كانت خزانة المستنصر تضم أربعمائة ألف مخطوط وبلغت فهارسها اربعا وأربعين مجلدا حسب ما جاء في نفح الطيب للمقري. ج:1، ص:184.

10 - المعجب المراكشي، ص:349، ط1978.

11 - نفس المرجع، ص:348.

12 - نشرت مجموعة من الآبحاث في مجلات مغربية باللغة الفرنسية عن المدارس العتيقة في المغرب. انظر -مثلا- بحث المستشرق Neigel الذي نشره في مجلة العالم الإسلامي، العدد 5 عام 1959 عن مدرسة ومكتبات أبي الجعد.

13 - الكتاني : المكتبات الإسلامية: مخطوط المكتبة العامة، ص:19.

14 - من مكارم الأخلاق وروح الإنصاف الاعتراف بالحق لذويه. إن هذه المجموعة الغنية التي أصبحت الخزانة الملكية، قد تم إخراجها واستخراجها من الخروم وجمع شتاتها وإحصاؤها بإيعاز وإشراف مؤرخ المملكة فضيلة الأستاذ عبد الوهاب بنمنصور عضو الأكاديمية.

15 - عدد المخطوطات المشار إليها في هذه الأبحاث- الفهرسة 151 بحثا.

16 - وضعت الخزانة الحسنية فهرسا للكنانيش مستقلا سنشير إليه.

17 - فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية حسب أرقامها على الرفوف: تصنيف محمد المنوني: المطبعة الملكية 1983.

18 - محمد عبد الله عنان: فهرسة قسم التاريخ وكتب الرحلات. مطبعة النجاح الجديدة. 1980.

19 - طبعة ثانية مزيدة ومصححة بعناية د.أحمد شوقي بينبين مدير الخزانة حاليا ستظهر قريبا. كما ستصدر الخزانة ذيلا على هذا الفهرست يضم حوالي مائتي مخطوط في التاريخ عثر عليها في الخزانة المذكورة وذلك بإشراف أحمد شوقي بينبين المدير الحالي للخزانة.

20 - دار النجاح الجديدة. الدار البيضاء، 1982. يضم 256 صفحة.

21 - نشير بالمناسبة إلى أن وزارة الأوقاف المغربية قد أعادت عام 1980 نشر أول كتاب في تاريخ الطب العربي نشر عام 1876 بالفرنسية للوسيان لوكلير (L.Leclerc) وقد أنجز هذا العمل الجليل بإيعاز من

وزير الأوقاف آنذاك الطبيب الدكتور أحمد رمــــزي عضو أكاديمية المملكة حاليا.

22 – يوجد منه ثلاث نسخ: اثنتان منها أندلسية وثالثتهما كتانية ناقصة.

23 – يوجد منه ست نسخ.

24 – يوجد منه أربع نسخ.

25 – يوجد منه نسختان تحت رقم 6332 و 6519.

26 – مطبعة دار المعارف الجديدة. الرباط 1983.

27 – انظر: مقدمة الفهرس، ص6.

28 – الفهرس الوصفي لمخطوطات المنطق، وآداب البحث والموسيقى ونظم الدولة والفنون الحربيـــة وجوامـــع العلوم: مع مستدرك على المجلدين الثـــاني والثـــالث: محمد العربي الخطابي. الرباط 1985/ 1405.

29 – الفهرس الوصفي لمخطوطات الكيمياء وتعبير الرؤيـــا والعلوم الخفية: تصنيف محمد العربي الخطابي. الرباط 1986.

30 – أرجوزة في الصنعة من نظم أبي مدين محمد بن محمد المنبهي رقمها: 4195.

31 – الفهرس الوصفي لعلوم القرآن الكريم. الرباط 1987. كان هذا آخر فهرس يصدره الخطابي و لم يصدر شئ إلى أن انتهت مهمته بالخزانة في شتنبر 1994م.

32 – واصلت الخزانة الحسنية فهرسة المخطوطات حيـــث يوجد الآن تحت الطبع فهرس خاص بكتـــب الأدب يضم أكثر من خمسمائة مخطوط.

33 – فهرس الكنانيش (السجلات الرسمية) المجلـــد الأول: إعداد عمر عمور – الرباط 1983.

34 – تسمية مغربية تقابلها كلمة ''التذكرة'' في المشـــرق كتذكرة الصفدي مثلا. انظـــر الزبيـــدي: ''تـــاج العروس''.

35 – أقدم كناشة معروفة لدينا تلكم التي وضعهـــا عبـــد الرحمن بن محمد الجادري الفاسي 818هـــ. تعتبر هذه التذكرة مفقودة وقد احتفظ ببعض الشذرات منها في كل من "شرح دليل الخيرات" لمحمد العربي الفاسي و ''المعيار'' للونشريسي.

36 – المنوني: الكناشات المغربية: مجلة "المناهل" العدد الثاني 1975.

37 –انظر تقديم الفهرس للعربي الخطابي، ص:3و4.

38 – قسم الوثائق: المجلـــد الثـــاني – القســـم الأول – المراسلات. تصنيف أمينة الناير وعمر عمور. ويزيـــد عدد الوثائق المحفوظة بالخزانة الحســـنية عـــن مائـــة وخمسين ألف وثيقة.

39 – فهارس الخزانة الحسنية: قسم الوثائق، المجلد الثاني – القسم الثاني– المراسلات – تصنيف أمينة الناير.

40 – حولت إلى الخزانة العامة عام 1959.

41 – أكبر خزانة خاصة في المغرب الحديث خصصت لهـــا جريدة السعادة مقالات متتابعة بقلم عدد من العلماء نذكر منهم محمد بوجندار الرباطي و مـــولاي عبـــد الرحمن بن زيدان، انظر كذلك: عبد الله الجـــراري: ''شذرات تاريخية'' ص167.

42 – فهرس الخزانة الصبيحية بسلا: تصنيف محمد حجي. منشورات معهد المخطوطـــات العربيـــة. الكويـــت 1985.

43 – فهرس مخطوطات مكتبة عبـــد الله كنـــون. إعـــداد الأستاذ عبد الصمد العشاب. 1996م/1417هـــ.

44 – حبسها صاحبها على طلبة العلم وهو على قيد الحياة عام 1985.

45 – الفهرس الموجز لمخطوطات موسسة علال الفاســـي: أربعة أجزاء: تأليف عبد الرحمن بن العربي الحريشـــي 1991–1997م. طبعت الأجزاء الثلاثة الأولى بمطبعة الدار البيضاء وطبع الجزء الرابـــع والأخـــير بمطبعـــة

الرسالة بالرباط.

46 – مقدمة المفهرس ص5. مجموع مخطوطات الخزانة 2400 مخطوط.

47 – على الرغم من اشتغاله بالسياسة وزعامته لأقدم حزب سياسي بالمغرب، كان الأستاذ علال الفاسي من فطاحل العلماء الذين كانت لهم مشاركات عظيمة في تكوين العلماء. له مؤلفات عديدة طبع الكثير منها ولا يزال الكثير منها ينتظر النشر. وقد كان علال الفاسي شاعرا مجيدا طبع ديوانه في عدة مجلدات. وفي سنة 1977 ضمت إلى مؤسسة علال الفاسي خزانة أحد الوجهاء المثقفين وأحد رجال السياسة المبرزين المرحوم أحمد بناني الذي كان سفيرا ومديرا للمراسم الملكية، تشمل المخطوطات والمطبوعات معا، و لم تفهرس بعد.

48 – احتفظت الخزانة الحسنية بالرباط بالمطبوعات والدوريات ونقلت المخطوطات إلى خزانة القصر الملكي بمراكش.

49 – بلغت القيمة الإجمالية لهذه المخطوطات 62595 درهما أي ما يزيد على ستة آلاف دولار.

50 – قسم كبير منها آل إلى الخزانة العامة بالرباط.

51 – لا تتجاوز عدد مخطوطاتها خمسة عشر مخطوطا.

52 – تبلغ محتوياتها حوالي الثلاثة آلاف مخطوط.

53 – هناك العديد من الخزانات الخاصة والغنية يمكن تعرّفها من خلال مؤلفات المختار السوسي، خصوصا فيما يتعلق بمكتبات جنوب المغرب، أو من خلال مقالات وأبحاث كتلكم التي نشرها محمد حجي مثلا عن مكتبات الصحراء المغربية ومحمد زيان عن خزانة بني عبد الجبار بفجيج.

54 – يشمل هذا الصنف كذلك فهارس مخطوطات المكتبات العامة المعاصرة كالمكتبة العامة بالرباط والمكتبة العامة بتطوان.

55 – يضم هذا القسم كذلك المجموعات الخطية المحفوظة في الجامعات العصرية المغربية.

56 – نذكر منها:

1 – لائحة المخطوطات الموجودة بخزانة الجامع الكبير بمكناس 1972 تضم زهاء 500 مخطوط.

2 – لائحة المخطوطات الموجودة بخزانة المسجد الأعظم بتازة 1973 تضم زهاء 700 مخطوط.

3 – لائحة المخطوطات الموجودة بخزانة الإمام علي بتارودانت 1973 تضم 166 مخطوطا.

4 – دليل خزانة المسجد العتيق بالصويرة 1969 تضم زهاء 300 مخطوط.

هذه اللوائح، وغيرها، متعلقة بمساجد أخرى وضعها الفقهاء مقتصرين فيها على العنوان واسم المؤلف فبعضهم يضيف أجزاء المخطوطة، ويضيف البعض الآخر تاريخ النسخ، إن وجد.

وإذا كانت بعض المساجد قد احتفظت بمجموعاتها الخطية إلى اليوم، فإن خزانات المساجد التي توجد في المدن الجامعية العتيقة، كفاس ومراكش، قد نقلت محتوياتها إلى خزانات المساجد الجامعة: وهكذا فإن مخطوطات مسجد الأندلس بفاس ومخطوطات مسجد المواسين بمراكش قد تم نقلها خصوصا في بداية هذا القرن إلى خزانتي جامعتي القرويين وابن يوسف. ونفس الظاهرة نلاحظها بالنسبة لخزانات المدارس العتيقة خصوصا عندما انتهى الدور التي كانت تلعبه من حيث إيواء الآفاقيين الذين أصبحوا يستغنون عن السكن بها، فنقلت مجموعاتها إلى خزانات المساجد الجامعة المذكورة فأصبح دورها اليوم أثريا وفنيا وتاريخيا. وأخيرا فإن مخطوطات الجامع الكبير بالرباط قد

نقلت إلى المكتبة العامة بالرباط، ومجموعة المسجد الأعظم بتطوات إلى المكتبة العامة بنفس المدينة.

57 – يقول: يوسف أسعد داغر:

"إن المستشرقين الفرنسيين كانوا السباقين إلى وضع الفهارس المنهجية لمكتبات شمال افريقا" :انظر: دليل الأعارب: بيروت 1947 ص89.

58 – كان قبل هذا مديرا لمدرسة تلمسان بالجزائر.

– 591. **Catalogue des livres arabes de la Bibliothèque de la Qarawiyyin: Fès 1917/1335.**

من المعلوم أن أول قائمة لمخطوطات القرويين هي التي نشرها روني باسه (René Basset) بعنوان:

"Les manuscrits de deux Bibliothèques de Fès" (Qarawiyyin et Rcif) Bulletin de correspondance africaine, 1883.

كما نشرت قوائم أخرى بعد ذلك نذكر منها:

1 – فهرس نوادر خزانة القرويين: محمد العابد الفاسي: مجلة معهد المخطوطات: المجلد 5 عام 1959.

2 – قائمة لنوادر المخطوطات العربية المعروضة في مكتبة جامعة القرويين: وزارة التهذيب الوطني والشبيبة والرياضة 1960.

4 – **J. schacht- sur quelques manuscrits de la Bibliothèque de la mosquée d'Al Qarawiyyin à Fès: Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal: Paris. 1962.**

60 – فهرس مخطوطات خزانة القرويين (1979-1989) محمد الفاسي الفهري.

61 – يقول محمد الفاسي في المقدمة: "إن خزانة القرويين تحتوي على جميع الفنون التي ألف فيها المسلمون، مع مكانة خاصة للقرآن والحديث والعلوم الشرعية. ص32.

62 – مقدمة الفهرس، ص34. يذكرنا هذا الفهرس بالفهرس الذي وضعه الشاعر اليوناني كاليماخوس (Callimacus) في القرن الثالث قبل الميلاد لخزانة الإسكندرية التي كان قيما عليها. قد توسع كاليماخوس وأطنب في الحديث عن الفلاسفة والمفكرين أصحاب التآليف المحفوظة بالخزانة، الشئ الذي جعل المحدثين يعتبرون الفهرس تاريخا للفكر اليوناني.

63 – الجزء الرابع من الفهرس، ص393. إن محمد العابد الفاسي مؤلف هذا الفهرس قد وضع كتابا عام 1960 بمناسبة مرور 1100 سنة على بناء القرويين سماه: المكتبة العلمية: تحدث فيه عن تاريخ هذه الخزانة منذ تأسيسها إلى اليوم ذاكرا أهم وأقدم مخطوطاتها كالمصحف الكوفي المكتوب على رق الغزال والذي يرجع تاريخه إلى أوائل القرن الثالث الهجري.

64 – فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف، الصديق بلعربي: دار الغرب الإسلامي بيروت 1414-1994.

65 – مقدمة الفهرس. أقدم مخطوط نسخ في القرن الخامس الهجري.

66 – في عام 1983 وضع الصديق بلعربي فهرسا مختصرا للخزانة سماه: "الفهرست المختصر لخزانة ابن يوسف بمراكش اقتصر فيه على العنوان واسم شهرة مؤلفه أولقبه. نشرته كلية آداب مراكش.

67 – مخطوطات كلية الآداب والعلوم الإنسانية: الرباط سنة 1980 مطبوع بواسطة آلة الاستنساخ ويقع في 112 صفحة من الحجم الكبير. وقد سبق للسيدة فرحات أن نشرت هذه القائمة تباعا في فترات مختلفة في مجلة كلية آداب الرباط بين سنة 1980 وسنة 1982.

68 – آل إليها، بعد الاستقلال، كثير من خزانات الساسة والوجهاء والوزراء مثل الاجلاوي باشا مراكش والمقري الصدر الأعظم والحجوي وزير العدل والشيخ

عبد الحي الكتاني وآخرين.

69 - يضم الفهرس أكثر من 500 مخطـــوط وعنوانــــه:
Les Manuscrits arabes de Rabat : Paris E. Leroux 1921

70 - يعتبر هذا الفهرس الثالث من نوعه بعد فهـــرس A. Bell للقرويين و Maillard، بالنسبة لمخطوطـــات المسجد الكبير بطنجـة، الــذي نشـره في مجــلة العالــم الإسلامــي عدد 35 عــام 1917 بعنــوان:
"La Bibliothéque de la grande mosquée de Tanger in : R.M.M.

71 - المخطوطات العربية المحفوظة بالخزانة العامة بربــــاط الفتح: القسم الثاني. باريز الجزء الأول 1954. الجزء الثاني 1958. ثم وصف زهاء 2300 مخطوط.

72 - فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة للكتب والوثائق بالمغرب: القسم الثــالث، الربـــاط 1973.

73 - فهرس المخطوطات المحفوظـــة في الخزانـة العامـة بالرباط. قسم حرف الكاف. الجزء الأول. مرقونة في 132 ورقة عام 1974 ويرمز حرف الكاف إلى مجموعة الشيخ عبد الحي الكتاني، ويبقى الجزء الأعظم مـــن الخزانة غير مفهرس. وقد أخبرني الأستاذ أحمد التوفيق مدير المكتبة أن مصلحة الفهرسة ستصدر قريبا جزئين آخرين من هذه الفهارس.

74 - فهرس مخطوطات خزانة تطــوان: قســم القــرآن وعلومه. إعداد المهدي الدليرو ومحمد بوخبزة. تطوان 1987، 236 صفحة.

75 - خزانة زاوية أبــي الجعــد مليئـة بالمخطوطـــات والمصــاحف والظهــائر والمراســلات الســلطانية والكناشات وليس لها قوائم تعرف بها وبعددها الذي يبدو هائلا.

76 - لائحة مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكـــروت: محمد المنوني: الجزء الأول. 1973 الجزء الثاني. 1974 مرقونة.

77 - دليل مخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكـــروت - الرباط. وزارة الأوقاف 1985- 221 صفحة.

78 - رقمه بمكتبة الزاوية 245 - ونسخة أخرى محفوظة في المكتبة الوطنية بباريز تحت رقم 4725. أقدم مخطـــوط محفوظ بهذه الخزانة نسخ عام 421 هـــــ علــى رق الغزال بخط أندلسي.

79 - محمد المنوني: مجلة تطوان عدد 8 ســنة 1963 - ص 97 - 117.

80 - لائحة المخطوطات الموجودة بزاوية تنغملت بـــإقليم بني ملال: وزارة الأوقاف 1973.

81 - تربو على المائة قائمة.

82 - Index général des manuscrits arabes musulmans de G. Vajda. La Bibliothèque Nationale de Paris. Paris 1953.

83 - تطلق هذه الكلمة كذلك علــى لائحـة الكتــب الموجودة في مكتبة تجارية أو قائمة كتب دار من دور النشر.

84 - Catalogue des manuscrits arabes, Première Partie. Manuscrits Chrétiens par Gérard Troupeau.
- Tome I et II. Paris 1972 et 1974.
- Catalogue des manuscrits arabes. Deuxième Partie. Manuscrits musulmans.
- Tome II 1978. par G. Vajda et Y. Sauvan.
- Tome III Paris 1985. par Vajda et Sauvan
- Tome IV Paris 1985 par Y. Sauvan.
- Tome V Paris 1995 par Y. Sauvan et Marie Geneviéve Balty-Guesdon.

التعريب من خلال تجربة مكتب تنسيق التعريب

ذ. إسلمو ولد سيدي أحمد(*)

مقدمة

تُطرح قضية التعريب، في الوطن العربي، منذ فترة طويلة،على مستويات مختلفة،وفي العديد من المناسبات،ومن ثم فإنها قضية قديمة وجديدة في آن واحد. ولعله من المفيد أن نشير إلى أننا لا نتحدث- في هذه الدراسة عن التعريب بمفهومه الخاص باستخدام العرب ألفاظا أعجمية على طريقتهم في النطق واللفظ والأسلوب، أو كما ورد في بعض المعاجم من أن : "التعريب: صبغ الكلمة بصبغة عربية عند نقلها بلفظها الأجنبي إلى اللغة العربي" إنما نتحدث عنه هو التعريب في مفهومه الشامل الذي تدخل فيه الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية؛ التعريب الذي يهتم بجعل اللغة العربية لغة الحياة كلها، فكراً وشعورا وعلما وعملا. ونظرا إلى أننا نتناول موضوع التعريب من خلال تجربة مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (جامعة الدول العربية)، فإننا ، قبل أن نتحدث عن هذا المكتب وبعض المهام المنوطة به، ومن أهمها توفير المصطلح العربي الموحد، سنتطرق إلى آراء بعض الباحثين حول التعريب وصلته بالمصطلح، وما للمصطلح الموحد-بصفة خاصة- من أهمية في عملية التعريب .وفي هذا الإطار، لابد من الحديث عن مؤتمرات التعريب" ، وعن التعاون المثمر القائم بين المكتب والمجامع العلمية واللغوية العربية والهيئات المتخصصة والخبراء.

واستشرافا للقرن الواحد والعشرين، سنتحدث عن التعريب في الخطة متوسطة المدى الثالثة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، هذه المنظمة التي تبذل ، منذ إنشائها، قصارى جهدها من أجل أن تكون اللغة العربية قادرة على اقتحام مجالات المعرفة الإنسانية كافة، أسلوبا ومنهجا ومصطلحا.

التعريب وصلته بالمصطلح،وما للمصطلح الموحد -بصفة خاصة- من أهمية في عملية التعريب.

كلنا يدرك الحاجة المُلحة إلى إيجاد مقابلات عربية للمصطلحات العلمية والتقنية الجديدة التي تمطرنا بها يوميا لغات أجنبية، لتصبح لغتنا العربية قادرة على مسايرة هذه اللغات في التعبير عن الاختراعات الجديدة والدلالة على المستحدثات المبتكرة. ومع ذلك، فإن عملية توفير المصطلح يجب أن لا تعرقل عملية التعريب، بل لا بد من المضي في التعريب، لتهيمن

(*) الخبير بمكتب تنسيق التعريب / الرباط

اللغة العربية في جميع مجالات حياتنا اليومية وفي مقدمتها التعليم والإدارة..؛ كما أنه على الجهات المختصة أن تضاعف الجهود -في نفس الوقت- بغية توفير المصطلح العربي الذي هو جزئية هامة من عملية التعريب.

ذلك أن العمليتين تكمل إحداهما الأخرى.

يقول أحد الباحثين:-

"... ألححتُ على قضية المصطلح لأن هذه القضية في طليعة ما يتعلل به الزاهدون في التعريب والمشككون في الاقتدار على المضي فيه، على حين أن قضية المصطلح - من حيث هو ألفاظ يعبر بها عن مسميات ومعان مفردة - ليست بصميم المشكلة، بل قد تكون- على ما لها من شأن- أهون جوانبها، وإنما صميم المشكلة هو الاقتدار على وعي المعاني العلمية وتصورها ثم الإبانة عنها، ولن يتم حلها وتذليل صعابها إلا بالتصميم على ذلك والشروع فيه وإن عطررنا -ولو إلى حين- إلى استعمال المصطلحات الأجنبية بلفظها الأجنبي. هذا مع أن الأعمال التي قامت بها في هذا الباب مجامعنا العلمية واللغوية - وفي طليعتها مجمع اللغة العربية بالقاهرة ومكتب تنسيق التعريب والجامعات التي تدرس بعض العلوم بالعربية - تقدم قاعدة صالحة لتعميم تعريب العلوم ... إن قضية التعريب أمانة في عنق كل منا وما علينا بعد، إلا أن نخلص النية ونصدق في العمل ليتم لنا ما نطمح إليه." ①

ولعلنا نجد التعبير عن هذه الحاجة القومية والعلمية في المعاهدة الثقافية التي صادق عليها مجلس جامعة الدول العربية سنة 1945، والتي نصت في المادة الحادية عشرة منها على وجوب توحيد المصطلحات، كما نص ميثاق الوحدة الثقافية الذي صادق عليه مجلس جامعة الدول العربية عام 1964 على السعي لتوحيد المصطلحات العلمية والحضارية ودعم حركة التعريب. ونظرا إلى أهمية التنظيم والتنسيق والمتابعة ، في هذه العملية، فإنه يسعدنا أن يكون مكتبنا لتنسيق التعريب هو الجهة العربية المكلفة بتنسيق جهود الدول العربية في هذا الميدان.

ومن هنا فإن " المشكلة الحقيقية في قضيتي التعريب والمصطلح، ليست إلا مشكلة تنسيق وتنظيم. ذلك أن اللغة العربية تستعمل استعمالات مختلفة، وتوظف في كل دولة، توظيفا يخضع لسياستها وقوانينها، فمثلا استعمال اللغات المحلية في أجهزة الإعلام ، وفي الإنتاج الفني والأدبي ، وفي لغة التدريس إلخ... يختلف من بلد إلى آخر فمؤسسات الترجمة، الرسمية والتجارية، تعمل إلى جانب المبادرات الشخصية، إلى جانب نشاط الأكاديميين من أساتذة الجامعات،والباحثين ، كل يعمل في ظل نظام معين... ومن هنا ، فلم تعد هناك رقابة لغوية على دقة الترجمة؛ فأصبحت الكلمة الأجنبية تترجم بكلمات متعددة إلى العربية، بكلمات متقاربة في المعنى؛ وذلك يعود فيما يعود إليه ، إلى اتساع المفردات العربية من ناحية، وقد يعود إلى عدم التمكن من اللغة العربية أو من اللغة الأجنبية التي يترجم منها

من ناحية أخرى. وحصيلة هذا كله، هي بلبلة في اللغة العربية نفسها، ونشوء أساليب ذات طابع محلي في التعبير العربي. وهذه الظاهرة التي تقوم في مجال الترجمة والتعريب تنعكس بالضرورة على المصطلح.." ②

وفي إطار الترابط التكاملي بين المصطلح والتعريب ، الذي أشرنا إليه قبل قليل، نريد أن نؤكد حقيقة يتفق عليها أغلب المختصين وهي أن التعريب يلعب دورا إيجابيا وفاعلا في عملية الحصول على المصطلح ولا نريد أن يفهم من هذا أننا نقلل من أهمية إيجاد المصطلح بصفته أداة هامة من أدوات التعريب، وإنما نريد أن نؤكد – إن كان الأمر يحتاج إلى تأكيد– أن العمليتين يجب أن تسيرا جنبا إلى جنب، بحيث لا نتقاعس في عملية التعريب متعللين بعدم وجود مصطلحات عربية للمقابلات الأجنبية.

" إن وقفة بسيطة على المراد بكلمة (مصطلح) يمكن أن تدل على الكثير في هذا الشأن. فاللفظ الذي يضعه فرد أو هيئة لدلالة علمية أو حضارية معينة لا يمكن أن يصبح (مصطلحا) إلا بعد أن(يَصطلحَ) ويتواضعَ عليه المشتغلون بذلك العلم أو المعنيون بذلك الجانب من الحضارة .أما قبل ذلك فهو لا يعدو كونه لفظا مقترحا دعت إليه الحاجة الآنية للتعبير عن فكرة علمية أو حضارية. ومن ثَـم فلن يمكننا الحصول على أي مصطلح، بالمعنى الحقيقي، إلا بعد وضع اللفظ المقترح في حيز (الاستعمال) أي أن (التعريب) هو الذي يضع لنا المصطلحات، وليس العكسُ ، ولا بد لنا من أن نَدخل في مجال تعريب العلم لنحصل على مصطلحاته، إنّ حجة القائلين بالتريث في التعريب ريثما تكتمل المصطلحات متهافتة أساساً فهي تنقضُ نفسها بنفسها... وأبطل من ذلك ادعاء بعضهم ضعف اللغة العربية وعجزها عن وعاية علوم العصر والنهوض بمتطلباتها، وتلك أظلم تُهمَة اقترفها الأجنبي بحق لغتنا، في زمن الاستعمار والتبعية، وبقيت مخلفاتها تضلل عقول بعض الجهال حتى يومنا هذا. فليست العربية بأقل عطاء من عشرات اللغات التي اعتز بها أهلها،ولم تسمح لهم مشاعرهم القومية بالتخلي عنها ، فاستعملوها للعلوم، فاستوعبتها جدا و لم تَقْصُرْ عنها في شيء.بل إن العربية أغنى في خصائص الاشتقاق والمجاز والقياس من كثير من اللغات التي باتت تُدعى اليوم باللغات الحية زيادة في الثلب والنكاية في لغتنا" ③

ولا يفوتنا ، في هذا المقام، بأن نُذكّر بأن اللغة تقوى بقوة أهلها وتضعف بضعفهم؛ فعند ما كانت العربية في أوج ازدهارها استطاعت أن تستوعب، بصدر رحب، كل التراث الفلسفي والعلمي في ذلك العصر، فنقلت إلى المكتبة العربية كنوز وذخائر الفكر والعلوم والثقافة الأجنبية. ويشهد الجميع على أن النهضة الحديثة في أوروبا قد اعتمدت أساسا على ما انتقل إليها من تراث العرب العلمي والحضاري. خاصة فيما يتعلق بالطب والكيمياء والفلك والرياضيات...

ولقد ظلت اللغة العربية، على مر العصور تمثل أقوى رباط يربط هذه الأمة، وذلك على الرغم مما

لحقها من قصور في العصور المتأخرة بسبب ما فرضه المستعمر من غزو لغوي وتشكيك في قدرتها على أن تكون لغة علم قادرة على الوفاء بحاجات العصر المتطورة.

ويحق لنا أن نتفاخر بأن اللغة العربية تحتل اليوم – على المستوى العالمي – مكانة مرموقة، وما علينا إلا أن نجعلها تستعيد كامل دورها العلمي بالتعبير عن منجزات الحضارة التكنولوجية الحديثة، وذلك عن طريق تعريب العلوم بمختلف أنواعها مما يمكن أبناء هذه الأمة من الإبداع والابتكار لأن الأمة لا يمكنها أن تبدع وتخترع إلا بلغتها. ويستنتج مما سبق أن التقصير والعيب فينا، لا في لغتنا.

إن "المصطلح العلمي أداة البحث ولغة التفاهم بين العلماء، وليس ثمة علم بدون قوالب لفظية تؤديه. ويوم أن ينهض العلم ويخطو إلى الأمام، تنمو مصطلحاته، وتدق ألفاظها ، وتتحدد معانيها. وإذا كانت العلوم في سير مطرد، وحركة دائبة، فإن مصطلحاتها لا بد أن تلاحقها وتتابع السير معها، ولا يمكن أن تتحقق نهضة علمية بدون نهضة لغوية واصطلاحية تسايرها جنبا إلى جنب.

..... وقيمة لغة العلم في أن يلتقي عندها العلماء، وهي ولا شك اصطلاح وقد قيل قديما " لا مشاحة في الاصطلاح" ومن العيب أن نلتقي عند اللفظ الأجنبي ثم نختلف في مقابله العربي. واستقرار الاستعمال وشيوعه وذيوعه يمنح المصطلح العلمي قوة تحقق فيه أسباب البقاء والحياة. والمعجمات العلمية وسيلة ناجعة من وسائل البحث والدرس وعليها أن تتأخذ باللفظ الشائع والاستعمال السائد..... وعلى هيئاتنا العلمية والثقافية أن... تعد معجمات متخصصة يقرها المشتغلون بالعلم في كل مادة، وتلك رسالة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والمجامع اللغوية والعلمية، واتحاد المجامع. وبذا نحقق وحدة المصطلح العلمي في العالم العربي جميعه كما حققها أسلافنا في النهضة الإسلامية الكبرى" ④

وفي السياق نفسه ، فإن وحدة المصطلحات اللغوية تلعب دورا كبيرا في وحدة الأمة، والعكس صحيح بحيث "... يستطيع الباحث أن يقيس تقدم الأمة حضاريا ويحدد ملامح ثقافتها عقيدة وفكرا بإحصاء مصطلحاتها اللغوية واستكناه مدلولاتها، بل يستطيع أن يقطع بوحدة الأمة الفكرية والسياسية من وحدة مصطلحاتها اللغوية في الإنسانيات والعلوم والتقنيات..

لقد واجهت الأمة العربية في القرن العشرين مشكلة خطيرة تتلخص في ازدواجية المصطلح العلمي والتقني في الوطن العربي، ونعني بذلك تعدد المصطلحات العربية للمفهوم الواحد واختلافها من قطر إلى آخر، ويكمن الخطر في ظهور لغات علمية عربية متعددة في الوطن العربي مما يهدد وحدته القائمة أساسا على وحدة لغته التي هي وعاء الحضارة العربية الإسلامية وقوامها منذ قرون عديدة " ⑤

وقد " ربط المغرب، منذ أن خفقت راية الإسلام على هذه الديار ، بين اللغة العربية والقرآن الكريم،

دستور هذا الدين، الذي نفذ قلوب وعقول المغاربة منذ ذاك. وأصبحت قدسية الإسلامي تتمثل في قدسية هذه اللغة التي جاء بها القرآن... لم تخرج الأمة العربية الإسلامية عن قانون الصيرورة التاريخية المعهودة، فأتى عليها حين من الدهر اضطرت خلاله إلى تسليم تلك المسؤولية العلمية إلى أمم غيرها، كما أتى عليها حين من الدهر،كانت فيه مطمعا ومبتغى لاغتنام خيراتها الطبيعية، بعد ما كانت معينا جاد بسخاء، بخيرات عقلية أغنت الحضارة والناس. لم تقف المساعي الإنسانية الباحثة خلال فترة الغفوة هذه، وبعد أن استرجعت الأمة العربية ما ضاع منها من حق في الحرية والقرار، استرجعت صورة ماضيها العلمي المجيد، فرأت أن تجديد هذا الماضي لا يتم إلا بإغناء لغتها وبعث روح العصر فيها، لتتحمل نفس المسؤولية السابقة. و لم تغب هذه الفكرة عن المغفور له محمد الخامس، فدعا إلى إنشاء مكتب تكون مهمته ، بذل الجهد، اعتمادا على تجارب عربية كان لها نفس الشعور، حتى يستدرك لهذا الغرب الإسلامي، شمال إفريقيا، ما فاته في لغته مدة ظلام الاستعمار. وقد استعظمت جامعة الدول العربية هذا المجهود، ورأت أن من حقها أن توفر له سبل الاستمرار بعد ما رأت أمامها أعمالا مجسمة هي نتيجة جهود كان سلاحها الإيمان ومعتمدها الآمال. ثم إن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم،سيرا على خطوات الجامعة، وفرت هي أيضاً كل السبل ليصبح عمل هذا المكتب (مكتب تنسيق التعريب)، عملا قوميا لا تمثل فيه التجربة المغربية إلا أسه ومنطلقه، فزودته بعطاءات تنوعت وتعددت، منها الخبرة البشرية واللقاءات العلمية والندوات والمؤتمرات، وما لهذه جميعا من توصيات أصبحت دستورا للعمل الذي ساهمت فيه كل الأمة العربية..." ⑥

لمحة تاريخية عن المكتب

تأسس مكتب تنسيق التعريب بقرار من مؤتمر التعريب الأول الذي عُقد بالمغرب من 3 إلى 7 إبريل سنة1961م.

ألحق المكتب بجامعة الدول العربية في 1969/3/16م، بقرار من مجلس الجامعة ، وألحق بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بتاريخ 1972/5/8، بقرار صادر عن الأمانة العام لجامعة الدول العربية.

من مهام مكتب تنسيق التعريب

جاء في النظام الداخلي للمكتب الصادر بتاريخ 1973/1/27 (بعد انضمامه للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ما يأتي:

" يقوم المكتب بالمساهمة الفعالة في الجهود التي تبذل في الوطن العربي للعناية بقضايا اللغة العربية، ومواكبتها للعصر ، واستجابتها لمطالبه، وذلك عن طريق :

أ- تنسيق الجهود التي تبذل للتوسع في استعمال اللغة العربية في التدريس بجميع مراحل التعليم وأنواعه ومواده، وفي الأجهزة الثقافية ووسائل الإعلام المختلفة.

ب- تتبع حركة التعريب وتطور اللغة العربية

العلمية والحضارية في الوطن العربي وخارجه بجمع الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع ونشرها أو التعريف بها.

ج- تنسيق الجهود التي تبذل لإغناء اللغة العربية بالمصطلحات الحديثة ولتوحيد المصطلح الحضاري في الوطن العربي بكل الوسائل الممكنة.

د- الإعداد للمؤتمرات الدورية للتعريب.

ويقوم المكتب في سبيل تحقيق أهدافه بالعمل في المجالات الآتية:

(1) تنمية اللغة العربية ونشر الثقافة الإسلامية في الخارج، وذلك بالتوسع في إصدار المعاجم المتخصصة في ميادين المعرفة وإبراز دور الحضارة العربية الإسلامية في نمو المعرفة الإنسانية، ووضع المصطلحات العربية الموحدة للمفاهيم الجديدة وتعميم استعمالها وتداولها، والإفادة من التقنيات الحديثة في نشر اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في الداخل والخارج.

(2) نشر المعلومات والاستفادة منها،بواسطة بنك المصطلحات، وتتبع وخزن الرصيد المصطلحي المستجد، ودعم المكتبة بالمراجع والكتب والدوريات.

(3) التعاون مع الأمانة العامة لجامعة الدول العربية والمنظمات المتخصصة والمنظمات والهيئات الإقليمية والعالمية ، قصد الوقوف على الأساليب الحديثة في المعجمية والمصطلحية والإسهام في البحوث والدراسات وإبراز أعمال المنظمة في مختلف الميادين العلمية والثقافية والإعلامية، وذلك:

- بتتبع ما تنتهي إليه بحوث المجامع اللغوية والعلماء ونشاط الأدباء والمترجمين وجمع ذلك كله وتنسيقه وتصنيفه تمهيدا للعرض على مؤتمرات التعريب.

- بالتعاون الوثيق مع المجامع اللغوية والهيئات والمنظمات التعليمية والعلمية والثقافية في البلاد العربية.

- بالإعداد لعقد الندوات والحلقات الدراسية الخاصة ببرامج المكتب.

- بإصدار مجلة دورية لنشر نتائج أنشطة المكتب.

- بنشر المعاجم التي تقرها مؤتمرات التعريب.

- غير ذلك من الأعمال الكفيلة بتحقيق أهداف المكتب

توحيد منهجيات وضع المصطلح العربي

إيمانا من مكتب تنسيق التعريب بضرورة إيجاد منهجية موحدة لوضع للمصطلحات العلمية الحديثة، قام المكتب- بالتعاون مع المجامع اللغوية والعلمية العربية والهيئات المصطلحية المختصة، بعقد ثلاث ندوات متخصصة:

أ- ندوة توحيد منهجيات وضع المصطلحات العلمية الجديدة -الرباط 18-20 فبراير 1981م.

ب- ندوة تطوير منهجية وضع المصطلح العربي، وبحث سبل نشر المصطلح الموحد وإشاعته -عمان (الأردن) 6-1993/9/9م.

ج- ندوة التقنيات الحاسوبية في خدمة المصطلح العلمي والمعجم المختص - طنجة(المغرب)21-22 /1995/4م.

وقد خرجت الندوة الأولى بمجموعة هامة من المبادئ الأساسية الواجب مراعاتها عند وضع المصطلح.ودرست الندوة الثانية مجوعة مختارة من الدراسات والبحوث المتعلقة بالتصور النظري لمنهجية وضع المصطلحات.

ونظرا لأهمية البحوث والدرسات والتوصيات الصادرة عن هذه الندوة (ندوة عمان) فقد أخرجها المكتب في عدد خاص من مجلة " اللسان العربي" هو العدد 39 لسنة 1995.

وجاءت الندوة الثالثة (ندوة طنجة) لتعالج الجانب الحاسوبي التطبيقي ووضع المبادئ العامة لاستغلال الحاسوب في المجال المصطلحي.ويعكف المكتب حاليا على الإعداد لعقد ندوة -خلال سنة 1997-بعنوان: التطبيقات الحاسوبية العربية في المجال للصطلحي،استكمالا لندوة طنجة آنفة الذكر.

طريقة عمل المكتب في إعداد المصطلحات قبل عرضها على مؤتمرات التعريب للمصادقة عليها .

يتعاقد المكتب مع فريق عمل من الأساتذة والخبراء المتخصصين في مجال معين لإعداد مشروع أولي لمعجم معين في مادة معينة. يرسل المشروع إلى الجهات المختصة في الوطن العربي لدراسته وإبداء الملاحظات عليه، قبل عرضه على ندوة متخصصة لدراسته.يعاد طبع المشروع، بعد دراسته من قبل الندوة، ويرسل مرة أخرى إلى المؤسسات العربية المختصة لدراسته وتنقيحه، تمهيداً لعرضه على مؤتمر للتعريب. بعد أن تعرض المشروعات المعجمية على مؤتمر للتعريب ، يقوم المكتب بطبع ونشر وتوزيع ما تم إقراره من هذه المشروعات ، في صيغة معاجم موحدة.

مؤتمرات التعريب

مؤتمرات التعريب هي السلطة العليا صاحبة القرار السياسي، بالنسبة إلى السياسة الخاصة بمكتب تنسيق التعريب، وتنعقد هذه المؤتمرات بصفة دورية كل سنتين، أو عند الاقتضاء، على مستوى وزراء التربية والتعليم في الوطن العربي أو من يمثلهم. يشكل المؤتمر لجانا متخصصة تعكف ، أثناء انعقاده، على دراسة المشروعات وأوراق العمل التي يعرضها المكتب على المؤتمر لدراستها وتمحيصها واتخاذ القرارات المناسبة بشأنها.

نبذة عن مؤتمرات التعريب

- المؤتمر الأول للتعريب

عقد مؤتمر التعريب الأول بالمملكة المغربية فيما بين ثالث وسابع أبريل سنة 1961، بغية تحقيق معنى التعريب في كل مرفق من مرافق الأمة العربية في كل بلد من بلاد العرب.وقد أوصى المؤتمر بأن يصبح هيئة دائمة وأن يستمر انعقاده دوريا وينشأ له مكتب دائم مقره المملكة المغربية ،تحت إشراف الجامعة العربية، وتمثل فيه جميع البلاد العربية، مهمته أن يتلقى ويتتبع ما تنتهي إليه بحوث العلماء والمجامع اللغوية ونشاط الكتاب والأدباء والمترجمين ، ويقوم بتنسيق ذلك كله وتصنيفه ومقارنته ليستخرج منه ما يتصل بأغراض المؤتمر لعرضه على المؤتمرات المقبلة. وهذا المكتب هو: مكتب تنسيق التعريب بالرباط.

كما أوصى المؤتمر بأن تكون اللغة العربية لغة التعليم لجميع المواد في جميع المراحل والأنواع وفي كل قطر عربي دون أن يعني ذلك منع تدريس اللغات الأجنبية.

وقد أوصى المؤتمر الدول العربية بوضع خطة لتوحيد وسائل الإعلام العامة ؛ من صحافة وإذاعة وسينما وغيرها، لتكون وسيلة من وسائل التعريب ونشر اللغة الفصيحة بين طبقات الشعب المختلفة وتقريب لغة التخاطب من الفصحى.

وكان المؤتمر، في جميع توصياته، يرمي إلى " بناء جيل عربي واع مستنير، يؤمن بالله وبالوطن الأكبر، ويثق بنفسه وأمته ويستهدف المثل العليا في السلوك الفردي والاجتماعي، ويستمسك بمبادئ الحق والخير، ويملك إرادة النضال المشترك وأسباب القوة، والعمل الإيجابي، متسلحا بالعلم والخلق، لتثبيت مكانة الأمة العربية المجيدة وتأمين حقها في الحرية والأمن والحياة الكريمة".

المؤتمر الثاني للتعريب

عُقد مؤتمر التعريب الثاني في الجزائر من الثاني عشر حتى العشرين من شهر ديسمبر (كانون الأول) 1973.

وقد تضمنت وثيقة المؤتمر جملة من المبادئ والاتجاهات والتوصيات نذكر منها:

أولا: المبادئ

1- اللغة مقوم رئيسي من مقومات وجود الأمة واستمرارها.وكل خطر يهدد اللغة هو خطر يتهدد شخصية الأمة واستمراريتها وارتباط ما بين أجيالها.

2- إن تأصيل العلوم وانتشار المعارف في أمة من الأمم لا يكون إلا بلغتها. ولذلك فإن لحاق البلاد العربية بالحضارة العلمية المعاصرة ومواكبتها لها، ثم مشاركتها فيها، يجب أن يبدأ باستخدام اللغة العربية لغة للتدريس، وإعداد المصطلحات العلمية الموحدة لذلك.

3- إن تأصيل اللغة لا يقتصر على الأخذ بها في مرحلة دون مرحلة، وإنما يجب أن يمازج مراحل التعليم كلها منذ بدايتها، حتى يتيسر لأبناء هذه اللغة أن يعايشوها معايشة كاملة تساعد بعد ذلك على التصرف بها وتطويرها.

4- إن ما لحق اللغة العربية من قصور في العصور المتأخرة لا يعود إلى العربية نفسها وإنما يرتد إلى ما فرضه الغزو اللغوي - على درجات متفاوتة- من مباعدة بينها وبين أصحابها، ومن تشكيك فيها، وعزل لها عن الحياة والمجتمع. والتجارب اللغوية المعاصرة في العالم تثبت، على نحو لا يقبل الشك، أن دؤوب أصحاب اللغة على الأخذ بها وإشاعة استعمالها في كل الميادين النظرية والعلمية،والدراسات العلمية والإنسانية- كفيل بتمكينها من الوفاء بحاجات العصر المتطورة.

5- إن اللغة العربية قادرة - بحكم طبيعتها وخصائصها وتراثها الذي أسهمت فيه في الحضارة الإنسانية- على أن تكون لغة العلم الحديث: تدريساً وتأليفاً وبحثا.

6- إن الدعوة إلى تدريس العلوم باللغة العربية

والعناية بهذه اللغة لا تعني إهمال الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية ولا تقصد إليه.

ثانيا: الاتجاهات

إن المؤتمر ينعقد في ظل غاية رئيسية هي: توحيد المصطلح العلمي.

1- والأعضاء الذين يشاركون فيه من البلاد العربية يصدرون عن إيمانهم بملاحقة التطور العلمي ومصاحبته، ولكنهم يلاحظون أن نقل المصطلح العلمي أووضعه أو الأخذ به تفاوت بين قطر وآخر تفاوتاً أضحى يحتم عليهم توحيد هذا المصطلح تمهيداً للغة علمية مشتركة.

وهم يدركون أن أسباب هذا التفاوت تعود إلى فقدان العمل المنظم في هذه السبيل، فقد أسهمت فيه مجامع وجامعات، وهيئات وأفراد، وكان أكثر النقل فيه عن اللغتين الفرنسية والإنجليزية، واتخذت في اصطناعه أساليب مختلفة من الوضع والترجمة والنحت والتعريب.ولذلك فإن توحيد هذا المصطلح يرتبط بسلسلتين من العوامل: عوامل تتصل باللغة العربية والتعليم العربي والطباعة العربية، وعوامل أخرى تتصل بالظروف الاجتماعية والسياسية.ولابد لذلك من أن يتخذ العمل في المصطلحات وجهة تتلخص في دراسة هاتين السلسلتين دراسة علمية، واصطفاء ما يؤدي إلى الالتقاء والتوحيد،والابتعاد عما يقود إلى التفرق والتشتت.

2- إن اختيار المصطلحات العلمية في هذا المؤتمر لمقابلة المصطلحات العلمية الأجنبية لا يؤلف غاية في ذاته بقدر ما يكون سبيلا إلى غايات أخرى هي تطبيق هذه المصطلحات واستعمالها في كل مجالات الأداء والإبلاغ: في المدارس والأندية، وفي وسائل الإعلام وفي الدوائر والمكاتب، وذلك في عمل مشترك عام يعايش المجتمع في كل طبقاته وفئاته وفي كل مراحله التعليمية، حتى يتم التفاعل بين اللغة والمجتمع على نحو يقود التطور الفكري والتطور اللغوي في خطين متكاملين، ويقطع الطريق على التفاوت أو التناقض الذي نشهده أحياناً بين الحياة واللغة وتطبيقاتها المختلفة.

3- إن اختيار المصطلح العلمي في نطاق التعليم العام في المؤتمر الثاني للتعريب لا يعني أن المؤتمر يريد أن يقف باللغة العلمية عند حدود التعليم الثانوي، ولكنه يعتبر أن عمله هذا تمهيد للخطوة التي يجب أن تلي بعد ذلك، أي نحو المصطلح العلمي في التعليم الجامعي. ذلك لأن تدريس العلوم بالعربية في المرحلة الثانوية وحدها نوع من العمل الناقص لا يضمن تحقيق الغاية المرجوة.. ولهذا فإن المؤتمر يأخذ بالاتجاه إلى تدريس العلوم باللغة العربية في التعليم العالي كله في الجامعات والمعاهد، ويؤكد أن هذه البيئات العالية تشكل ميداناً بالغ الأهمية يجب أن تتجلى فيه إرادة الأمة العربية في صيانة لغتها وإعطائها الفرص الحقيقية والمنتجة للتعبير عن المفاهيم الفكرية للعصر ومنجزاته التطبيقية والتقنية، ويرى المؤتمر في التجربة التي قدمتها بعض الأقطار العربية والتي أعطت أطيب ثمارها تأكيداً لسلامة هذا الاتجاه ولضرورة الأخذ به.

4- إن النتائج التي انتهى إليها المؤتمر في هذه المصطلحات التي تدارسها، مقدمة لاستخدامها في التعليم والتأليف ووضعها موضع التجربة والممارسة. غير أن اختيار المصطلح لا يعني تجميده، فالمصطلحات العلمية بطبيعتها عمل مستمر متصل.

ثالثاً: التوصيات

أوصى المؤتمر باتباع منهجية للعمل في مشروعات المصطلحات في المستقبل على أن تتناول هذه المنهجية مراحل العمل كلها في الإعداد والدراسة والإقرار. ففي الإعداد:لا بد من عمل أولي منظم يتناول استقصاء المصطلحات القديمة وجمع المصطلحات الحديثة. وفي الدراسة: لابد من اللجوء إلى نظام المراحل المتدرجة فتتقدم مرحلة الجمع والاستقراء والاستقصاء على أية مرحلة ثم تأتي مرحلة اللجان المتخصصة والندوات للتمحيص والغربلة قبل مرحلة المؤتمر العام ولجانه للمصادقة.وفي إقرار المصطلحات: لابد من استلهام هذه الأصول والقواعد والتقيد بها لتتوافر للمصطلحات: السلامة في اللغة، والسهولة في الأداء، والوضوح في الفكر، والدقة في التعبير.

وفي الالتزام، يرى المؤتمر أن قضية المصطلح العلمي لم تنل من العناية في التنفيذ قدر ما نالت من عناية في الإعداد والدراسة والإقرار، وأنه إذا كانت قضية المصطلح عملية مستمرة فإن ذلك يقتضي الا يستمر الجدل النظري حولها إلى ما لا نهاية له، وأنه لا بد من أن يخرج هذا النقاش النظري إلى مرحلة التطبيق والتجربة العلمية حتى يكون استخدام المصطلح هو الذي يحقق امتحانه والحكم عليه.

ولذلك فإن أعضاء المؤتمر يذهبون إلى وجوب الأخذ بمبدإ الالتزام بهذه المصطلحات يلتزمونها هم في مدارسهم وجامعاتهم وبحوثهم ومعاجمهم ويدعون إليها حتى حين يكون تدريسهم باللغة الأجنبية، ثم يهيبون بالسلطات المختصة أن تلتزم بها،كلما كان ذلك ممكنا، في المدارس والإدارات والمؤسسات ووسائل الإعلام والشركات حتى تكون جزءا حيا في الحياة العلمية والعملية والإدارية، وحتى يتحقق لها أكبر قدر من الشيوع والاستقرار.

والمؤتمر حين يؤكد هذا المبدأ يؤمن بأنه لابد من إتاحة الفرصة أمام الأقطار العربية -حسب قدرة كل قطر وظروفه- للأخذ بذلك، آملا أن يكون الجهد في الأخذ بهذا المبدإ أقوى من الصعوبة وأن يكون التعارض بين الرغبة والإمكان أدنى إلى غلبة الرغبة على عوائق الإمكان.

وقد صادق مؤتمر التعريب الثاني على توحيد قوائم مصطلحات صدرت في ستة معاجم، في موضوعات:الحيوان والنبات والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والرياضيات تشتمل على 17761 مصطلحا بثلاث لغات (العربية- الإنجليزية- الفرنسية).

المؤتمر الثالث للتعريب

عقد مؤتمر التعريب الثالث بطرابلس (ليبيا) من 7-1977/2/16م.

أكد المؤتمر من جديد أهمية العامل اللغوي في الحياة

العربية، كما أكد قدرة اللغة العربية على الوفاء بالتقدم العلمي والاجتماعي، بما لها من خصائص ذاتية، وما في تراثها من زاد غني ساعدها على أن تكون لغة الحضارة، ويرى أنها بهذه الخصائص والقدرات، وبما عند أبنائها من إيمان وعزم، قادرة على أن تستأنف مسيرتها الحضارية بنجاح أكيد.

وبالنسبة إلى التعريب، يرى المؤتمر أن الأمة العربية يجب أن تكون قد تجاوزت في أقطارها كلها فترة التفكير في التعريب، إلى الأخذ به، والتماس كل الوسائل، وقطع الطريق على مراحل التشكيك فيه، واعتباره -في المرحلة الحاضرة- هدفا أساسياً من أهدافها، وأسلوبا رئيسياً من أساليب تحقيق وجودها الفكري وشخصيتها الحضارية، ووحدتها النفسية واللغوية.

وقد صادق المؤتمر على توحيد مجموعة مصطلحات في موضوعات التاريخ والجغرافيا والفلك والفلسفة والمنطق وعلم النفس والصحة وجسم الإنسان والرياضيات والإحصاء تبلغ **10393** مصطلحا باللغات الثلاث (العربية- الإنجليزية- الفرنسية).

المؤتمر الرابع للتعريب

عُقد مؤتمر التعريب الرابع بطنجة (المملكة المغربية) في الفترة من **20** إلى **1981/04/22**م.

أكد المؤتمر مرة أخرى إيمانه المطلق بأن "اللغة العربية"- وهي لغة القرآن الكريم- أقوى الروابط التي بقيت تربط بين أجزاء البلاد العربية لتجاوز عوامل التجزئة والتقسيم التي تعانيها.

وبخصوص حركة التعريب في الأقطار العربية، قدم رؤساء الوفود المشاركة مذكرات مكتوبة عن جهود بلادهم في ميدان تعريب التعليم، وأثارت هذه المذكرات مناقشات مستفيضة دار أكثرها حول الحقائق الآتية:

1- للغة العربية- إذا قيست باللغات الأخرى- مقدرات رائعة تمكن لها من مواكبة العلوم والمعارف ومسايرة تطورها، بحكم خصائصها الذاتية من جهة، وبحكم تجربتها الحضارية من جهة أخرى، وهي تجربة تمثلت في احتواء علوم العصور قبلها، علوم الرومان واليونان وشعوب الشرق، وفي استيعاب الحضارة الإسلامية بكل ما جددت وحصلت من علوم وفنون.

2- التعليم باللغة العربية ليس استجابة للمشاعر القومية ولازلفى لها ولكنه كذلك استجابة للحقائق التربوية التي أثبتت أن تعليم الإنسان بلغته أقوى مردوداً وأبعد أثراً وأنه أحفل بالنتائج الخيّرة من الناحيتين الكمية والكيفية.

3- إذا كان هذا هو شأن اللغة العربية وقدرتها وامتيازاتها وتاريخها ومكانتها الحضارية وعائداتها على التعليم بها، فإنه آن الأوان لتكون هي لغة الحياة العلمية، ولغة الحياة التعليمية في مراحلها كلها، ولغة الحياة اليومية على اختلاف مستوياتها، ولغة الحياة الإدارية في كل جوانبها.

وبعد أن درس المؤتمرون بعض الظروف التي تحيط بالتعريب، ووقفوا على الآراء التي تكتنفه، وهي آراء تتأرجح بين الأناة وبين مجارات الزمن، انعقد الإجماع

على أنه من الخير لو استطاعت الدول العربية أن تتخذ في ذلك قرارا سياسياً حتى لا يظل الأمر عرضة لتكرار القول وإعادته في هذا التعريب. وانتهى المؤتمرون إلى التوصية الآتية:

يكرر المؤتمر، مرة جديدة، بعد سلسلة من المرات السابقة أمله في أن يتحقق هذا التعريب في خطوط متوازية في نطاق التعليم ، وفي نطاق الإدارة ، وفي نطاق الحياة اليومية.

وقد صادق المؤتمر على توحيد مجموعة أخرى من المصطلحات في موضوعات: الكهرباء، وهندسة البناء، والمحاسبة، والنجارة، والتجارة، والنفط، والجيولوجيا، والحاسبات الألكترونية ، تبلغ 23000 مصطلح بثلاث لغات (العربية- الإنجليزية- الفرنسية).

المؤتمر الخامس للتعريب

عُقد مؤتمر التعريب الخامس بعمان (المملكة الأردنية الهاشمية) في رحاب مجمع اللغة العربية الأردني، في الفترة من 21-25 سبتمبر (أيلول)1985م.

أكد المؤتمر ما سبق أن أقره في المؤتمرات السابقة من توصيات خاصة بالمبادئ التي يرتكز عليها التعريب في الوطن العربي، كما أوصى من جديد باتباع منهجية للعمل في مشروعات تعريب المصطلحات، تتناول مراحل العمل جميعا في الإعداد، والدراسة، والإقرار.

وقد بارك المؤتمر الأعمال التي أنجزها مكتب تنسيق التعريب والتي ساعدت على تدعيم تعريب العلوم في مراحل التعليم العام.

وصادق المؤتمر على توحيد مجموعة أخرى من المصطلحات تبلغ ...40067 مصطلحا في موضوعات: الفيزياء، والتربية، وعلم الاجتماع والانتروبولوجيا، والكيمياء، واللسانيات، والألعاب الرياضية، والزراعة، والإحصاء، والسكك الحديدية.

المؤتمر السادس للتعريب

عُقد مؤتمر التعريب السادس بالرباط في الفترة من 26-1988/9/30.

أكد المؤتمر ما سبق أن أصدره من توصيات في مؤتمراته الخمسة السابقة. وقد ألح بصفة خاصة على أن اللغة العربية مقوم رئيسي من مقومات وجود الأمة العربية... وأن تأصيل العلوم لا يكون إلا بلغة الأمة... وأن ما يهدف إليه التعريب هو بالدرجة الأولى توحيد المصطلح العلمي، وتطبيق هذا المصطلح، واستعماله، وتداوله في كل مجالات الحياة أداء وإبلاغاً، وأن القرار السياسي لا غنى عنه لنقل المصطلحات العربية إلى المجال التطبيقي.

وقد وضع المؤتمر أمام المختصين أهم الأفكار والملاحظات والاقتراحات التي قدمها السادة المؤتمرون عند معالجتهم لموضوع منهجية تعريب العلوم، تتلخص في أن ثمة أربع منهجيات كبرى في التعريب هي:

- المنهجية التكنولوجية وتتجلى في أن نوفر للغة العربية الوسائل التقنية التي تنقصها، وفي طليعتها الحرف العربي، وقاعدة المعلومات اللازمة.

- المنهجية العلمية وتكمن في كيفية وضع

المصطلحات وتوحيدها وتنميطها.

- المنهجية التنسيقية التنظيمية وتتجلى في كيفية تنظيم أعمالنا في التعريب داخل البلد الواحد ثم بين البلاد العربية.

- منهجية السياسة اللغوية إذ أنه لا توجد حتى الآن سياسة لغوية في الوطن العربي.

وقد صادق المؤتمر على توحيد مجموعة مصطلحات تبلغ 10465 مصطلحاً، في موضوعات:الموسيقى، والآثار، والجغرافيا، والاقتصاد، والقانون.

المؤتمر السابع للتعريب

عُقد مؤتمر التعريب السابع بالخرطوم في الفترة 1994/1/25-1994/2/1.

أكد المؤتمر ما سبق أن أقرته مؤتمرات التعريب الستة السابقة من ضرورة العناية باللغة العربية والتعريب . وقد جاء في كلمة السيد المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر:..." إن الإشكاليات الموروثة والمتراكمة عبر تحولات اجتماعية وثقافية متفاوتة ومتباينة تدعونا إلى تناول موضوع التعريب من زوايا متعددة. فالتعريب في سياسة المنظمة، مثلما هو في نظر عدد من المفكرين العرب، ليس رصفا لقوائم المصطلحات لهذا العلم أو ذلك، بلغة واحدة أو بعدة لغات بل هو جزء هام وحيوي من خطط المنظمة الآنية والمتوسطة والبعيدة المدى. فهو في استراتيجية إدارة العلوم مسعى طموح يهدف إلى نقل التكنولوجيا واستيفائها في الوطن العربي مع تأصيل يمهد للابتكار، وليس عن طريق تقليد سطحي ومجرد نسخ يؤدي إلى الاستلاب والمسخ. وبذلك يصبح استعمال العربية استعمالا مبدعا في المخابر والجامعات ومراكز البحوث، بما يجعل من التعريب في استراتيجية دائرة الثقافة بالمنظمة تنويرا للفكر العربي وإعادة تكييفه حتى يصبح قادرا على محاورة نظيره الأجنبي، يساويه اندماجا في حضارة العصر، ويأخذ عنه دون أن يكون عالة عليه.وهو في سياسة إدارة التربية تطويع للعلوم وتمكن من مفاتيح التكنولوجيا بما يؤدي إلى تعريب التعليم العلمي الجامعي في إطار حركة إبداعية صاعدة تضمن ارتفاع المستوى،منهجا ومدرسة، أستاذاً وطالباً "⑦.

وصادق المؤتمر على توحيد مجموعة مصطلحات بلغ عددها 12667 مصطلحا بثلاث لغات (العربية- الانجليزية- الفرنسية)، في موضوعات: السياحة، والزلازل، والبيئة، والطاقات المتجددة.

كما صادق على " نظام الرموز العلمية للغة العربية" الذي أقرته الندوة التي عقدها اتحاد المجامع اللغوية العربية بعمان 1987م، وكلف مكتب تنسيق التعريب بإعادة نشره وتوزيعه على الجهات المختصة في الوطن العربي، وهو ما قام به المكتب سنة 1996.

وقبل الانتهاء من الحديث عن مؤتمرات التعريب يطيب لنا أن نشير إلى أن مكتب تنسيق التعريب يعكف حالياً على الإعداد لعقد مؤتمري التعريب، الثامن والتاسع، في مؤتمر واحد، أواخر السنة الجارية 1997.وبالإضافة إلى البحوث التي ستلقى في المؤتمر، فقد أعد المكتب تسعة مشروعات معجمية ،

سيعرضها على المؤتمر للمصادقة عليها، تمهيداً لطبعها وتوزيعها على الجهات المختصة في الأقطار العربية. وتتناول هذه المشروعات موضوعات: المياه، الاستعشار عن بعد، التقنيات التربوية، الإعلام، الفنون التشكيلية، الأرصاد الجوية ، الهندسة الميكانيكية، المعلوماتية، وعلم البحار. كما يعكف المكتب على

إعداد تسعة مشروعات معجمية أخرى، في مجالات: الصيدلة، الطب البيطري، تقنيات الأغذية، المورثات (الجينات)، الحرب الألكترونية، الأدب والنقد، الإدارة العامة والمرافق المختصة، العادات والتقاليد والأزياء، والغزل والنسيج، وذلك للعرض على مؤتمري التعريب العاشر والحادي عشر.

التعريب.. في الخطة متوسطة المدى الثالثة للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم(1997-2002)

من أهداف الخطة متوسطة المدى الثالثة:

1- العناية باللغة العربية وتطوير أساليب تدريسها في مختلف المراحل التعليمية.

2- الارتقاء بالتعريب وتطوير الترجمة في الوطن العربي.

وقد وضعت المنظمة في هذه الخطة برنامجا تحت عنوان: **تحسين نوعية التعليم العالي والجامعي**، من أهدافه:

- العمل على تعريب التعليم العالي والجامعي في الكليات التي ما زالت تدرس بغير العربية ، مع الاهتمام بتعليم اللغات الأجنبية. ومن أنشطة هذا البرنامج:

1- متابعة تنفيذ توصيات مؤتمر وزراء التعليم العالي بتعريب التعليم العالي والجامعي.

2- وضع خطة قومية لتعريب البحوث العلمية ، وبخاصة في مجالات الدراسات المستقبلية والعلوم الطبية والهندسية والفيزيائية الحديثة.

وتشتمل الخطة على برنامج بعنوان: **تعميم التعريب وتطوير الترجمة في الوطن العربي**

ويهدف هذا البرنامج إلى:

1- دفع عملية التعريب في بعض الأقطار العربية.

2- سيرورة اللغة العربية وانتشارها في مناحي الحياة كافة.

3- الارتقاء بالترجمة وتطويرها إنماء للفكر العربي.

4- تمكين اللغة العربية من التطور المستمر.

ومن أنشطة هذا البرنامج:

- العمل على تعريب التعليم بمختلف مراحله وشعبه بصورة مرحلية ومدروسة.

- تعريب المصطلحات العلمية والتقانية المستحدثة.

- تعريب الإدارة في بعض الأقطار العربية بالتنسيق مع المؤسسات المتخصصة.

- تعريب الأعمال الفكرية والعلمية المتميزة.

وتتضمن الخطة برنامجا تحت عنوان : " **إقامة الشبكة العربية للمعلومات التربوية والثقافية والعلمية وربطها بالشبكات العالمية المتخصصة في هذه المجالات**. من أهداف هذا البرنامج:

بناء شبكة عربية للمعلومات في مجالات عمل

المنظمة تكون أطرافها مرافق المعلومات بالدول العربية.

ومن أنشطة هذا البرنامج: تعريب الأدوات والبرمجيات والمراجع الهامة في مجال المعلومات والإحصاء خاصة الصادرة عن الاتحاد الدولي للمكتبات (IFLA) والاتحاد الدولي للأرشيف (ICA) والاتحاد الدولي للمعلومات والتوثيق (IFID) على الخط المباشر (OCLC) وناشر تصنيف ديوي العشري- مؤسسة فورست برس، واليونسكو والمركز الدولي للتنمية والبحوث (IDRC) وتوزيع هذه البرمجيات والأدوات المعربة على أوسع نطاق في الوطن العربي، إما عن طريق الإهداء أو البيع بأدنى تكلفة ممكنة.

الخاتمة:

التعريب قضية كبيرة ومعقدة وذات أبعاد متعددة، والعقبات التي تقع في طريق تحقيق هذا النوع من القضايا تكون عادة كثيرة ومتشعبة تشعب القضية نفسها، ومن ثم فإنه يستحيل التغلب عليها بين عشية وضحاها. ومع ذلك فإن المشاكل التي تواجهها عملية التعريب لا يستعصي حلها على أمة عظيمة مثل أمتنا العربية، أمة غنية بإيمانها وإرادتها وتصميمها، وبأبنائها وعلمائها النابغين المبرزين الذين تعج بهم المؤسسات العلمية ومراكز البحث في كل مكان من المعمور. يؤكد ذلك ما نراه من تجارب عملية ناجحة، في بعض الأقطار العربية، حيث أصبح التعريب شاملا وكليا في الكثير من القطاعات، بل وفي أجهزة الدولة كلها (التجربة السورية).

ومع أننا اعتبرنا موضوع التعريب موضوعا شائكا ومعقدا، فإن ذلك يجب أن لا يصيبنا بالإحباط أو التراخي، بحيث نظل ننتظر ونتردد، في عملية التعريب، إلى ما لا نهاية له. إن السماء لا تمطر ذهبا؛ وهي كذلك لا تمطر حلولا للمشاكل. لابد أن نتحرك ، لقد طال الانتظار، والزمن لا يرحم، خاصة وأننا اليوم في عهد السرعة. وحتى لا نظل نردد ما ردده الآخرون من قبلنا، حول هذا الموضوع، دعونا نقرر- ولنكن صريحين- أن مفتاح هذه القضية العربية المصيرية (قضية التعريب) يوجد بأيدي أصحاب القرار في أقطارنا العربية؛ لا بد من اتخاذ قرار سياسي حاسم وملزم في هذا الموضوع، قرار لا يفتح الباب أمام أي استثناء،لأننا لاحظنا- بالتجربة- أن الاستثناء في أحيان كثيرة يصبح هو القاعدة، وهذا ما حدث فعلا بالنسبة إلى التعريب، عند ما تقرر أن يكون متدرجا، وفي قطاعات معينة، إلى أن يتم الاستعداد لتعريب القطاعات الأخرى، خاصة فيما يتعلق بالتعليم العالي والجامعي.

والقرار السياسي- على أهميته- لا يكفي وحده للوصول إلى الهدف المنشود، ذلك أننا أشرنا إليه آنفا من أن مفتاح التعريب يوجد بحوزة أصحاب القرار، نعني به أنه لا بد من وجود إرادة معززة بقناعة ، لدى كل الأوساط العربية الفاعلة، من أجل خوض عملية التعريب ، كل فيما يخصه، وعلى جميع المستويات.

ولنأخذ- على سبيل المثال- تعريب التعليم العالي، في التخصصات العلمية خاصة؛ لقد ثبت- بالتجربة- أن جميع الأساتذة العرب، وحتى الذين تلقوا تعليمهم بلغات أجنبية، قادرون - إذا ما توفرت لديهم القناعة- على إلقاء محاضراتهم وإعداد بحوثهم باللغة العربية، وأن العدد القليل من هؤلاء الأساتذة يتلقى ، في ذلك صعوبات طفيفة يتم التغلب عليها في فترة وجيزة. مع ملاحظة ارتفاع درجة استيعاب المواد العلمية لدى الطلبة بفضل تلقيهم العلم باللغة الأم.

لقد حاولنا ، في هذه الدراسة، أن نُذكّر ببعض الجهود العربية التي بُذلت بغية تذليل الصعوبات التي تعترض عملية التعريب، وذلك من خلال تجربة مكتب تنسيق التعريب وما قام به في هذا المجال، بالتعاون مع المجامع العلمية واللغوية العربية والجامعات والهيئات العربية المتخصصة.

ويسعدنا أن نلاحظ أن أمتنا العربية أصبحت، بعد الجهود المشار إليها، تمتلك أدوات العمل اللازمة لخوض غمار عملية التعريب الشامل، دون وجل أو تردد. ونحن على يقين من أن النجاح سيكون حليفنا. " وما ذلك على الله بعزيز".

الهوامش

1- الأستاذ الدكتور حسني سبح - رحمه الله- رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق (سابقا)- تعريب علوم الطب. مجلة " اللسان العربي" العدد 27 - ص.29 (1986م)

2- الأستاذ الدكتور محيي الدين صابر،المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (سابقا). التعريب والمصطلح.

مجلة " اللسان العربي" العدد 28-ص.14(1987م).

3- الأستاذ الدكتور جميل الملائكة. الصعوبات المفتعلة على درب التعريب.

مجلة " اللسان العربي" العدد 27 ص.32 (1986م).

4- الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور- رحمه الله-رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة (سابقا) .لغة العلم. مجلة " اللسان العربي" العدد 27 ص.17 (1986م).

5- الدكتور علي القاسمي. المصطلح الموحد ومكانته في الوطن العربي.

مجلة " اللسان العربي". العدد 27ص.81 (1986م).

6- الدكتور أحمد شحلان، مدير مكتب تنسيق التعريب (سابقا) في تقديمه لدراسة حول المكتب أعدها الأستاذ محمد أفسحي (أحد أطر المكتب)، نشرت بمجلة "اللسان العربي". العدد 34 (1990م).

7- الأستاذ الدكتور محمد الميلي إبراهيمي، المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، فقرات من كلمته في الجلسة الافتتاحية لمؤتمر التعريب السابع بالخرطوم.

[111]

معاجم مصطلحية

مصطلحات سباق الخيل

الدكتور / المنجي الصيادي (تونـــس)

مصطلحات سباق الخيل

د. المنجي الصيادي(*)

العمل المصطلحي له غاياته المتمثلة أساسا في تأكيد متواصل الحلقات بأن العربية لغة قـــادرة علـــى الاســـتجابة لمتطلبات الحياة المعاصرة ولحاجات التعبير اليومي، أي الإعلامي بمختلف وسائله.

ولا تكون نجاعة هذا المجهود فاعلة إلا إذا تمكنت هذه اللغة من إيصال الألفاظ المطلوبة إلى مستعمليها بصورة تكاد تكون فورية، دون أن يغني ذلك المؤسسات اللغوية عن الاستمرار في عملها الدؤوب الرصين، يعاضدها مجهود الخبراء اليومي الذي يتعين عليه أن يتحسس المستجدات على الساحة العالمية، فيشتق هؤلاء الخبراء من التراث اللغوي الـــذي لا ينضب الألفاظ القادرة على سد النقص ولو بصورة مؤقتة ترقبا لما يصدر عن الهيئات من ألفاظ "رسميـــة". هـــذا العمل من شأنه أن يحول دون الفوضى في المصطلحات المتخصصة في الحقل الإعلامي، فلا مفر من تغذية الوســـائل السمعية البصرية بما تحتاجه وتقديم المقابلات العربية لما يجدّ في اللغة الفرنسية والإنجليزية من كلمات مـــن صميـــم الحضارة المعاصرة.

وقد تبين بعد التحري أن هناك ميادين كثيرة لصيقة باهتمامات رجال الإعلام والمواطنين العاديين الذين يتطلعون جميعا إلى الحصول على المقابل العربي بأقصى سرعة. ففي الميدان الرياضي، وباستثناء الألعـــاب الرائجـــة في جميـــع الأوساط، نجد عسرا في إيجاد المقابل العربي، وقد ضربنا مثالا على ذلك في سباق الخيل الذي هو حقا بمثابة الرياضـــة العربية الصميمة التي تجلب الاهتمام بصورة مكثفة بين المتفرجين والمتراهنين بالخصوص، فضلا عن المعلقين القليلـــين المختصين في هذا المجال. فجاءت الفكرة مناسبة لاقتراح هذه القائمة المحدودة بالاعتماد علـــى الصحـــف الفرنســـية المختصة في سباق الخيل والتي تستعمل مصطلحات فنية دقيقة في حاجة إلى أن تدون بمقابلاتهـــا في اللغة العربية ونخص بالذكر: **paris-Turf** الواسعة الانتشار، في عددهـــا الخاص بتاريخ 1997/11/21. وبما أن رياضة سباق الخيل تطورت على مر العصور، واتخذت أبعادا عالمية في القرن الماضي، بانكلترا، فقد اشتملت القائمة على مصطلحـــات عديدة بالانكليزية نميزها عن باقي المصطلحات بإشارة نجمة(*).

(*) تونـــس